بسم الله الرحمن الرحيم

١٧

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبي بعده

مصطفى حلمي
الإسكندرية
٥ ربيع الأول ١٤٢٨هـ
٢٤ مارس ٢٠٠٧م

ص ٩ البدء

ص ٢ إضافة الرقم بالاسم

خطأ في تقديم الطبعة الثالثة ص ١٣

ص ١١١ نقص في الفقرة الخاصة بالشيعة

١١٢ الماتريدي

٢٠٨ آخر الصفحة

قواعد المنهج السلفي
في الفكر الإسلامي

الطبعـة الثالثـة
١٤٢٨ هـ - ٢٠٠٧م

رقم الإيداع بدار الكتب ٢١٩٨ / ٩١

الترقيم الدولى I. S. B. N. 977 - 253 - 006 - 6

دار الدعوة للطبع والنشر والتوزيع
٢ شارع منشا - محرم بك - الأسكندرية
تليفون : ٣٩٠١٩١٤ - فاكس : ٥٩٠١٦٩٥

قواعد المنهج السلفي

في الفكر الإسلامي

بحوث
في العقيدة الإسلامية

د. مصطفى حلمي
الأستاذ بدار العلوم - جامعة القاهرة





بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله . وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم ، فإن تنازعتم فى شىء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر . ذلك خير لكم وأحسن تأويلا ﴾ . (النساء / ٥٩)

مقدمة الطبعة الرابعة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى هدانا لهذا وماكنا لنهتدى لولا أن هدانا الله ، والصلاة والسلام على رسوله الذى أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله بشيرا ونذيرا .

وبعد ، فها نحن بفضل الله ومنّة وكرمه نصدر الطبعة الرابعة من هذا الكتاب ، وهى تواكب حركة اليقظة الاسلامية الآخذة فى الاتساع ، وتقابلها حركة مضادة بدوافع تغريبية وعلمانية وماركسية .

وازاء الكم الهائل من البحوث والمقالات والكتب التى حاولت - ومازالت تحاول حصار اليقظة (أو الصحوة) الاسلامية لإجهاضها ثقافيا وإعلامياً وسياسياً ، سالكة سبلاً عدة ، ربما من أهمها :-

(١) خلط المفاهيم وإثارة الرأى العام وتفسيره من الأتجاه الإسلامى بإختراع الفاظ ذات مدلولات منفرة كالجمود والرجعية والتعصب والتزمت الخ ..

وهى معركة المصطلحات التى تحذر من الانزلاق اليها بغير تمهيد للاتفاق على مفاهيمها ومدلولاتها والمقصود منها لاسيما أننا نعالج العقيدة السلفية وندعو الى اعتناقها والأقتداء بطريقة السلف فى تلقى الإسلام وتطبيقه بشرائعه ونظمه وقيمه .

٢ - محاولة تطويع حركة اليقظة للمفاهيم الدينية الغربية التى تفصل بين الدين وبين النظم والتشريعات حيث تصاغ الأخيرة بواسطة الفلاسفة والمشرعين يعدلونها ويغيرونها كما يشاءون لملء فراغ العقيدة الدينية .

٣ - الدعوة الى الأقتداء بالحضارة المعاصرة والذوبان فى بوتقها بزعم العصرية .

---

١ - اعادة النظر فى كتاب المصريين فى ضوء الإسلام ، أنور الجندى ص ٢٦٠ ط دار الاعتصام بالقاهرة ١٩٨٥ م .

واءاء هذه المحاولات الهادمة الى حصار عقيدة الإسلام وزعزعتها فى النفوس ، نرى توضيح الرد عليها اختصار بالمقدمة ، وفى فحوى الكتاب يتسع للشرح والإفاضة :

(١) المقصود بالسلف كمصطلح – كما اوضحنا بصفحات الكتاب – أهل القرون الأولى المفضلة منذ عصر النبى ﷺ ثم الصحابة والتابعين ومن سار على دربهم وفق مناهج ثابتة نتلمسها فى مصادرها بكتب العقائد والفقه واصوله والتفسير والسنة والسيرة النبوية وتراجم الرجال والتاريخ الخ ...

وحتى لايتبادر الى الذهن الاقتصار على المدلول التاريخى وحده ، نبادر فنقرب المعنى للقارىء فنقول : ان قمم الجبال الشوامخ لا يؤثر فيها انقضاء السنين والقرون ، بل تظل قمما شامخة ترنو اليها الأبصار ، وبالمثل فأن أهل العصور الأولى يعبرون عن ذروة حضارتنا (ذلك إن الإسلام قدم للبشرية النموذج الأكمل للمجتمع الربانى الذى حقق الرسول ﷺ به نموذجا علميا لم يستطع الخلل أن يتطرق اليه إلا حينما اختلت قاعدة البناء فى القلوب) .

فهل نحن فى حاجة الى التأكيد مرة أخرى بأن تطلعنا الى الأقتداء بالسلف – عقيدة وقيماً وسلوكاً – لايعنى الرجوع الى الماضى ونبذ منتجات العصر بل اننا نستخدمها ونتطلع الى المستقبل والاستعداد له .

(٢) كانت الأمة فى ظل حضارتها مستمسكة بعقيدتها ، مستظلة بشريعة الإسلام طوال نحو أربعة عشر قرناً من الزمان ، ثم طرأ عليها الاستعمار الخارجى وعوامل الأنحراف الداخلى ، وهى الآن فى حاجة الى إحياء العقيدة والعودة الى الشريعة تصحيحاً لأوضاع منحرفة وإعادة الأمة الى مسارها من جديد بغير حاجة الى استحداث نظريات ووضع مشاريع وإلاّ عرضناها الى المزيد من التقلبات الهادمة وهى فى غنى عنها بعد معاناتها فى ظل أنظمة فرضت عليها .

ولا نريد ترديد الكلام المعاد عن إمكانيات الأمة البشرية وقدرات علمائها وثرواتها وموقعها والدور السياسي الذي يمكن أن تؤديه إذا عبئت وفق خطة علمية مدروسة موحدة تجمع بين التخطيط العام ورسم الأهداف والخطط التنفيذية[1] .

ومع أهمية كل ذلك ، **فإن البداءة بالإنسان وتصحيح عقيدته هي الخطوة الأولى لتحويله إلى مساره الصحيح لكي تفجر العقيدة في النفوس والقلوب ما سبق أن فعلته في مراحل عصورنا واستمرت تفعله في المواقف الحاسمة في تاريخ الأمة** وأشهرها معارك الجهاد في العصور الأولى وطوال تاريخ مواجهتها لأعدائها ، ثم حروب التتار والحروب الصليبية إلى الجهاد الأفغاني وحرب العاشر من رمضان في تاريخنا المعاصر .

وكان دأب الرسول ﷺ في دعوته وتربيته وتوجيهاته للصحابة ، العناية بالعقائد والقيم وتحقيق الأسوة بشخصه ، أي العناية بالإنسان كنقطة البدء .

وقد جاء الوحي الإلهي بالتعريف بالإنسان ومكوناته المزدوجة بين الجسد والروح ودوره ومصيره ، وكانت حضارة الإسلام في كل أطوارها معبرة عن هذا التوازن الدقيق ، ولعل دارس أثر العبادات في النفس أيضا يقف على بعض الحقائق في هذا الصدد مما يجعلنا نقدر هذه المزية ونحرص على اتباع سنن الله تعالى في خلق الإنسان ، كما أن الموازنة بين التصور الإسلامي للإنسان وتصورات البشر الفلسفية سترينا أنه لا علاج إلا باتباع المنهج الإلهي ، فإن الله تعالى هو الخالق العظيم ، وهو الشارع الحكيم ، فله الخلق والأمر .

---

(١) ينظر كتاب (العالم الإسلامي اليوم – الاقتصاد – الموقع الجغرافي – السكان – التعداد – المشكلات) .

للدكتور عادل طه يونس – ط مكتبة ابن سينا سنة ١٩٩٠ م .

نحن إذن في غنى عن الهزات التي حدثت لحضارة الغرب بسبب افتقادها للوحي الإلهي المعصوم ، وإلا فلنلق نظرة عابرة عما حدث هناك بسبب التصورات البشرية وما يحتاجه من نظريات سياسية واجتماعية[1] أخذت تتبدل ، فأخذوا يغيرون في الأنظمة كلما ثبت إخفاقها كما يغير المرء ثيابه كلما عنّ له ذلك !!

وتكفينا مراجعة بعض النظريات السياسية والاجتماعية لنقف على العلاقة بينها وبين تصور أصحابها للإنسان وتعريفهم (الفلسفي النظري) له حسب اعتقادهم وهي مجرد فروض لا تصل إلى حد اليقين والجزم ، ومع هذا فقد كانت فعالة في صياغة الحضارة المعاصرة .

إن النظريات في طبيعة الإنسان كانت تؤلف أساس كل فلسفة ونظام سياسي ونظرية اجتماعية ، فقد كان الاعتقاد بفسوق الإنسان عنصراً أساسيا في فكر القرون الوسطى . واعتبرت الحركة التنويرية الإنسان كائنا عقلانيا في جوهره ، ويخضع معتقداته لتمحيص انتقادي .

وفي عصر الدعوة إلى عدم التدخل الحكومي في الشؤون الاقتصادية ، رأى الداروينيون الاجتماعيون الإنسان منغمساً في الصراع على البقاء ، وهو رأي أحياه من جديد الآن علماء السلوك الحيواني ، على أنه فلسفة مجتمعنا الاكتسابي والتنافسي جدا ، وفي السنوات الخمسين التي سبقت صعود هتلر ، روجت مجموعة من الفلاسفة الاجتماعيين في ألمانيا نظريات « الدم والتراب » والعودة

---

(١) اكتفينا بضرب المثال فيما يتصل فقط ببحثنا الذي نحن بصدده – أي العقيدة والفكر – أما النظم والقوانين والتشريعات فلها بحوثها ودراساتها بالمنه المقارن التي تثبت تفوق التشريعات الإسلامية بأدنى نظر .

(ينظر كتاب أحكام إسلامية إدانة للقوانين الوضعية للمستشار محمد عبد الحميد غراب ط دار الاعتصام ١٩٨٦ م .

إلى الغريزة ورفض العقل ، والنظر إلى الإنسان وحشا مفترسا في جوهره ، وإلى الحرب كأعلى شكل من أشكال حياته » .

ويقول جون لويس معلقا على هذه الآراء : (وهذه الأفكار ليست أبدا محض تكهنات مفكرين على جانب من الأصالة : إنها لعبت دوراً في صياغة الحضارة)[1] .

من طبيعة الأمم والشعوب – كالأفراد تماما – المحافظة على ذاتيتها وأصالتها ، فمثلا – هناك في فرنسا – ينادي رئيس أحد الأحزاب المحافظة بالتخلص من المسلمين لأنه يخشى منهم على الطابع المسيحي لفرنسا ! وتتضافر دول أوربا فيما بينها لكي تحافظ على ثقافتها الأوربية الخاصة ولتحمي أهلها من الثقافة الأمريكية ، وتتخذ إسرائيل من التوراة والتلمود والبروتوكلات وثائق ومعالم طريق نحو أهدافها ، وتحيي لغتها العبرية الميتة من رقادها لتجعلها وسيلة لحفظ كيانها .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

الاسكندرية في المحرم ١٤١١ هـ　　　　**مصطفى حلمي**
أغسطس ١٩٩٠ م

---

(١) الإنسان ذلك الكائن الفريد ص١٧ – جون لويس – ترجمة د. صالح جواد الكاظم – الهيئة المصرية العامة للكتاب بالقاهرة ١٩٨٦ م .



بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الثالثة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا هادى له . وأشهد أن لااله إلا الله وحده لا شريك له وأشهدأن محمدا عبده ورسوله ، أما بعد :

فان الحمد لله تعالى يقتضى ذكر نعمه وآلائه ، ومنها نفاد الطبعة الثانية فى فترة وجيزة ، فأسأله عز وجل أن ينفع بها القراء ، وأسأله العون على إخلاص النية والعمل .

وأعود فاكرر الحمد والشكر لله تعالى على التيسير باعداد هذه الطبعة التى بين يدى القارئ الكريم ، وقد حافظت فيها على البحوث الأصلية للكتاب فى طبعتيه الأولى والثانية مع إجراء بعض التعديلات إختصاراً وحذفاً لبعض بحوث الطبعة السابقة، مع تقديم وتأخير يقتضيه التسلسل التاريخى .

وظل محور الكتاب يدور حول قضايا العقيدة وإن تعددت مباحثها وتكررت ، ولكن من زوايا مختلفة ، وبمناهج تجمع بين الموضوعية والنقدية والتاريخية ، املا فى تثبيت الأفكار وترسيخها لا سيما أن موضوعنا الرئيسى هو العقيدة الإسلامية .

ونحن حريصون عندما نتكلم عن العقيدة ان نؤكد اننا فى حاجة – عند دراستها الى البناء الصحيح للفرد المسلم والمجتمعات الإسلامية ، إذ لاتنقصنا

السواعد والعقول كما يقول مالك بن نبى رحمه الله ، ولكننا فى حاجة إلى حشدها وتجميعها وفق خطط علمية[1] .

ولانحكم هذا الحكم من فراغ ولكن بعد تجارب مريرة أورثتنا الهزائم تلو الهزائم ، وهزت ثقتنا بأنفسنا ، وجعلتنا نفقد الإحساس بكياننا وسط عالم لا يحترم إلا القوة ، ولا يسمع إلا لصوت الصاروخ والمدفع ، ونعنى بذلك القوة بمدلوليها المعنوى والمادى ، فان الاعتزاز بالعقيدة والثقة بالنفس والحرص على المحافظة على العزة والكرامة قوة ، والإنتاج الصناعى والزراعى والعسكرى قوة ، وهما يسيران جنبا الى جنب ، فان الخلل فى إحداهما يؤدى الى الخلل فى الآخر .

ولعل أحد مشكلاتنا الرئيسية البحث عن (الهوية) بين أيدولوجيات العصر من قومية وعلمانية ووطنية ومذاهب فلسفية واقتصادية ، فاذا اردنا الرؤية الصحيحة ، فعلينا متابعة الدور الحضارى الذى قامت به أمتنا عندما كانت رائدة الأمم ، حيث قامت الحضارة الإسلامية على ركنين :

أحدهما : قوة الإيمان وصدق اليقين ورسوخ العقيدة الدينية ، مع الفهم الصحيح للاسلام كمنهج للحياة الايجابية المثمرة .

الثانى : العناية الفائقة بالعلوم والمعارف بنفس القدر من الاهتمام سواء العلوم الدينية أو غيرها من علوم الكون والطبيعة والرياضة وغيرها استجابة لدين كانت أول أوامره (اقرأ) .

والحديث عن (الآراء الكلامية والفرق) قد حفز أحد القراء فجاءنى متسائلا بتعجب : أليس من الأوفق الإعراض عنها والاهتمام بما هو أولى ؟

---

(١) ينظر رأيه فى مقدمة الطبعة الثانية .

وكان السؤال فى موضعه ، وأيقظ فى نفسى إنفعالات كانت هامدة لإبراء الذمة أمام الله تعالى ثم أمام المسلمين ، إعترف كما قلت بأن رأى القارئ فى موضعه وأقره عليه ، ولكن ماالحيلة ازاء مقررات جامعية فرضت علينا الإنشغال بمثل هذه القضايا ؟

إن إبراء الذمة إذن يقتضى أن أصرح بأننى عندما عرضت لعقائد الفرق فقد أضطررت إليه إضطرارا ، أضطرنى اليه دراسة وتدريس (علم الكلام) وفق مناهج الجامعة، وربما كان من ناحية أخرى فاتحة فعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم ، إذ عالجتها بمنهج نقدى من وجهة نظر علماء أهل السنة[٢] ، فإذا تقيدت بأسماء تلك الفرق فلمجرد الالتزام بالأمانة العلمية .

أما جوانب (الخير) او الفوائد العائدة من دراسة العقيدة بهذا المنهج فأولها الاطمئنان التام لسلامة موقف علماء السنة ، مع التوصية بالالتزام بهذا الموقف إزاء أية بوادر للانحراف أو الخروج عن عقيدة الأوائل .

وإذا لاحظ القارىء أن هذه الفرق قد انقضت بانقضاء المراحل التاريخية التى ظهرت فيها ، فإن ملاحظته صحيحة ، ولكن فاتة أن بعض عقائدها ظلت متوارثة فى عقول البعض ، ومن هنا تاتى **الفائدة الثانية** ، أى التحذير من الإنزلاق إلى بعض أو كل بدع الفرق المنحرفة عن الجادة .

ولابراء الذمة فإننا فى حاجة إلى زيادة إيضاح لهذة النقطة أى شدة التحذير من اعتناق بعض عقائد هذة الفرق دون ان ندرى ، فالحق أنها أصبحت علما على إنحرافات عن عقيدة السلف ، نكتفى بالإشارة إليها سريعا قبل الدخول إلى مضمون الكتاب :

(٢) ينظر كتابينا : منهج علماء الحديث والسنة فى أصول الدين .
السلفية بين العقيدة الإسلامية والفلسفة الغربية ط دار الدعوة بالاسكندرية .

فان **الخوارج** أصبحوا علما على (تكفير) المسلمين من مرتكبى الكبائر والحكم عليهم بالخلود فى النار .

ومذهب (**المرجئة**) يشير الى الإستهانة بأوامر الدين ونواهية حيث فصلوا بين القول والعمل ، وفى صفوفنا الكثير من هؤلاء الذين يهملون فى اداء الصلوات والصيام والزكاة بزعم أن (الرب رب قلوب) .

(**والمذهب الأشعرى**) – مع اقترابة فى كثير من المواضع من عقيدة السلف ، إلا أن مايتضمنة من (تأويل) لايجعله متطابقا تماما مع العقيدة السلفية ومنهج علمائها . ولعنا نقنع الأصحاب المتابعين للأشعرى أنه هو نفسه إنتهى سلفيا ، فالخير كل الخير فى الالتزام بالمنهج الأعلم والأحكم الذى كان عليه سلفنا الصالح .

وأفضل مايقال عند إثارة (الخلافة) أو (الإمامة) بين السنة **والشيعة** هو بحث (النظام السياسى الإسلامى) أو احد أركانها الرئيسية ، فهل يتم إختيار الخليفة أو الحاكم المسلم عن طريق البيعة والشورى كما حدث فى سقيفة بنى ساعدة حيث اختار الصحابة أبا بكر رضى الله عنه ، ام يتحقق تنفيذا لوصية رسول الله ﷺ إلى أمير المؤمنين رضى الله عنه ثم يتسلل فى إصلابه كما يزعم الشيعة ؟

كذلك اشتهر **المعتزلة** بأنهم أصحاب الرأى والاتجاه العقلى ، وفى مقابلهم أهل النص أو السمع . فهل هذا صحيح ؟ وهل جاء الرسل بمناهج لاتتفق مع أدلة العقول واقتصر دورهم على الإبلاغ فحسب بحيث أصبح المتقيدين بطريقتهم أهل النص والسمع ؟

وسيتضح لنا فى هذا الكتاب بالتحليل والمناقشة أن هذا الرأى بجانب الصواب ، فإن الرسول ﷺ (بين بالبراهين العقلية ما يتوقف السمع عليه ، والرسل بينوا للناس العقليات التى يحتاجون اليها ، كما ضرب الله تعالى فى القرآن من كل مثل[٣]) .

إن كل من يفكر بغير تحيز ويسعى بالنية الصادقة ليتأكد بعد الاطلاع والقراءة أن القرآن الحكيم حض على النظر والتفكير والإستدلال العقلى فى آيات كثيرة تجل عن الحصر فى هذا الحيز .

وإننا لنعجب بعد هذا الإيضاح أن يظن أحد أن علماء السنة حصروا أنفسهم داخل النصوص و لم يتعدوها إلى افاق العقول .

كذلك ، فإن ماحدث فى تاريخنا يجعلنا نخشى ونحذر من الانزلاق الى نفس البدعة ، أى اختراع مصطلحات وأسماء ثم وضع المسلمين فى قوالبها كما فعل المعتزلة قديما ويفعل بعض الكتاب فى عصرنا الحاضر بتقسيم المسلمين الى فئات : (الاعتدال) و(الجمود) و(التطرف) و(الرجعية) ... الخ ... بينما المنهج العلمى الصحيح وميزان الاعتدال الحق يقتضى التحاكم الى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ كأسماء (الإسلام) و(الإيمان) و(الإحسان) أو (الظالم لنفسه) و(المقتصد) و(السابق بالخيرات) .

بعبارة أخرى ، أن المعتزلة هو الذين فجروا هذه القضية - أى ابتداع مصطلحات وأسماء من عندهم ثم تقويم المسلمين وفق تصوراتها . ومع الأسف فان تأثيرهم المنهجى المعكوس مازال فعالا فى آراء بعض الكتاب والباحثين المعاصرين !!

---

(٣) منهاج السنة ج ٣ ص ١٠٧

وبعـــــد ،

فالشكر واجب لكل من أسدى لى عونا فى أعمال الطباعة والمراجعة والنشر ، فجزاهم الله جميعا عنى خير الجزاء .

وآخر دعونا أن الحمد لله رب العالمين ،،،

مصطفى بن محمد حلمى

الإسكندرية فى ٢١ من ذى القعدة ١٤٠٥هـ

٧ أغسطس ١٩٨٥م

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الثانية

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادى له . وأشهد أن لا اله الا الله وحده لاشريك له وأشهد أن محمدا عبده ورسوله

أما بعـــد :

فإنى أحمد الله تعالى على نعمه وآلائه التى تعز عن الإحصاء والوصف فإنه سبحانه القائل (**وان تعدوا نعمة الله لاتحصوها**) .

إن لسانى يلهج بالحمد على احدى نعمه على ، فقد وفقنى فى طبعة هذا الكتاب الأولى الى توضيح بعض القواعد الهامة للمنهج السلفى ، وكنت مشغولا بها لسنين طويلة ، حيث كابدت من مناهج البحث فى الكتب التى تعرض لعلم الكلام وأوصل الدين من وجهة نظر خصوم السلف ، دعك من خصوم الإسلام نفسه من الروادوالمستشرقين وتلامذتهم الذين عاثوا فى الأرض فسادا فاقتحموا حصون العقيدة الإسلامية يريدون دكها والقضاء عليها ،وتشكيك الأجيال التى وضعها الإستعمار بين أيديهم . ولكن هيهات !! ، فان للاسلام وكتابه وعقيدته وأمته ربا يحميه فقيض له العلماء الأفذاذ للدفاع عنه ، وكان من فضل الله تعالى على أيضا أن تتلمذت على بعضهم ، فما زلت أنهل من علومهم حتى اقتربت من فهم العقائد الصحيحة واستوعبتها ، فاطمأن القلب وسكن الفؤاد ، وأرشدنى الله تعالى بفضله وكرمه الى الطريق القويم ، فمازلت أسأله عز وجل أن يثبتنا والمسلمين على طريقه المستقيم حتى نلقاه .

ومن دواعى الحمد لله أيضا ان أذكر نفاد الطبعة الأولى فى وقت قصير ،وكنت أنوى اعادة طبعه انذاك ، إلا أن شواغل الحياة وأعبائها ومسئوليات العمل وكثرة السفر واعداد مؤلفات أخرى لازمة للتدريس ، كل ذلك حال بينى وبين رغبتى .

الى أن أذن اللة عز رجل وأمدنى بالإستطاعة على انجاز الطبعة الثانية ، حافظت فيها على هيكل البناء الأ ساسى للطبعة الأولى مع اضافة مقتطفات من كتب أخرى نشرتها عقب اصدار الطبعة الأولى بالمنهج نفسة ، وذلك بما يتناسب مع بحوث الطبع الجديدة .

ولهذا فقد أبقيت على قواعد المنهج السلفى وزودتها بمواد اضافية ، وأيضا احتفظت بموقف الشيخ السلفى ابن تيمية من الفرق ، مستبعدا النسق الإسلامى عن الألوهية والإنسان والعالم حيث نشر بموسوعة (معجم أعلام الفكر الإنسانى[٤] ، مكتفيا هنا بالنسق الإسلامى للإنسان عند شيخ الإسلام الذى استخلصه من الكتاب والسنة ، وأكملته بشرح طرق السلوك الفعلى كما ينبغى للإنسان المسلم .

كذلك أضفت لهذة الطبعة بحثا موجزا عن الإمام أحمد بن حنبل كمعبر عن منهج السلف بشقية العلمى والعملى ، وأتبعتة للتطابق بينهما ودورهما البارز فى التعريف بالعقيدة الصحيحة مدعمة بالأدلة لمواجهة المنحرفين عنها .

وكان محور البحوث يدور حول اجتهادات ابن تيمية وشروحه للعقيدة الإسلامية وتأصيله لمناهج شرعية للدفاع عنها لصد موجات الأفكار والفلسفات التى عاصرها ولم يعرفها علماء السلف قبله .

---

(٤) معجم أعلام الفكر الإنسانى – تصدير د. إبراهيم مدكور ، المجلد الأول – الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٨٤ – مادة ابن تيمية (ص ٧١ – ٨٤) بقلم د/ مصطفى حلمى

لذلك فقد عنيت ببيان موقف شيخ الإسلام ابن تيمية من أ هم الفرق الإسلامية .

والغرض منه شرح العقيدة الإسلامية وفقا لمنهج ابن تيمية فى العرض مع المقارنة لعقائد الفرق المخالفة ، فيتضح من هذا المنهج المقارن الفهم الصحيح للعقيدة ويوقظ الوعى تحذيرا من الوقوع فى نفس الانحرافات التى وقعت فيها الفرق المنشقة عن السلف ، وحيئذ نأخذ حذرنا فلا نقع فى براثنها مرة أخرى فقد نفض علماء السلف أيديهم من هذه الخلافات وحسموها .

وإنه لتحذير لنا أيضا ، معشر المسلمين المعاصرين ، حتى لانسمح باعادة الكرة من جديد اذ لو جرفنا تيار الجذب المرسوم لنا بمكر ودهاء ، لحققنا بلا قصد وبلا شعور رغبات أعداء الإسلام الساعين لبث الفرقة والخصومة بين المسلمين .أما البحث الخاص الذى كتبته بمناسبة اصدار ترجمة كتاب (لاووست : نظريات شيخ الإسلام فى السياسة والاجتماع) ، فقد استبعدته لاستنفاد غرضه وكانت عنايتى به انذاك كنموذج للنقد الموجه لابحاث المستشرقين بعامة وإنى الآن أرى ضرورة حث المسلم الغيور الى التشمير عن ساعد الجد فى طلب معرفة عقيدة الإسلام وشريعته وعباداته ونظمه من مصادرها ، فان تراثنا الإسلامى يضم كنوزا لاتقدر بثمن ، وللكف عن تعظيم كل مايرد الينا من الغرب ، فبعد تجارب أجيال - قرأت واستوعبت وناقشت ونضجت - نستطيع الإفلات من النفوذ الثقافى الغربى ، واصبحنا مهيئين بصورة أفضل لنقد النظريات الاستشراقية مهما كانت ، والدعوة الى نبذها ، للتفرغ الى الدعوة الى الله تعالى والتربية واقامة شرع الله تعالى فى محيط المسلمين بدلا من ضياع الطاقات فى محيط قانون الفعل ورد الفعل فى المجال الثقافى وحده الذى كان دأب البعض الى وقت قريب ، وكأن الغزو الغربى قد نجح فى استدراجنا الى مراده !! .

وهذه هى البداية الحقيقية لمقاومة السيطرة الحضارية الأوربية ، واقامة صرح حضارتنا الإسلامية من جديد (وتوجيه) طاقاتنا كلها الى هذا الغرض .

يقول مالك بن نبى - رحمه الله تعالى - (فالتوجيه هو تجنب هذاالإسراف فى الجهد وفى الوقت . فهناك ملايين السواعد العاملة والعقول المفكرة فى البلاد الإسلامية صالحة لأن تستخدم فى كل وقت ، والمهم هو أن نذير هذا الجهاز الهائل ، المكون من ملايين السواعد والعقول فى أحسن ظروفه الزمنية ، والإنتاجية ، المناسبة لكل عضو من أعضائه ، وهذا الجهاز حين يتحرك يجدد مجرى التاريخ نحو الهدف المنشود ، وفى هذا تكمن أساسا فكرة توجيه الإنسان الذى تحركه دفعة دينية ، وبلغة الاجتماع : الذى يكسب من فكرته الدينية معنى (الجماعة) ومعنى (الكفاح[٥])

ولا يسعنى إلا أن أتقدم بالشكر الجزيل لكل من ساعدونى فى إخراج هذا الكتاب وتوصيله إلى يد القارىء فكم بذلوا من جهود وكم كابدوا من متاعب وذللوا من صعاب .

اللهم اجْزِهِمْ عنى خير الجزاء ..

وأسأل الله سبحانه أن يجعل محتوياته علما نافعا للمسلمين ، وأن يغفر لى أخطائى وقصورى ، وأن يوفقنى إلى إخلاص النية ليصبح العمل خالصا لوجهه وابتغاء مرضاته ، فإن الفضل منه وإليه عز وجل .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين ،،،

الجيزة فى ٢٠ المحرم سنة ١٤٠٥هـ   مصطفى بن محمد حلمى
١٥ أكتوبر سنة ١٩٨٤م

---

(٥) مالك بن نبى : شروط النهضة ص ١١٧ - ١١٨ ترجمة عمر كامل مكاوى وعبد الصبور شاهين - دار الفكر ١٩٦٩م .

مقدمة الطبعة الأولى

مقـــــدمة :

إن الحمـــــد لله نحمـــــده ونستعينـــــه ونستغفـــــره ،
ونعوز بـالله مـن شرور أنفسنـا ومـن سيئـات أعمالنـا ،
من يهده الله فلا مضل لـه ، ومن يضلل فلا هـادى لـه ،
وأشهـــد أن لا إلــه إلا الله وحـــده لاشريك لـــه ،
وأشهـــــد أن محمـــــدا عبــــده ورسولـــــه ،

ياأيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ، ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون .
يا أيها الناس اتقوا ربكم ، الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها ، وبث منهما رجالا كثيرا ونساء ، واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام ، ان الله كان عليكم رقيبا . يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولا سديدا ، يصلح لكم أعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم ، ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزا عظيما[٦] .

أما بعـــد :

فهذا الكتاب ، هو مضمون ماقدمنا به لكتاب المستشرق الفرنسى : هنرى لاووست « نظريات شيخ الإسلام ابن تيمية فى السياسة والاجتماع » الذى قام بترجمته الأستاذ محمد عبد العظيم على .

... ولما كانت القضايا التى نوقشت فى ثنايا هذه المقدمة يجمع بينها وحدة الموضوع ، فقد رأينا – بمشيئة الله – طبعها فى هذا الكتاب الصغير ، ذلك

(٦) « خطبة الحاجة » التى كان رسول الله ﷺ يعلمها أصحابه الكرام ، نفتتح بها تقديمنا لهذا الكتاب إحياء لسنة من سنن النبي ﷺ كادت أن تنسى .

لأن الكتاب الصغير أكثر قراءة ، وأوسع انتشارا بين القاعدة العريضة للقراء وبذا يتحقق الغرض الذى ننشده وتحصل الفائدة التى نرجوها ، بينما لايقرأ الكتاب الموسع إلا أهل الاختصاص وأصحاب الثقافة الواسعة ، وهم فى مجتمعنا قليل ....

والقضايا والتى تعرض لها البحث ، مازالت تشكل عدة مسائل حيوية معاصرة ، كالتمييز بين السلف وغيرهم ، أو الرأى الصحيح بين الفرق التى تتلخص اجمالا فى اتجاهين : العقل أو النقل ، ولاينبغى أيضا اغفال التصوف كمنهج ادعى أصحابه أنهم أصحاب ذوق وأهل ارادة ، وأرباب حالات ومقامات ولانستطيع أن نتجاهل المذاهب الفلسفية المعاصرة التى تحاول استغلال خلافات المسلمين فى دائرة الاجتهادات الكلامية والفقهية لكى تتسلل الى وضع مفاهيم غريبة على الإسلام . وربما يتمثل أخطرها فى احدى محاولات الماركسية الأخيرة(٧) باعادة الروح الى كتاب (الإسلام وأصول الحكم(٨) من جديد أو اثارة الدعوة الى (العلمانية(٩) أو تقديم العقل على الشرع أو الفصل بين دوائر العقيدة والشريعة والأخلاق ... الى غير ذلك من مناهج تحاول التجزئة التى فرضها علينا الغرب الصليبى فى تعليمنا ، وتشريعنا ، وتفكيرنا

---

(٧) ينظر البحث التفصيلى لهذه الأساليب بكتاب الدكتور صلاح الدين المنجد (بلشفة الإسلام عند الماركسيين والاشتراكيين العرب) ط دار الكتاب الجديد ١٩٦٧ .

(٨) صدر هذا الكتاب سنة ١٩٢٥ ، وهو كتاب شاذ وغريب يخالف ما يعتقده المسلمون . إذ أنكر مؤلفه فرض الخلافة وفرض الجهاد وفرض القضاء ، وكل جوانب الإسلام السياسية والاجتماعية . ومؤلف الكتاب الأصلى أى كتاب « الإسلام وأصول الحكم » شخص غير مسلم ، ويرجح أن يكون هو أحد المستشرقين الإنجليز وليس هو الشيخ على عبد الرازق ، ويمكن مراجعة تفصيلات حقيقة هذا الكتاب وحملته المفعمة بالحقد الأسود على الإسلام ورجاله فى كتاب « الإسلام والخلافة فى العصر الحديث » للدكتور محمد ضياء الدين الريس ، من منشورات الدار السعودية سنة ١٩٧٢ .

وسلوكنا ، وسياستنا واقتصادنا ، ففصل بين الإسلام وحكم الدولة ، وأبعد الأسلام عن مجالات الحياة العامة ، وتركه داخل المسجد وفى قلوب الناس يمارسونه اعتقادا وقلما ينزلون به الى التطبيق[10]

وقد عالجنا هذه القضايا فى كتابنا هذا أربعة أقسام :

القســـم الأول :

إذا كان المستشرق الفرنسى لاووست يعتبر فلتة بين أترابه من المستشرقين فى حيادة واخلاصه العلمى فى دراساته الإسلامية ... فلتة من حيث اجتماع المستشرقين بعامة على تشويه وطمس حقائق الإسلام : فى عقائده وقيمه وحضارته ، ومن حيث تركزت أهداف الاستشراق على تنوعها ، فى خلق التخاذل الروحى وايجاد الشعور بالنقص فى نفوس المسلمين ، وحملهم من هذا الطريق على الرضا والاستسلام للمدنية المادية الغربية ، فانه – أى لاووست – لم يسلم من هذا المنهاج الملتاث ، فقد اضطرت وتخبط فى مدركاته لبعض معالم شخصية شيخ الإسلام ابن تيمية ، كما اضطرب فهمه أيضا فى معالجته لموضوع حقوق وأوضاع أهل الذمة فى الدولة الإسلامية ، واختل فكره كذلك فى تفسير أهداف حركة الفتح الإسلامى ......الأمر الذى جعلنى – فى هذا القسم من الكتاب – أتعرض لهذا التخبط فى الادراك والفهم والالتواء وفى تفسير والتعليل بالنقد والتحليل .

---

(٩) « العلمانية » : تعنى التقسيم أو الفصل بين السلطتين الدينية والسياسية ، وقد نشأ هذا « المصطلح » على أثر النزاع بين الدولة والكنيسة فى ظروف تاريخية خاصة بالمجتمع الأوروبى وأوضاعه وقيمه لم يعرفها التاريخ الإسلامى ، فالإسلام لا يعرف هذه الأقسام والحكومة جزء منه واتباع منهجه وشريعته فى السياسة والاجتماع فريضة من فرائضه .

(١٠) الدكتور محمد البهى : « العلمانية والإسلام » مطبوعات مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر » ص٥ .

القســم الثــانى :

وإذا كان المسلمون يتلمسون اليوم طريقا للنهوض ، فليس لهم من سبيل إلا الإسلام الصحيح مصدره القران والسنة ، وهذه خلاصة الاتجاه السلفى . عودة بالإسلام إلى معينه الصافى من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ .

لذلك جاء موضوعنا – بتوفيق الله – فى هذا القسم ، شرحا لبعض قواعد الاتجاه السلفى التى تساعد على إبرازه وتمييزه عن باقى الاتجاهات سواء فى الأزمنة الماضية أو عصرنا الحاضر .

القســم الثــالث :

وإذا فهمنا شيخ الإسلام ابن تيمية : على أنه الإمام المسلم الذى قصد بتفكيره إعادة بناء المجتمع الإسلامى[11] على أسس إسلامية لا زيف فيها ، وبدون إضافة غريبة عن الإسلام . وإذا أردنا للمسلم أن يكون مسلما ، لا صاحب بدعة أو مذهب خاص فى الإسلام ، فلابد من تجلية موقفه – رضى الله تعالى عنه – من أهم الفرق الإسلامية كالمعتزلة والأشاعرة والشيعة والمتصوفة . لذلك وضعنا هذا الهدف – لهذا القسم – ليتمكن القارئ من الوقوف على الحقائق ، فيسهل عليه بعد ذلك معرفة – أخطاء لاووست وغيره من المستشرقين أو المتغربين ممن يتعرضون لمعالجة الموضوعات نفسها .

ونحن نرى أنه ينبغى وضع حد لقبول آراء الغربيين فى ميادين نحن أولى بها ، فهى جزء من كياننا العقدى والتاريخى والحضارى ، وإذا لم نقطع أو نصد التيار الزاحف فى مجال الثقافة الإسلامية ، فعلى الأقل ينبغى التعريف

---

(١١) الدكتور محمد البهى : « الفكر الإسلامى فى تطوره » – دار الفكر – الطبعة الأولى سنة ١٩٧١ ، ص٧٤ .

بالحقائق تجنبا للخلط الذى نقع فيه انسياقا وراء أصحاب الأهواء من مدارس الاستشراق والمفتونين بهم .

القســم الــرابـع :

وجاء هذا القسم ، محاولة سريعة لوضع النسق الإسلامى فى مسائل الألوهية والعالم والإنسان ، لدى شيخ الإسلام : إبن تيمية ، استقرأناها من إجتهادات إمامنا ، فاتضح منها التناسق والوحدة فى اجتهادات الشيخ ، بخلاف ظن لاووست أو غيره من المستشرقين .... ذلك أن شيخ الإسلام – رضى الله تعالى عنه – قد حرص على تحقيق معنى « انسانية الإنسان » والتفريق بين الخالق والمخلوق أو بين العابد والمعبود ، ففصل فى تعاليم الإسلام التى تدور حول هذه المبادئ بين العناصر الثقافية والدينية التى اختلطت بالتعاليم الإسلامية حتى أصبحت لاتمثل القرآن الكريم والسنة النبوية الصحيحة ، على نحو ما كان يمثل فيهم الرعيل الأول للاسلام لهذين المصدرين ، حيث أدراك ببصيرته المشرقة أن سبب ذلة وضعف مسلمى يومه : هو البعد عن أسلوب الأوائل فى فهم الإسلام والعمل به وله ، والبعد عنه بوقوفهم عند حد تلك المذاهب والاتجاهات ، والتزامهم آراءها ، دون أن يمحصوها فى ضوء القران وفهم الأسلاف الكرام له ... وهى نفس العلة التى أصيب بها مسلمو اليوم . حزبية فكرية ، وخصومة طائفية ومذهبية ، وتقليد وتبعية للغرب الصليبى أو الشرق الماركسى فأصبح بأسهم بينهم شديدا ، وذلك أنهم نسوا الله ونسوا منهجه ، فأنساهم الله أنفسهم ، فكان هذا الفشل الذريع فى كل مجالات الحياة .

وإنى إذ أقدم هذه العجالة إلى الفئة المؤمنة ، وإلى الذين يبحثون عن الطريق مخلصين جادين ، يريدون لأنفسهم ولأمتهم العزة ، حيث لا عزة إلا بالإسلام .

راجيا المولى العلى الكريم ، أن يلهمنا التسديد والتوفيق ، وأن يكتبنا مع الراضين المرضيين .وما توفيقى إلا بالله ، عليه توكلت وإليه أنيب ، .

مصطفى حلمى

١٢٩٦هـ

تمهيـــــد:

سنكتفى هنا بكلمة موجزة عن سبب انجذابنا نحو شيخ الإسلام إبن تيمية ، وقد لايعنينا شخصه – والبشر كلهم إلى فناء – ولكن يجذبنا نحوه الاشعاع الفكرى لعقل متعدد المواهب ، أوتى من الامكانيات وغذى بالجهد الدائب ، فتمكن من الرؤية الإسلامية الواضحة التى تنير الطريق لكل مسلم يعيش فى وقت ضعف المسلمين وتكالب الأعداء عليهم – كما نحن الآن – فأرشدنا إلى الموقف الصحيح وسط أضابير الاختلافات المذهبية : منها العقيدة وفقا لمنهج السلف ، وبيان أساس التوحيد الإسلامى ، ومسائل الفقه على إختلاف فروعها .

وأيضا فإننا نرى أن ابن تيمية لم يأخذ حظه من العناية والبحث بعد ، مع حاجتنا الماسة للاسترشاد بإجتهاداته وآرائه ، إذ لا ترتبط أفكاره بعصره الذى عاصره بقدر ماتتصل بالظروف المشابهه التى تتكرر على وتيرة واحدة ، ونعنى بذلك غربة الإسلام .

وترجع جدة أفكار إبن تيمية إلى ظهوره فى عصر متأخر كانت الانشقاقات قد حدثت ، وجهلت الغالبية الاتجاه السلفى وسط تراكات الفكر الفلسفى ، والتأويل الكلامى ، والشطح الصوفى ، حتى ظن غالبية المسلمين أنها هى الإسلام ، كما أثيرت أيضا مشاكل لايزال العالم الإسلامى يعانى منها حتى اليوم ، وإن اختلفت المظاهر . وما جهود الشيخ مع تعددها وتنوعها إلا تعبير عن منهج . ولذا فإن موقف شيخ الإسلام منهجى قبل أى شيء آخر ، فقد كان أمينا فى الدعوة إلى طريقة السلف علما وعملا ، وسيأتى ذلك تفصيلا فيما بعد ، إلا أننا نوجزها فيما يلى :

(أ) إتفاق الأدلة الشرعية مع الأدلة العقلية ، فالحق ما ورد بكتاب الله تعالى وسنة رسولة ﷺ وقد بين خطأ أصحاب النظر العقلى من فلاسفة ومتكلمين عندما قدموا النظر العقلى على الدليل الشرعى ، وكل من خالف صحيح المنقول ، فقد خالف أيضا صريح المعقول ، وكان بمنزلة من قال الله تعالى فيه : ﴿ **وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا فى أصحاب السعير** ﴾ . وقد بين الرسول صلوات الله عليه أصول الدين وفروعه بيانا كافيا شافيا ، وظهرت البدع خروجا عما جاء به ، إذ إتخذت كل فرقة أصولا للدين فصدق عليهم وصف الإمام أحمد بن حنبل بقوله (مختلفون فى الكتاب ، مخالفون للكتاب ، مجمعون على مفارقة الكتاب ، يقولون على الله ، وفى كتاب الله بغير علم[١٢] .

(ب) إن فى القرآن والحكمة النبوية عامة أصول الدين ، ومن المسائل والدلائل مايستحق أن يكون أصول الدين (كمسائل التوحيد والصفات والقدر والنبوة والمعاد ، أو دلائل هذه المسائل) ، وآيات الله تعالى السمعية والعقلية والعيانية كلها متوافقة .

كما وجه الأنظار إلى القاعدة الصحيحة المنهجية فى فهم الإسلام وتلقيه ، مؤكدا معنى الحديث الذى يصف السابقين بأنهم الأفضل ، لأنهم كانوا أعرف الناس بالفرق بين الحق والباطل ، وأعظم محبة للحق الذى أرسل إلى محمد ﷺ ، وأصبر على متابعة الحق واحتمال الأذى ، وأكثر اتحادا وألفة لبعضهم البعض ممن جاء بعدهم ، ثم حدث ما أقتضته نشأة البشر من التفرق والاختلاف فى القرون التالية . وسيأتى الحديث عن تفاصيل كل ذلك ، ولكننا هنا وقبل الانتقال إلى دراستنا عن مضمون الكتاب ، نرى تعريف القارئ بجوهر اجتهادات إمامنا ، فمهما تشعبت أبحاثه وأجهدت الدارس وراءها

---

(١٢) ابن تيمية – النبوات ص ١٢٨ .

لاستخلاص المحور الأساسى لها ، فإن من معالم مواقفه هو الوحدة المنهجية ، والتناسق بين تفسيراته الميتافيزيقية ، والطبيعية والأخلاقية والسياسية والمنطقية .

– فإن الله تعالى خالق كل شىء وربه ومليكه ، وهو المحبوب وحده والغنى بالذات عن مخلوقاته الفقيرة فقرا إلى خالقها عز وجل .

– وكل ما عدا الله سبحانه وتعالى باطل ، وحركة العالم كله هى حركة خضوع وسجود لخالقها .

– وفى مجال الأخلاق فإن تعريفه للإنسان هو ، أنه حى حساس متحرك بالإرادة ، أى أنه علم وعمل ، أو عقيدة وعبادة ، أو معرفة وسلوك ، وللنفس قوة الإرادة مع الشعور ، وهما متلازمان ، والنفس تتقوم بمرادها ، وهو الاله المعبود لابمجرد ما تشعر به .ولكى يسعد الإنسان لابد أن يسأله ربه وحده فإن أطيب ما فى الدنيا معرفته عز وجل ، وأطيب ما فى الاخرة مشاهدته فى الجنة .

– وفى السياسة والاجتماع ينبغى أن يكون غرض الراعى والرعية إصلاح أمور الدين ، وإلا فسدت هذه وتلك .

– ويضع قاعدة فى استدلالاته المنطقية تستند على الاقتصار على ما يسميه بالطريقة الفطرية العقلية السمعية الشرعية الإيمانية فهى تغنى عن الطريقة القياسية الكلامية .

ويتوج هذا كله بقوله تعالى : ﴿ **فاتقوا الله ما استطعتم** ﴾ (اية : ١٦ ، سورة التغابن) .



المبحث الأول

العقيدة الإسلامية فى عصر النبى ﷺ والصحابة :

سنبحث هنا العقيدة الإسلامية فى عصر النبى ﷺ وصحابته وذلك لاقتناعنا بأن نقطة البداية لصحوة إسلامية حقيقية ينبغى أن تبدأ بالتأسى برسول الله وخلفائه الراشدين من بعده .

فما من شك أن جيل العصر الأول هو (الجيل المثالى) كما سماه الأستاذ محب الدين الخطيب مقررا أن الله تعالى بعث صاحب هذه الرسالة الكريمة ﷺ لتكون لنا به أسوة حسنة ، وطريقة لا يحوجنا إلى أى طريق آخر لا طريق موسكو ولا طريق واشنطون ولا طريق باريس . كذلك فإن نصوص الإسلام التى تكفل بها الله تعالى بحفظها كفيلة بأن تجعلنا من أصحاب رسول الله صلوات الله عليه (إذا حرصنا على فهمها فهما سليما كما لو كنا معاصرين له ، وملازمين لمجاله ، وسائرين فى ركابه[1]) .

وقد قام الصحابة رضى الله عنهم بتنفيذ وصايا الرسول ﷺ فى العقيدة والشريعة بأفضل الطرق وأقومها . كذلك إمتدت رقعة بلاد المسلمين فى عصورهم إلى أطراف المعمورة لتبليغ رسالة الإسلام إلى العالم ، فأرسل أبو أبو بكر رضى الله عنه الجيوش لحمل هذه الرسالة إلى فارس وبلاد الدولة البيزنطية فى الشام . وفى عهد عمر رضى الله عنه تكاملت أدوات الدولة فى التنظيم وإنشاء الوظائف وغيرها من الشئون الإدارية كوظائف العمال أو المالية

---

(١) السيد محب الدين الخطيب « مع الرعيل الأول » ص ١١ و١٢ .

كقواعد توزيع الخراج . وكان عمر رضى الله عنه رجل واجب وعدل ، وقانون ، وسعد المسلمون فى حكمه بالعدل المطلق والأمان الشامل .

وفى عهده فتحت الشام ، وإيران ثم إمتد الفتح إلى أذربيجان وبلاد ما وراء النهر . كذلك إمتد العالم الإسلامى نحو الغرب ففتحت مصر ، وفى عهد عثمان رضى الله عنه فتحت أفريقيا[٢] .

ومضت الفتوحات كما دونت لنا كتب التاريخ لتكتب أروع صفحاته لأن هؤلاء الفاتحين تحركوا بالعقيدة فى نفوسهم وقلوبهم ، وعرفوا رسالتهم وفهموا حق الفهم دورهم .

وكان المسلمون يعبرون بعقائدهم السمحة وأخلاقهم الحسنة عن الإسلام أحسن تعبير ، ولم يستهدفوا الغزو لذاته أو فرض الإسلام بالقوة كما يشيع المستشرقون وأتباعهم . ويقدم الدكتور حسين مؤنس خير شاهد على ذلك من واقع دراساته وأبحاثه الشاملة العميقة فى تاريخ المسلمين ويرى أنه سواء (فى مصر أو الشام أو المغرب أو إيران فتح العرب البلاد ودعوا الناس لدخول الإسلام وبينوا لهم فضائله ، ثم تركوهم بعد ذلك يتمثلونه على مهل ... ومنها نرى كيف أن الإسلام لم يدخل بلدا ثم تلاشى منه ، إلا فى حالة الأندلس وصقلية وكانت لذلك ظروف وأسباب خاصة[٣] .

ونستخلص أيضا أن القرون الأولى للمسلمين كانت خير القرون فى الدين والدنيا معا ، فقد حققوا الإسلام فى قلوبهم فدانت لهم الدنيا ، وأقاموا أفضل حضارة لأنها قائمة على الحق والعدل ، ومستوية على (الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر) .

---

(٢) الدكتور حسين مؤنس : « عالم الإسلام » ٢٠ ، ٤٤ ، ٥٠ - دار المعارف بمصر سنة ١٩٧٣ .

(٣) أرجعه إلى أن النظام النصرانى الذى جعل محل النظام الإسلامى لجأ إلى أشد أنواع الاضطهاد والإبادة ، وفرض رجاله سياسة استئصال الإسلام بالقوة !! المصدر السابق ص٣٢ ، وتعليقه بصفحتى ٣٢ ، ٣٣ .

فإذا نادينا بالاقتداء بهم ، فإن هدفنا الارتفاع بالمستوى العالى الذى حققوه كرواد فهموا الإسلام كدين وحضارة .

ومن زاوية بحثنا ، سنرى أنهم بلغوا الذروة فى فهم العقيدة الإسلامية إستيعابا وتنفيذا ، والاقتداء بهم يتطلب (الارتفاع) إلى مستواهم لا (الرجوع) إلى الزمن الذى عاصروه بوسائله وأدواته ، فالاتباع إذن فى (القيم) التى حققوها وعاشوا من أجلها ، لا فى (وسائل) المعيشة التى إستخدموها .

منهـــج البحـــــث :

ظلت أغلب الدراسات المعاصرة فى الإسلاميات التى تحوم حول العقيدة تعتمد على كتب المتكلمين من المعتزلة والأشاعرة فى الغالب ، فلا تكاد تعثر على دراسة عن المسلمين الأوائل ومناهجهم الشرعية العقلية فى الاستدلال على أصول الدين .

ونلحظ أن أغلب البحوث المعاصرة تعتمد على آراء المستشرقين الذين يهتمون عادة بالفرق المنشقة عن أهل السنة والجماعة ، والاهتمام بإيجاد الصلات بين معتقدات الفرق والمصادر الخارجية من عقائد وديانات وفلسفات يونانية وفارسية ونحوها .

وكثيرا ما تتضخم أبحاثهم بالمسائل الخلافية والعناية بالفرق الغالية ، وتصور التاريخ الإسلامى من خلال الخلافات والانشقاقات ، فتختفى الحقيقة تحت أكوام من الجدل والخلاف بحيث يصعب على القارئ التمييز بين الحق والباطل .

ومثل هذا المنهج – فضلا عن النتائج المغرضة التى يراد الوصول إليها ، فإنه يتجاهل حقيقة بارزة لا يمكن إخفاؤها ، ألا وهى أن آراء الفرق المنشقة قد حوصرت منذ ظهورها بواسطة علماء الحديث والسنة ، ورفضتها الغالبية من

أهل السنة والجماعة التى ظلت مستمسكة بالعقيدة الصحيحة المتلقاه بالقبول والفهم منذ عصر النبى ﷺ وصحابته .

لهذا رأينا - مستعينين بالله سبحانه وتعالى - اجلاء المنهج المتبع بواسطة علماء الإسلام من الفقهاء والمحدثين ، وكانت أولى خطواتنا البدء بعصر الصحابة لاستقراء الاتجاهات الدالة على ألوان من النظر العقلى قبل أن يظهر أهل الكلام وقبل أن ينشق الصف الإسلامى إلى فرق ومذاهب لنحاول أن نقف على تفسيرات أصحاب الصدر الأول للايات القرانية والأحاديث النبوية المتصلة بما سماه المتكلمون ب (أصول الدين) والتى لم توضع فى الصيغ الكلامية أو الأنساق الفلسفية خلال العصور المبكرة التى تتحدث عنها ، ولكن الذى حدث هو أنه كلما تفتقت مسألة ، أو حدث إنشقاق طارئ مستحدث ، قام لها من يتصدى بالتفسير والتوضيح ، أو النهى والزجر إذا كان من قبيل البدع المنهى عنها .

ثم ظهر على العصور المتكلمون ومذاهبهم المختلفة فصاغوا كل هذا الكلام وشرحوه فى أبواب وفصول نقلته إلينا مصادرهم ، وجاء الباحثون لمحاولة إستقصاء هذه المسائل فى صيغها التقليدية بعينها ، فلم يعثروا لها على أثر ، فظنوا أن الصحابة لم يعرفوها ، ولم يتطرقوا إليها ، بينما الحق أنهم عرفوها وفهموا دقائقها ، كما ينبغى أن تفهم وتعرف .

ولاشك أن الأدلة تدعم أتجاهنا فى إتخاذ عصر الصحابة نقطة البدء فى البحث ، لأن دراسة التاريخ الإسلامى ترشدنا إلى معرفة أسبقية الأوائل فى العلم والعمل ، فى العقيدة والسلوك . وسنتخذ هذا المنهج فى البحث لمحاولة شجب النتائج التى توصل إليها أمثال جولد تسهير وغيره من المستشرقين الذين يطبقون على الإسلام - فى العقائد والعبادات - اثار فكرة التطور ، فيتصورن أنه بدأ بسيطا ثم تطور على يد المسلمين !! فكانت أكبر زلاتهم !! .ولما كانوا

غير مسلمين معنا بالدليل القطعى الثابت فى قوله تعالى ﴿ **اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا** ﴾ . فإن إستقراء الأحداث بأناة وصبر وجهد – مع توافر الصدق وحسن الطوية – ليثبت أن (الإسلام فى حياة الرسول صلى الله عليه وسلم – إكتمل فى عقائده وعباداته وأخلاقه وأحكامه ونصوصه وقواعده وأن الرسول صلوات الله عليه انتقل إلى الرفيق الأعلى وترك الإسلام على هذا النحو وأن المسلمين من القرن الأول إلى يوم الناس هذا ، يعتبرون أى تزيد على هذا الدين بدعة تحارب ، ويرفضون من أى مخلوق ، ومن أى جماعة ، أن يضعوا فى هذا الدين جديدا[٤] ...

وسنحاول على قدر الاستطاعة ، وبقدر ما تسمح به هذه الدراسة ، الالتفات إلى عصر الصحابة والتابعين تنقيبا عن فهمهم للعقيدة وتحقيقا لرسالتهم .

أصول الدين فى عصر النبى ﷺ والصحابة :

تتعدد المواقف التى توضح إتجاه الصحابة فى الايات القرانية والنظر إليها . فإذا بدأنا فى دراسة تلك المواقف بمنهج إستقرائى ، إستطعنا الوقوف على إستنباطهم للنصوص الشرعية من الكتاب والسنة ، فيتضح لنا كيف بدأ التنازع ، وأسباب حدوث الانشقاقات عن القواعد الإسلامية بعدهم . وكيف جوبهت الفرق المنشقة عن صف الجماعة ، كالخوارج ، والشيعة والمرجئة والقدرية وغيرهم ؟ . وظل علماء السلف من أهل الحديث والسنة يحملون على أعناقهم هذه المهمة فيفندون مزاعم المنشقين . موضحين أسباب إنحرافاتهم ، مبينين القواعد الإسلامية الصحيحة المتلقاة عن الأوائل

---

(٤) محمد الغزالى ص ٧٨ « دفاع عن العقيدة والشريعة ضد مطاعن المستشرقين » .

وتجتمع عناصر بحثنا فى ما رأينا من قواعد عامة تجمع مواقف الصحابة منها أنهم تكلموا فى أصول الدين جميعا ، كما أنهم يتفقون فى المنهج فيفسورن القران بالقران مستندين إلى طرق الاستدلالات العقلية التى أشار إليها وحض على إستخدامها .

إخبار الرسول ﷺ لصحابته بما كان وما هو كائن :

ما أسهل الاستدلال بالاحاديث النبوية والأحداث التاريخية على أن الرسول ﷺ شرح لهم الأصول الإسلامية كلها ، أو ما يسميه المتكلمون ب (أصول الدين) :

عن أبى زيد عمرو بن أخطب الأنصارى رضى الله عنه قال : (صلى بنا رسول الله ﷺ الفجر وصعد المنبر فخطبنا حتى حضرت الظهر فنزل فصلى ، ثم صعد المنبر فخطب حتى حضرت العصر ثم نزل فصلى ، ثم صعد المنبر حتى غربت الشمس ، فأخبرنا ما كان وما هو كائن ، فأعلمنا أحفظنا) رواه مسلم .ولنتصور ذلك الجمع الحاشد من الصحابة وهو يستمعون باهتمام شديد لكل كلمة عما كان وما هو كائن ، فإن الرسول ﷺ لايردد عليهم معلومات مألوفة أو معارف عادية ولكنه يبلغهم ما اوحى الله تعالى به من مشاهد عالم الغيب الذى تعجز العقول مهما بلغت من الذكاء والفطنة عن التوصل إليها .إن كل أسباب التعليم مهيأة من حيث الرسول المبلغ ، والنفوس المتعطشة لتلقى عنه الرسالة الخاتمة ، فهى الفرصة الأخيرة السانحة لهم وللناس أجمعين ، إنها فرصة التلقى من مشكاة النبوة .

عن أنس رضى الله عنه قال : أبو بكر لعمر رضى الله عنهما بعد وفاة رسول الله ﷺ إنطلق بنا إلى أم أيمن رضى الله عنها نزورها كما كان رسول الله ﷺ يزورها ، فلما إنتهينا إليها بكت ، فقال لها ما يبكيك ، أما تعلمين

أن ما عند الله خير لرسول الله ﷺ فقالت إنى لأبكى ، إنى لا أعلم إن ما عند الله تعالى خير لرسول الله ﷺ ، ولكنى أبكى أن الوحى قد إنقطع من السماء ، فهيجتهما على البكاء ، فجعلا يبكيان معها) رواه مسلم .

كان الوحى المعصوم إذن هو المصدر الذى تلقى منه الصحابة بواسطة النبى ﷺ هذه الأصول الدينية كذلك أرشدهم إلى منهج المحافظة عليها ونهاهم عن مخالفتها ، وما نشأت الفرق ، وما إنشق الصف الإسلامى الأول ، إلا بمخالفة نواهى رسول الله ﷺ .

وهذه النواهى أجملها إبن الوزير اليمانى فى النصوص التالية :

١ - النواهى عن البدع .

٢ - النواهى عن المراء مطلقا ، بخلاف المجادلة بالتى هى أحسن .

٣ - النواهى عن المراء فى القرآن

٤ - النواهى عن المراء فى القدر خاصة .

٥ - النواهى عن التفكر فى ذات الله تعالى[٥] .

وسيتضح لنا فى الصفحات القادمة إن الخلاف والفرق - بل وهزائم المسلمين أمام أعدائهم - كانت بسبب بعض أو كل عصيانهم لهذه النواهى النبوية .

وسنقتصر الآن - ما دمنا نعرض لمعالم عصر النبوة - على بحث أهم مسائل أصول الدين ، تلك المتصلة بأشراف العلوم وأعلاها ، أى العلم بالله تعالى ، وكيف أرشد الرسول ﷺ صحابته خاصة والمسلمين عامة إلى أحكم الطرق وأفضلها لسد منافذ الشيطان ووسوسته :

(٥) ابن الوزير اليمانى « ترجيح أساليب القرآن على أساليب اليونان » ص ٤٦ ط دار الكتب العلمية - بيروت ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م .

توضيحه – عليه الصلاة والسلام – للمنهج الأمثل فى العلم الالهى :

روى مسلم فى صحيحه فى باب الايمان عن أبى هريرة رضى الله عنه أن الرسول ﷺ قال « **لايزال الناس يسألونك عن العلم حتى يقولوا هذا الله خلقنا فمن خلق الله ؟** » قال أبو هريرة جاءنى ناس من الأعراب فقالوا يا أبا هريرة هذا الله خلقنا . فمن خلق الله ؟ فأخذ حصى فرماهم به ثم قال : قوموا صدق خليلى ﷺ وهناك عدة روايات لمسلم بهذا المعنى ، جاء فى إحداها قول الرسول صلوات الله عليه (فمن وجد من ذلك شيئا فليقل آمنت بالله) وقوله (فمن بلغ ذلك فليستعذ بالله) ، فأرجع الرسول ﷺ هذا السؤال إلى وسوسة الشيطان . ولم يأمر باستعادة البراهين على إثبات الله عز وجل .

وكان بعض المتكلمين ومنهم الرازى (٦٠٦هـ) – عندما سئل ! لم لم يأمر النبى ﷺ عند هذا الوسواس بالبرهان المبين لفساد التسلسل والدور ، بل أمر الاستعاذة ؟ .

فأجاب بأن مثل هذا من عرض له كلب ينبح عليه ليؤذيه ويقطع طريقه فتارة يضربه بعصا ، وتارة يطلب من صاحب الكلب أن يزجره فبين الرازى أن البرهان[٦] هو الطريق الأول وفيه صعوبة والاستعاذة بالله هو الثانى وهو أسهل .

---

(٦) إن البراهين الدالة على إثبات الله تعالى وصفاته وأسمائه الحسنى أكثر من أن تحصى فهى – كما يذكر المقدسى – غير محصاة ولا متناهية فى أوهام الخلائق لأنها بعدد أجزاء أعيان الموجودات من الحيوان والنبات وغير ذلك « مما خفى عن الأبصار لأنه ما من شىء وإن صغر جسمه ولطف شخصه إلا وفيه عدة دلائل تعبر عن ربوبيته وتصرح عن ألوهيته تصريحا ينفى مع أدناها الشبهة ويزاح العلة » .

ولكنه يحاول إبراز أهم هذه البراهين ويوجزها فيما يلى :

أولا : فزع القلوب إليه سبحانه وتعالى عند نزول الحوادث ووقوع المصائب ، إذ لا يوجد مضطر وقد عضته نائبة ولدغته ناكبة يفزع إلى حجر أو شجر أو مدد أو شىء من الخلائق .

ثانياً : أنه لا يخلو لسان أمة من الأمم فى أقطار الأرض وآفاقها إلا وهم يسمونه بخواص من أسمائه عندهم ، ومستحيل وجود اسم لا مسمى له كاستحالة وجود دليل على غير مدلول عليه بل المدلول موجب لدليل .

ثالثاً : ومن الدليل على إثبات البارىء سبحانه هذا العالم بما فيه من عجيب النظم وبديع الترتيب ومحكم الصنع ولطيف التدبير والاتساق والاتقان .

رابعا : إن كتب الله المنزلة مملوءة بدلائل الإثبات والتوحيد تأكيدا للحجة لأنه موضوع نفس الفطرة وخاصة القرآن ، وقال الله لرسوله - ﷺ - حيث سئل عن الدلالة عليه ﴿ إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون ﴾ [البقرة١٦٤]

ويمضى المقدسى فيستدل بأدلة أخرى مستقاة من كتب السابقين ، وهى فى شكل سؤال وجواب بين ملك وحكيم :

سأل الملك الحكيم : ما أدل الأمور على الله ؟

الدلائل كثيرة وأولها مسألتك عنه لأن السؤال لا يقع على لا شىء .

قال الملك : ثم ماذا ؟

قال : شك الشاكين فيه ، فإنما يشك فيما هو ، لا فيما لا هو .

قال الملك : ثم ماذا ؟

وله الفطن إليه (أي التفكير فيه سبحانه) الذى لا يستطيع الامتناع منه .

قال الملك : زدنى .

قال : حدوث الأشياء وتنقلها على غيرمشيئتها .

قال : زدنى .

قال : الحياة والموت اللذان يسميهما الفلاسفة النشوء والبلى ، فلست واجدا أحدا أحيا نفسه ، ولا حيا إلا كارها للموت ولكن ينل منه - يعنى لا ينجو .

قال : زدنى .

قال : الثواب والعقاب على الحسنة والسيئة الجاريان على ألسنة الناس .

المقدسى « كتاب البدء والتاريخ » ج١ ص٥٧ / ٧١ - مكتبة المثنى ببغداد ومؤسسة الخانجى بمصر .

ولكن إعترض البعض على هذه الاجابة لأنها تفضل طريقة البرهان على طريقة الاستعاذة وهى الأكمل والأقوى ، فإن دفع الله تعالى للوسواس عن القلب أكمل من دفع الإنسان ذلك عن نفسه[7] .

ويرى إبن تيمية أن كلا الاجابتين خطأ مبينا ذلك من وجوه:[8]:

الأول : أن الإنسان حادث كائن بعد أن لم يكن والعلم الحاصل فى قلبه علم إبتداء ، فلا بد من علوم بديهية أولية يبتدؤها الله فى قلبه ، وغاية البرهان أن ينتهى إليها .

وهذا حال الإنسان السليم الحس والعقل الذى يستخدم معه طرق البرهان والنظر والاستدلال ، أما أصابه مرض فى الحس أو العقل فعجز عن فهم العلوم البديهية الأولية ، فإنه يعالج بالأدوية الطبيعية أو بالدعاء ونحو ذلك .

ويقرر ابن تيمية أن الوسوسة والشبهة القادحة فى العلوم الضرورية لاتزال بالبرهان بل متى فكر العبد ونظر إزداد دورها على قلبه ، وقد يغلبه الوسواس حتى يعجز عن دفعه عن نفسه . وهذا يزول بالاستعاذة بالله ، فإن الله هو الذى يعيذ العبد ويجيره من الشبهات المضلة والشهوات المغوية ، ولهذا أمر العبد أن يستهدى ربه فى كل صلاة فيقول ﴿ **اهدنا الصراط المستقيم ، صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين** ﴾ (الفاتحة ٧ ، ٦)

بعد هذه البراهين الساطعة ، يأتى الشيطان يعبث بالإنسان ويوسوس له بالتشكيك ؟

فما موقف الإنسان فى هذه الحالة ؟

هل يعود فى كل مرة إلى استعراض الأدلة والبراهين العقلية والفطرية ، وتذكر آيات الله فى مخلوقاته وفى نفسهه ؟ أم يسلك طريقا آخر لدفع الشيطان عنه وطرده ؟

لا شك أن الطريق الأمثل هو ما أمر به وأرشد إليه الرسول ﷺ كما اتضح فى السياق أعلاه .

(٧) ابن تيمية « درء تعارض العقل والنقل » ج٣ ص٣٠٨ – تحقيق الدكتور محمد رشال سالم – طبع على نفقة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ١٤٠١هـ – ١٩٨١م .

(٨) ينظر المصدر السابق الذى عرض فيه لهذا الموضوع ص ١١٧ – ١١٨ والصفحات من ٢٠٦ إلى ٣١٨ .

وفى الحديث الالهى الصحيح عن النبى ﷺ فيما يروى عن ربه تبارك وتعالى : (**ياعبادى كلكم ضال إلا من هديته فاستهدونى أهدكم**) . وقال تعالى : ﴿ **وإذا قرأت القران فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم** ﴾

(النحل ٩٧)

وقال تعالى : ﴿ وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه سميع عليم ﴾ (الاعراف ٢٠٠)

وكان يمين النبى ﷺ : لا ومقلب القلوب ، وكان كثيرا ما يقول **والذى نفس محمد بيده** .

ثم يغوص إبن تيمية بعد هذه الشواهد فى النفس البشرية حيث تمر بها الخواطر – التى هو من جنس الاعتقادات ومن جنس الارادات ، وفيها المحمود والمذموم ، والله هو القادر على صرفها عن الإنسان ، فالاستعاذة به سبحانه وتعالى طريق مؤدية إلى المقصود الذى لا يحصل بالنظر والاستدلال(٩) .

الثـانى : أن النبى ﷺ لم نقتصر على الأمر بالاستعاذة وحدها بل أمر العبد الانتهاء عن ذلك مع الاستعاذة ، إعلانا منه بأن هذا السؤال هو نهاية الوسواس فيجب الانتهاء عنه ، ليس هو من البدايات التى يزيلها ما بعده ، فإن النفس تطلب سبب كل حادث وأول كل شىء حتى تنتهى إلى الغاية والمنتهى ، وقد قال الله تعالى ﴿ **وأن إلى ربك المنتهى** ﴾ (النجم ٢٤).

ويستطرد شيخ الإسلام بعد ذلك فى شرح معنى العلم الضرورى الفطرى لكل من سلمت فطرته إذ أن المخلوقات كلها لا بد لها من خالق ، أما وجود المخلوقات كلها بدون خالق فإنه معلوم الامتناع بالضرورة(١٠) .

---

(٩) نفسه ص ٣١٣ .

(١٠) نفسه ص ٣١٤ .

الثالث : أن النبى ﷺ أمر العبد أن يقول : امنت بالله . وفى رواية : ورسوله فهذا من باب دفع الضد الضار بالضد النافع ، فإن قوله امنت بالله ، يدفع عن قلبه الوسواس الفاسد .

ولهذا كان الشيطان يخنس عند ذكر الله ويوسوس عند الغفلة عن ذكر الله، ولهذا سمى الوسواس الخناس ، فإنه جاثم على فؤاد ابن ادم ، فإن ذكر الله خنس .

وينبه ابن تيمية أيضا إلى الوسواس الذى يعرض لكثير من الناس فى العبادات حتى يشككه هل كبر أم لم يكبر ؟ وهل قرأ الفاتحة أم ؟ وهل نوى العبادة أم لم ينوها وهل تطهر أم ؟ فيشككه فى علومه الحسية وهى أمور حسية علم الإنسان بها علم ضرورى يقينى أولى لا يتوقف على النظر والاستدلال . وفى هذه الحالة يوجهنا شيخ الإسلام إلى علاج ذلك بالثبوت على الحق ودفع ما يعارضه من الوسواس فينصرف عنه الشيطان متى رأى قوة العبد وثباته على الحق (وإلا فمتى رآه قابلا للشكوك والشبهات) . مستجيبا إلى الوساوس والخطرات ، أورد عليه من ذلك ما يعجز عن دفعه ، وصار قلبه موردا لما توحيه شياطين الإنس والجن من زخرف القول ، وانتقل من ذلك إلى غيره ، إلى أن يسوقه الشيطان إلى الهلكة[11] فالله ﴿ **ولى الذين امنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات** ﴾ (البقرة ٢٥٧)

وفى موضع اخر من كتابه (**درء تعارض العقل والنقل**) يذكر الوسوسة التى سأل الصحابة عنها النبى ﷺ من هذا القبيل حتى قالوا (يارسول الله إن أحدنا ليجد فى نفسه ما لأنه يحترق حتى يصير حمة أو يخر من السماء إلى الأرض خيرا له من أن يتكلم به ، فقال : ذلك صريح الإيمان .

(١١) نفسه ص ٣١٨ .

ويلخص ابن تيمية تحليله وشروحه الانفة كلها فى تفسيره لرد النبى ﷺ وهو تفسير يحمل على الاطمئنان إذ فى رأيه أنه أراد بذلك (أن كراهته هذه الوسوسة ونفيها هو محض الايمان وصريحه[١٢] .

كذلك روى البخارى فى صحيحه فى كتاب (بدء الخلق) عن عمران بن حصين قال (دخلت على النبى ﷺ وعقلت ناقتى بالباب ، فأتاه ناس من بنى تميم فقال : إقبلوا البشرى يا بنى تميم قالوا : قد بشرتنا فأعطنا مرتين ثم دخل ناس من أهل اليمن فقال : إقبلوا البشرى ياأهل اليمن إذ لم يقبلها بنو تميم قالوا قد قبلنا يارسول الله ... قالوا جئناك نسألك عن هذا الأمر قال (**كان الله ولم يكن شئ غيره وكان عرشه على الماء ، وكتب فى الذكر كل شئ وخلق السموات والأرض ...)** .

وسئل رسول الله ﷺ : أقريب ربنا فنناجيه أم بعيد فنناديه ؟ فأنزل الله تعالى هذه الآية ﴿ وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب ﴾ الآية[١٣] .

رد الرسول ﷺ على وفد نجران :

تروى لنا كتب التاريخ قصة المباهلة المشهورة بين الرسول ﷺ ووفد نجران نختار منها المنافشة الدائرة بينه وبينهم ، وكان عمادها الجدل بالتى هى أحسن . وقد أورد الطبرى فى تفسيره أن النصارى أتوا إلى رسول الله ﷺ فخاصموه فى عيسى بن مريم ، وقالوا له من أبوه ؟

وقالوا على الله الكذب والبهتان لا إله إلا هو لم يتخذ صاحبة ولا ولدا . فقال لهم النبى ﷺ : « ألستم تعلمون أنه لا يكون ولد إلا وهو يشبه أباه) ؟ قالوا نعم .

---

(١٢) نفسه ص ١١٨ .

(١٣) تفسير ابن كثير ج ١ ص٢ يقول ابن تيمية : وقعتهم مشهورة متواترة نقلها أهل السير ، وأهل التفسير ، وأهل الحديث وأهل الفقه وأصل حديثهم معروف .

قال : ألستم تعلمون أن ربنا حى لا يموت وأن عيسى يأتى عليه الفناء ؟ .
قالوا : بلى .
قال : ألستم تعلمون أن ربنا قيم على كل شئ يكلؤه ويحفظه ويرزقه .
قالوا : بلى .
قال : فهل يملك عيسى من ذلك شيئا ؟ قالوا :لا .
قال : ألستم تعلمون أن الله لا يخفى عليه شئ فى الأرض ولا فى السماء ؟ .
قالوا : بلى .
قال : فهل يعلم عيسى من ذلك شيئا إلا ما علم ؟ .
قالوا : لا .
قال : فإن ربنا صور عيسى فى الرحم كيف شاء .

قال : ألستم تعلمون أن ربنا لا يأكل ولا يشرب الشراب ولا يحدث الحدث ؟ .

قالوا : بلى .

قال : ألستم تعلمون أن عيس حملته أمه كما تحمل المرأه ثم وضعته كما تضع المرأه ولدها ، ثم غذى كما يتغذى الصبى ثم كان يطعم ويشرب الشراب ويحدث الحدث ؟ .

قالوا : بلى .

قال : فكيف يكون هذا كما زعمتم ؟ .

قال : فعرفوا ثم أبوا الا جحودا فأنزل الله تعالى ﴿ **الم ، الله لا إله إلا هو الحى القيوم** ﴾ (آل عمران[14]

---

(١٤) وينظر « أسباب النزول » للواحدى ص٦١ و ٦٢ مؤسسة الحلبى بالقاهرة ١٣٨٨هـ – ١٩٦٨م .

القرآن كلام الله تعالى :

قبل إثارة محنة خلق القران قد لا تعثر فى المصادر التاريخية على روايات تشرح موقف الصحابة بنفس الطريقة التى تقابلنا بكتب الفرق أثناء مناقشة بعضها البعض ، كالمعتزلة والأشارعرة . أو المعتزلة والسلف ، ولكن مع هذا نستطيع لمح اراء متناثرة تفيدنا فى التوصل إلى معرفة موقف الصحابة بما ورد على ألسنة أئمتهم كعلى وابن مسعود وابن عباس رضى الله عنهم ، وأقوالهم حجة .

ومن المعروف تاريخيا أن أول من قال بأن القران مخلوق الجعد بن درهم فى سنى نيف وعشرين ومائة بعد الهجرة ثم الجهم بن صفوان .

ولكن الثابت عن هؤلاء الصحابة رضوان الله عليهم أنهم قالوا أن القران كلام الله ، صحيح لم يرد لفظ غير مخلوق ، لأن المشكلة ظهرت بعدهم واستخدم المتكلمون هذا اللفظ المستحدث ، ولكن إستقراء النصوص الواردة عنهم تفيد ذلك ، فقد إعترض الخوارج كما هو معروف على على بن أبى طالب لأنه حكم الحكمين وقالوا له (حكمت رجلين ؟ قال : ما حكمت مخلوقا إنما حكمت القرآن وفى إجابته أنه ما حكم إلا القرآن نفى لهذا الخلق عنه .

وأما قول ابن عباس رضى الله عنهما ، فقد كان مرة فى جنازة ، فما وضع الميت فى لحده قام رجل فقال : اللهم رب القرآن إغفر له ، فوثب إليه ابن عباس فقال : القران منه وفى رواية أخرى (القرآن كلام الله وليس بمربوب منه خرج وإليه يعود[١٥] .

---

(١٥) ابن تيمية « الفتاوى الكبرى » ، تحقيق حسين محمد مخلوف ج ٥ ص ٥٦ .

الإيمان بالقدر وفهمه على الوجه الصحيح :

وفى الإيمان بالقدر الذى تنازع فيه المسلمون فيما بعد رأينا كيف كان أبو بكر رضى الله عنه حين يقول : أقول برأيى فإن صوابا فمن الله وإن كان خطأ فمنى ومن الشيطان ، فهذا القول يدل على تأييده لحقيقة المسئولية الأخلاقية ونفى الجبر ، كما عزر عمر بن الخطاب رضى الله عنه من إدعى أن سرقته كانت بقضاء الله ، فلما سأله فقال : قضى الله على ، فأمر بقطع يده وضرب أسواطا ، فلما استفسروا من عمر عن سبب هذا التعزير فأجاب : القطع للسرقة ، والجلد لما كذب على الله .

ولما قال محاصروا عثمان رضى الله عنه حين رموه : الله يرميك . قال : كذبتم لو رمانى ما أخطأنى !! .

وهناك توضيح أيضا على لسان على ين أبى طالب رضى الله عنه شارحا الفرق بين قضاء الله تعالى وأمره ، فقد سأله شيخ عند إنصرافه من صفين (أكان المسير بقضاء الله وقدره ؟ فأجابه على رضوان الله عليه (والذى خلق الحبة وبرا النسمة ، ما هبطنا واديا ولا علونا قلعة الا بقضاء وقدر ، ففهم الشيخ خطأ أن عليا يفسر ما حدث بالجبر لذلك أسرع على فأفهمه معنى الإيمان بالقدر على حقيقته ، وأنه لا يتنافى مع حرية وإرادة الإنسان ومسئوليته عن أفعاله ، فقال له :

(لعلك تظن قضاء واجبا وقدرا حتما ، لو كان كذلك لبطل الثواب والعقاب وسقط الوعد والوعيد ولما كانت تأتى من الله لائمة لمذنب ولا محمدة لمحسن ، ولا كان المحسن بثواب الاحسان أولى من المسئ ، ولا المسئ بعقوبة

الذنب أولى من المحسن .... ثم أردف قائلا (إن الله تعالى أمر تخييرا ، ونهى تحذيرا ، ولم يكلف مجبرا ، ولا بعث الأنبياء عبثا[١٦] .

ويسوق لنا التاريخ أيضا ما فهمه عمر ين الخطاب وإبنه رضى الله عنهما وتمييزهما الدقيق بين العلم الالهى المسبق المحيط بكل شئ وبين أفعال الإنسان التى يؤديها بحريته وإرادته .

وللقارئ هذا المثل الذى يضربه عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى شرح الصلة بين العلم الالهى والفعل الإنسانى قال (مثل علم الله فيكم كمثل السماء التى أظلتكم ، والأرض التى أقلتكم ، فكما لا تستطيعون الخروج من السماء والأرض كذلك لاتستطيعون الخروج من علم الله ، كما لا تحملكم السماء والأرض على الذنوب ، كذلك لا يحملكم علم الله ما تم) .

وبسؤال عبد الله بن عمر رضى الله عنهما عن حالة بعض الناس الذين يزنون ويشربون الخمر ويسرقون ويقتلون النفس زاعمين أن ذلك كان فى علم الله تعالى ، فغضب ثم قال (سبحان الله العظيم ، قد ذلك فى علمه أنهم يفعلونها ، ولم يحملهم علم الله على فعلها[١٧] .

والإجابة توضح نفسها ولاتحتاج إلى مزيد ، فإن علم الله تعالى المحيط بكل شئ – لأنه سبحانه بكل شئ عليم – صفة من صفات الكمال ، والعلم الإلهى بما حدث ويحدث وسيحدث لا يحمل العباد على أفعالهم .

الملائكة :

قال جماعة من المفسرين : كان لعمر أرض بأعلى المدينة فكان يأتيها ، وكان طريقه على موضع مدارسة اليهود ، وكان كلما مر دخل عليهم فسمع منهم

---

(١٦) القاضى عبد الجبار « فرق وطبقات المعتزلة » ص ٢٤ ط دار المطبوعات الجامعية بالاسكندرية تحقيق د. النشار وعصام الدين محمد على .

(١٧) نفس المصدر ص ٢٦ .

وأنه دخل عليهم ذات يوم فقالوا : يا عمر ما من أصحاب أحمد - ﷺ - أحد أحب إلينا منك . إنهم يمرون فيؤذوننا وتمر بنا فلا تؤذينا ، وإنا لنطمع فيك ، فقال لهم عمر : أى يمين فيكم أعظم ؟ قالوا الرحمن قال فبالرحمن الذى أنزل التوراة على موسى بطور سيناء أتجدون محمدا عندكم نبيا ؟ فسكتوا ، قال : تكلموا ما شأنكم والله ما سألتكم وأنا شاك فى شئ من دينى ، فنظر بعضهم لبعض ، فقام رجل منهم فقال أخبروا الرجل أو لأخبرنه ، قالوا : نعم إنا نجده مكتوبا عندنا ، ولكن صاحبة من الملائكة الذى يأتيه بالوحى هو جبريل ، وجبريل عدونا وهو صاحب كل عذاب وقتل وخسف ، ولو أنه كان وليه ميكائيل لامنا به فإن ميكائيل صاحب رحمة وكل غيث قال لهم فأنشدكم بالرحمن الذى أنزل التوراة على موسى بطور سيناء أين ميكائيل وأين جبريل من الله ؟ قالوا جبريل عن يمينه ومكائيل عن يساره ، قال عمر : فأشهد أن الذى هو عدو للذى عن يمينه هو عدو للذى عن يساره والذى هو عدو للذى عن يساره هو عدو للذى عن يمينه وإن من كان عدوا لهما فأنه عدو لله .

ثم رجع عمر ليخبر النبى ﷺ فوجد جبريل قد سبقه بالوحى فدعاه النبى ﷺ فقرأ عليه ﴿ **قل من كان عدوا لجبريل فإنه نزله على قلبك بإذن الله مصدقا لما بين يديه وهدى وبشرى للمؤمنين** ﴾ .

﴿ **من كان عدوا لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال فإن الله عدو للكافرين** ﴾ .

فقال عمر : والذى بعثك بالحق لقد جئت وما أريد إلا أخبرك(١٨) .

---

(١٨) الحافظ ابن عبد البر (٤٦٣هـ) « جامع بيان العلم وفضله » ج٢ ص١٢٣ و١٢٤ .

مكانة الصحابة – رضى الله عنهم – فى الأمة :

تخبرنا كتب التاريخ وصحائفه على إكتمال الفهم والمعرفة لأصول الدين جميعا لدى الصحابة رضى الله عنهم وكان ذلك بفضل طاعتهم للايات القرانية التى حثتهم على التدبر فى غير موضع ، مثل قوله تعالى ﴿ **كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته** ﴾ وعلى العكس وصف الكفار والمنافقين بالاعراض عن تدبره فى مثل قوله تعالى عز وجل ﴿ **أفلا يتدبرون القران أم على قلوب أقفالها** ﴾ قال تعالى : ﴿ **أفلا يتدبرون القران ؟ ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه إختلافا كثيرا** ﴾ . ومعنى ذلك أن معانيه مما يمكن للكفار والمنافقين فهمها ومعرفتها فهى إذن ممكنة للمؤمنين أيضا ، ويدل على أن معانيه كانت معروفة بينة لهم .

وأيضا فإن الله عز وجل بين أنه أنزل القران عربيا لكى يعقلوه ﴿ **إنا أنزلناه قرانا عربيا لعلكم تعقلون** ﴾ والعقل لا يكون إلا مع العلم بمعانيه . وذم من لا يفقهه ﴿ **فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثا** ﴾ فلو كان المؤمنون لا يفقهونه لا صطفوا فى صف واحد مع المنافقين والكفار الذين ضرب لهم مثلا بقوله تعالى : ﴿ **ومثل الذين كفروا كمثل الذى ينعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء صم بكم عمى فهم لايعقلون** ﴾ . فكيف إذن يمكن وضع السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار بمنزلة الكفار الذين ذمهم الله فى أكثر من موضع لأنهم أعرضوا عن تدبر القران وإتبعوا أهواءهم ، فقال تعالى فى وصفهم ﴿ **ومنهم من يستمع إليك حتى إذا خرجوا من عندك قالوا للذين أوتوا العلم ، ماذا قال آنفا ؟ أولئك الذين طبع الله على قلوبهم واتبعوا أهواءهم** ﴾ . .

ويضيف شيخ الإسلام ابن تيمية إلى كل هذه الأدلة ، ما ثبت عن كل واحد من أصحاب ابن مسعود وإبن عباس أنه نقل عنهما من التفسير ما

لا يحصيه إلا الله فقال قال ابن مسعود (لو أعلم أحدا أعلم بكتاب الله منى تبلغه الا بل لأتيته) .

وجاء التابعون فتعلموا التفسير من الصحابة ، قال مجاهد ، عرضت المصحف على أبي عباس من أوله إلى آخره ، أقف عند كل ايه وأسأله عنها (ولهذا قال سفيان الثورى - إذا جاءك التفسير عن مجاهد فحسبك به[19])فالأصل أن الرسول ﷺ قد بلغ الرسالة كما أمر ولم يكتم منها شيئا تنفيذا لقوله تعالى **﴿ وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ﴾** وقال تعالى **﴿ ياأيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس ﴾** وقد أخبر الله بأنه قد أكمل الدين ، وقال الرسول صلوات الله عليه « **ماتركت من شئ يقربكم إلى الجنه إلا وقد حدثتكم به ، وما من شئ يبعدكم عن النار إلا وقد حدثتكم به** » .

وبناء على هذا الأصل ، فأنه كما تبين لنا أوضح كافة الأصول الإسلامية مماأخبر به الله تعالى من أسماء الله وصفاته ، مما جاء فى القران وشرح وبين لأصحابه هذه الأصول كلها كأحسن ما يكون البيان . قال أبو ذر (لقد توفى رسول الله ﷺ وما طائر يقلب جناحيه فى السماء إلا ذكر لنا منه علما) .

وكان الصحابه حريصين على الفهم والاستيعاب الدقيق الكامل لكل ما يتعلمونه من القران والحديث ، فإن عثمان بن عفان وعبد الله بن مسعود وغيرهما كانوا إذا تعلموا من النبى ﷺ عشر ايات لم يجاوزوها حتى يتعلموا ما فيها من العلم والعمل (قالوا : فتعلمنا القرآن والعلم والعمل جميعا) وقام عبد الله بن عمر يحفظ سورة البقرة فى ثمان سنين لا ستغراقه فى المعرفة والفهم[20] .

---

(١٩) ابن تيمية « فتاوى » ج٥ ص١٥٧و١٥٩ ط الرياض .

(٢٠) ابن تيمية : « فتاوى » ج٥ ص١٥٥و١٥٦ .

وكانت أم الدرداء تصف زوجها بأن أفضل عمله التفكر[٢١] وعلى العكس من هذه الحقيقة ، فإن الادعاء بأن الصحابة كانوا مشغولين بالجهاد .. كما يذكر بعض المتكلمين فأنه يحمل فى طياته ذم الصحابة بل يجعلون مذهب السلف أن الرسول ﷺ بلغ قرآنا لا يفهم معناه ، بل تكلم بأحاديث الصفات وهو لا بفهم معناها ، وأن جبريل كذلك وأن الصحابة والتابعين كذلك وهذا الموقف – كما يذكر ابن تيمية – ضلال عظيم[٢٢] .

وشرح ذلك يحتاج إلى مزيد من الإيضاح ، نذكره فيما يلى :

منهج الصحابة فى النظر والتدبر :

لقد خاطب الإسلام العقل كما رأينا ودعا الإنسان إلى النظر فى اثار مخلوقات الله تعالى ، وقد مضى عصر الصحابة فى الصدر الأول على هذا المنهج القرانى الواضح وكان قدوتهم الرسول ﷺ وحده فى النظر والسلوك ، حيث عاشوا معه وشاهدوا التنزيل وسألوا وإستفسروا عما يعن لهم من قضايا تحتاج إلى شرح وإيضاح .

وهكذا استمدوا من كتاب الله تعالى معرفة وحدانية الله تعالى ، وإثبات صفاته ، وعرفوا الأنبياء والرسل عليهم السلام وقصصهم مع أقوامهم ، ووقفوا منه على أصل خلق ادم عليه السلام وعداوة إبليس له ولبنيه ، وعرفوا مكانة الملائكة وأدوارهم من بين مخلوقات الله تعالى ، واستمدوا معلوماتهم عن اليوم الآخر وحساب الله تعالى وجنته وناره والقدر وخيره وشره إلى غير ذلك من القضايا التى تشكل أركانا رئيسية وأصولا فى الإيمان . وكلها جمعها القران الكريم – كما يرى الزركشى فى أقسام ثلاثة توحيد وتذكير وأحكام (**فالتوحيد**

---

(٢١) نقض المنطق ص ٨٧ .

(٢٢) شرح حديث النزول ص٦٥ .

تدخل فيه معرفة المخلوقات ومعرفة الخالق بأسمائه وصفاته وأفعاله ، **والتذكير** ومنه الوعد والوعيد والجنة والنار وتصفية الظاهر والباطن ، **والأحكام** ومنها التكاليف كلها وتبين المنافع والمضار والأمر والنهى والندب . فالأول : (**وإلهكم إله واحد**) فيه التوحيد كله فى الذات والصفات والأفعال ، والثانى : (**وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين**) ، والثالث : (**وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك - الآية**[٢٣]) .

وقد خط لهم القران الكريم الاستدلال بمخلوقات الله تعالى على وحدانيته سبحانه وعلمه وحكمته . فإنها جميعا تبرهن على أن لها صانعا حكيما خبيرا تام القدرة بالغ الحكمة ، كما دعاهم إلى اثار الصنعة فى أنفسهم أيضا ﴿ **وفى أنفسكم أفلا تبصرون** ﴾ ! ؟ إشارة إلى ما فيها من أثار الصنعة ولطيف الحكمة الدالين على وجود الصانع الحكيم[٢٤] .

ونهاهم الرسول ﷺ عن التفكر فى الخالق جل شأنه ، فجاء فى الأثر (تفكروا فى الخلق ولا تتفكروا فى الخالق) ، وتعليل النهى أنه سبحانه ليس كمثله شئ (فالتفكر الذى مبناه على القياس ممتنع فى حقه . وإنما هو معلوم بالفطرة . فيذكره العبد)[٢٥] .

كذلك جاء الرسول ﷺ بسنته كمصدر ثان للإسلام ولذلك أصبح المنهج الصحيح يقتضى معرفة سنته وتنفيذها ، فمن كان أعلم بسنته وأتبع لها كان الصواب معه ، وهذه الأوصاف تنطبق على الصحابة رضى الله عنهم ثم الأجيال التالية من أهل الحديث والسنة (وهؤلاء هم الذين لاينتصرون إلا لقوله ولا

---

(٢٣) الزركشى : البرهان فى علوم القرآن ج١ ص١٧ ط الحلبى ١٩٥٧م .
(٢٤) السيوطى : صون المنطق ج١ ص١٤٣ .
(٢٥) ابن تيمية : نقض المنطق ص٣٥ .

يضافون إلا إليه ، وهو أعلم الناس بسنته وأتبع لها ، لكن التفرق والاختلاف كثير فى المتأخرين)[٢٦] .

وبهذه الطريقة وضعوا الأسس السليمة للمنهج الصحيح فى معرفة أصول الدين وفروعه ، فمن أردا إذن معرفة شئ من الدين والكلام فيه ، نظر فيما قاله الله والرسول ﷺ . فمنه يتعلم وبه يتكلم وفيه ينظر ويتفكر وبه يستدل . فهذا أصل منهج أهل السنة .

أما المخالفون لهذا المنهج ، فلم يراعوا قاعدته ويلتزموا بخطواته ، إذ أنهم بدلا من البدء بالنظر فيما قاله الله ورسوله ﷺ ، بدأوا بما رأوه بعقولهم كما فعل المتكلمون ، أو ذاقوه بوجدانهم – كما فعل الصوفية – فإذا وجدوا السنة توافقه وإلا لم يبالوا بذلك ، فإذا وجدوها تخالفه ، أعرضوا عنها تفويضا أو حرفوها تأويلا[٢٧] .

وهذه الصورة المخالفة للمنهج الإسلامى الصحيح كثيرا ما نراها فى عصرنا أيضا . فبسبب ضغوط ثقافة الغرب وحضارته ، وعلى أثر انتصاره العسكرى والسياسى وتفوقه العلمى ونفوذه الثقافى ، وتأثيره الساحر على العقول والنفوس فى مقابل ضآلة المعرفة بالإسلام بأصوله وفروعه ، نجم عنه أن أصبح الكثيرون يتبنون الأفكار والفلسفات الغربية ويعطونها شكلا إسلاميا ، ظانين بذلك أنهم يدافعون عنه ويقدمونه إلى الأجيال الشابة فى ثوب عصرى[٢٨] .

---

(٢٦) ابن تيمية : منهاج السنة ج٣ ص٤٦ .

(٢٧) ابن تيمية : الفرقان بين الحق والباطل ص٤٧ .

(٢٨) كالقول مثلا بديمقراطية النظام الإسلامى أو اشتراكيته وتحرر نظمه وقابليته للتطور وغيرها من المصطلحات اللصيقة بفلسفة الغرب وحضارته وتاريخه ، ولها مدلولاتها ومعانيها المختلفة تماما عن مقابلها فى الإسلام بعقيدته وشريعته وتاريخه وحضارته .

الأدلة الشرعية على فضل الصحابة رضى الله عنهم :

منها ما قاله تعالى فى وصفهم : ﴿ **والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان** ﴾ سورة التوبة ١٠٠ ، فكانوا هم الأفضل ثم يتناول الوصف من اتبعهم إلى يوم القيامة .

وأيضا ثبت فى الصحيحين من غير وجه أن النبى ﷺ قال (**خير القرون القرن الذى بعثت فيهم ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم**) .

كما ظهر من دراسة السنة النبوية مكانة الصحابة الخاصة بعد رسول الله ﷺ ، لا سيما الخلفاء الراشدين وباقى العشرة المبشرين بالجنة . وفى الحديث : (عليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين المهديين . عضوا عليها بالنواجذ ، وإياكم ومحدثات الأمور ، فإن كل بدعة ضلالة[٢٩] .

والآيات والأحاديث كثيرة فى وصف أفضالهم ومكانتهم الممتازة ، مثل قوله تعالى . ﴿ **كنتم خير أمة أخرجت للناس** ﴾ **وقوله تعالى** : ﴿ **لايستوى منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا وكلا وعد الله الحسنى** ﴾ الحديد .

والحديث « **أوصيكم بأصحابى ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم ثم يفشو الكذب حتى يحلف الرجل ولا يستحلف ويشهد الشاهد ولا يستشهد** »[٣٠] .

كما وصفهم الرسول ﷺ فى حديث آخر بأنهم خير القرون وأن غيرهم لو أنفق مثل أحد ذهبا ، ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه .وقد عانوا وكابدوا

(٢٩) جزء من حديث ص٤٣ رواه الإمام أمين وأبو داود والترمذى وقال حديث حسن .
(٣٠) الحديث رواه أحمد والترمذى .

كثيرا بعد الاهتداء للإسلام من أهلهم وعشيرتهم وقبائلهم وأقرب أقربائهم لكنهم لم يبالوا ، بل صبروا وثبتوا لأنهم تذوقوا حلاوة الإيمان فى القلوب وأيقنوا وصدق الرسول ﷺ وإقتنعوا بعقديتهم ولم تتأثر نفوسهم وقلوبهم بأية إضطهادات أو مشاق يقابلونها بسبب عقيدتهم ، ثم إنطلقوا ينشرونها ويدافعون عنها ويبذلون فى ذلك الأنفس والنفائس .

يقول ابن الوزير اليمانى :

لولا ثقل موازينهم فى الشرف والدين ما إتبعوا رسول الله ﷺ بأدلة الدين الجديد فلم يعبأوا أمام وضوح الأدلة ورسوخها فى عقولهم ومالوا عن الف دين الاباء والأتراب والقرباء إلى أمر شاق على القلوب ، ثقيل على النفوس ، لا سيما وهم فى ذلك الزمان أهل الأنفه[٣١] .

والصحابة رضى الله عنهم أيضا الواسطة بين الرسول ﷺ وبين الأمة ، ولذلك إمتدحهم عليه السلام وجعلهم الأفضل على مدى الأجيال ، ففى حديث صحيح قال رسول الله ﷺ (**لا تسبوا أصحابى فلو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهبا ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه**[٣٢] .

قال ابن عبد البر (وما أظن أهل دين من الأديان إلا وعلماؤهم معنيون بمعرفة أصحاب أنبيائهم ، لأنهم الواسطة بين النبى وبين أمته[٣٣] .

والأدلة كثيرة تدل على فطنتهم وذكائهم ، وأنهم كانوا أصحاب دراية وفكر ونظر ، ولم يكونوا من السذج بحيث يخدعون أو يؤمنون كإيمان العامة .

---

(٣١) ابن الوزير اليمانى : الذب عن سنة أبى القاسم ج١ ص٥٥ .
(٣٢) رواه البخارى بسنده عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه ، والمد : ربع الصاع ، وإنما قدره لأنه أقل ماكانوا يتصدقون به فى العادة .
(٣٣) ابن عبد البر : الاستيعاب ج١ ص١٩ .

يروى لنا ابن كثير فى تفسيره عن أحد صالحى المهاجرين (هو جندب بن كعب الأزدى) قد رأى عند الوليد بن عقبة ساحرا يلعب بين يديه ، فكان يضرب رأس الرجل ثم يصبح به فيرد إليه رأسه ، فقال الناس سبحان الله يحيى الموتى فلما كان الغد جاء مشتملا على سيفه ، وذهب إلى مكان الساحر حيث يلعب لعبته تلك ، فإخترط الرجل سيفه فضرب عنق الساحر وقال إن كان صادقا فليحى نفسه وتلا قوله تعالى ﴿ **أتأتون السحر وأنتم تبصرون** ﴾ ؟ ولا شك أنه كان يعرف الحديث (**حد السيف ضربه بالسيف**) (رواه الترمذى) .

ولا تظن أننا نغالى إذا قلنا أنهم عاشوا على أعتاب عالم الغيب وتمثلوه ، وكأنه عالم مشاهد حاضر أمامهم يرونه ويعيشون فيه ، فكانوا يتنافسون فى طلب الشهادة للانتقال من الحياة الفانية إلى الحياة الباقية تحقيقا للسعادة الأبدية عند ربهم عز وجل . وها هو حارثة – رضى الله عنه – يسأله رسول الله ﷺ (كيف أصبحت ياحارثة ؟ قال أصبحت مؤمنا بالله حقا ، قال أنظر ما تقول ؟ فإن لكل قول حقيقة ، قال يارسول الله ، عزفت نفسى عن الدنيا فأسهرت ليلى وأظمأت نهارى ، وكأنى بعرش ربى عز وجل بارزا ، وكأنى أنظر إلى أهل الجنة يتزاورون فيها ، وكأنى أنظر إلى أهل النار يتعاوون فيها ، قال : الزم . عبد نور الله الإيمان فى قلبه . فقال : يارسول الله ، إدع الله لى بالشهادة ، فدعا له[٣٥] رسول الله ﷺ ، فنودى يوما فى الخيل ، فكان أول فارس ركب وأول فارس استشهد . فأما درجة السابقين كأبى بكر وعمر فتلك لا يبلغها أحد وقد ثبت فى الصحيحين عن النبى ﷺ أنه قال : « **قد كان**

---

(٣٤) ابن كثير : التفسير ج١ ص١١٩ ط دار الشعب .

(٣٥) ابن الأثير : أسد الغابة فى معرفة الصحابة ج١ ص٤٢٥ – ٤٢٦ ط الشعب ، وقال الرسول ﷺ يوم استشهاده « يا أم حارثة أنها ليست بجنة واحدة ، ولكنها جنان وأن حارثة فى الفردوس الأعلى » .

فى الأمم قبلكم محدثون ، فإن يكن فى أمتى فعمر » وفى حديث آخر : « إن الله ضرب الحق على لسان عمر وقلبه ») وقال على (كنا نتحدث أن السكينة تنطق على لسان عمر) وفى الترمذى وغيره (لو لم أبعث فيكم عمر ، ولو كان بعدى نبى ينتظر لكان عمر) .ومع هذا فالصديق أكمل منه ، فإن الصديق كمل فى تصديقه للنبى ﷺ فلا يتلقى إلا عن النبى صلى الله عليه وسلم والنبى معصوم . والمحدث – كعمر – يأخذ أحيانا عن قلبه ما يلهمه ويحدث به ، ولكن قلبه ليس معصوما . فعليه أن يعرض ما ألقى عليه على ما جاء به الرسول ﷺ فإن وافقه قبله ، وإن خالفه رده . ولهذا قد رجع عمر عن أشياء ، وكان الصحابة يناظرونه ويحتجون عليه ، فإذا بينت له الحجه من الكتاب والسنة رجع إليها وترك ما راه والصديق إنما يتلقى عن الرسول ﷺ لا عن قلبه . فهو أكمل من المحدث . وليس بعد أبى بكر صديق أفضل منه ، ولا بعد عمر محدث أفضل منه[٣٦] .

بعد هذا التوضيح لا نرى مزيدا لمستزيد لتقرير كمال المنهج الذى اتبعه الصحابة فى معرفة أصول الدين أصولا وفروعا[٣٧] .

ثانيا : الدليل العقلى :

ففضلا عن النصوص المستفيضة عن الصحابة رضى الله عنهم فى التفسير ، والتى تدل على فهمهم للقران الكريم وتدبرهم ، وإحاطتهم بالأدلة التى قدموها كالآيات وضرب الأمثلة واستخدم الأقيسة العقلية ، فإن استخدامنا للدليل العقلى يبرهن أيضا على أن حوارى الرسل وصحابتهم هم أكثر الناس فهما لرسالتها من غيرهم بأصولها الكبرى وفروعها ودقائقها أيضا . وأن المتأخرين

(٣٦) ابن تيمية : الرد على المنطقين ص٥١٣ – ٥١٤ .

(٣٧) لم يكن تقسيم الدين إلى أصول وفروع معروفا فى عصر الصحابة التابعين ولكن هذا التفريق ظهر من جهة المعتزلة .

هم أكثر الناس بعدا الرسالات وفهمها بإستثناء القلة الحريصة على إتباع السابقين عليهم بمنهج النقل الدقيق كما فعل أهل الحديث والسنة .

وهذا هو التفسير المنطقى المعقول الدى يشهد به تاريخ الدعوات الدينيه فهى (تقوم إبان نشأتها على معتنقين إتجهوا نحوها بقلوبهم وتفانوا فيها بأرواحهم وكم روى التاريخ من أخبار الرسول صلوات الله عليه ان إشارته كانت تقابل بالتنفيذ من الجميع ، فإذا ما فترت الدعوة وضعفت العقيدة وخمدت حراة الإيمان الأولى ، أخذ الناس يبحثون فى معتقداتهم ويعللون ويناقشون ويعارضون[٣٨] .

ولم نذهب بعيدا فى التعليل والتفسير بينما كان عبد الله بن عباس رضى الله عنهما سباقا إلى تعليل إختلاف المسلمين ، متنبئا بما سيحدث فى العصور التالية لعصر الصحابة ، مفسرا إياه بنقص درايتهم بالقران وإفتقادهم لفهمه على الوجه الصحيح . فقد خلا عمر رضى الله عنه ذات يوم فجعل يحدث نفسه : كيف تختلف هذه الأمة ونبيها واحد ؟ فأرسل إلى ابن عباس رضى الله عنهما فقال : كيف تختلف هذه الأمة ونبيها واحد وقبلتها واحدة وكتابها واحد ؟ فقال ابن عباس : يا أمير المؤمنين إنما أنزل علينا القران فقرأناه وعلمنا فيما أنزل وأنه سيكون بعدنا أقوم يقرأون القران ولا يدرون فيما نزل ، يكون لهم فيه رأى فإذا كان كذلك اختلفوا فيكون لكل قوم فيه رأى ... فإذا اختلفوا اقتتلوا[٣٩] .

وكانت طرق استدلال الصحابة مستمدة من النظر فى المخلوقات والتأمل فى عجائب صنع الله تعالى وما يطرأ عليها من تغيرات على مدار الأزمنة ، فأيقنوا أنها لابد أنها مخلوقة من رب حكيم . أحسن كل شئ خلقة وأتقن صنع كل

(٣٨) د . إبراهيم مدكور : فى الأخلاق والاجتماع ص٢٦ ط الهيئة العامة للنشر .

(٣٩) الشاطبى : الاعتصام ج٢ ص١٠٧ ط دار الشعب .

شيء . عن الحسن البصرى (كانوا – يعنى الصحابة – يقولون الحمد لله رب الرفيق الذى لو جعل هذا الخلق خلقا دائما لا ينصرف لقاك الشاك فى الله لو كان لهذا الخلق رب لحادثه ، وأن الله قد حادثه بما ترون من الايات : أنه جاء بضوء طبق ما بين الخافقين ، وجعل فيها معاشا وسراجا وهاجا ، ثم إذا شاء ذهب بذلك الخلق بظلمة طبقت ما بين الخافقين ، وجعل فيها سكنا ونجوما وقمرا منيرا ، وإذا شاء بنى بناء جعل فيه من المطر والبرق والرعد ما شاء ، وإذا شاء صرف ذلك ، وإذا شاء جاء ببرد يقرف (من الرقفة أى الرعدة) الناس ، وإذا شاء ذهب بذلك وجاء بحر يأخذ بأنفاس الناس ، ليعلم الناس أن لهذا الخلق ربا يحادثة بما يرون من الايات ، كذلك إذا شاء ذهب بالدنيا وجاء بالآخرة) .

وترى الصحابة – طبقا لهذا الاستدلال – قد سلكوا الطريق الفطرى المطابق لطريق البرهان العقلى فى إثبات وجود الله سبحانه وتعالى ، وأنه خالق كل شيء ، وهو سبحانه المحدث الفاعل بمشيئة وقدرته ، ولم يفعلوا كما فعل بعض فلاسفة اليونان عندما فسروا صدور الكون بأنه معلول يقارن عنه (فإن ذلك يمتنع محادثته أى احداث الحوادث فيه[٤٠] .

من هذا يتبين أيضا أن أدلة الشرع أدلة عقلية ، فقد فطر الله تعالى عباده على معرفة الحق وقد بعد الرسل ، كما يصفهم ابن تيمية – بتكميل الفطرة . قال تعالى ﴿ **سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق** ﴾فصلت ، وتفسيرها أنه سيريهم الآيات (الأفقية والنفسية المبينة ، لأن القرآن الذي أخبر به عباده حق . فتتطابق الدلالة البرهانية العيانية ويتصادق موجب الشرع المنقول والنظر المعقول[٤١] .

---

(٤٠) ابن تيمية : جامع الرسائل – المجموعة الأولى ص١٣٩ تحقيق : محمد رشاد سالم ١٣٨٩هـ ١٩٦٩م ط المدنى بالقاهرة .

(٤١) منهاج السنة ج١ ص٨٢ .

والتفسير العقلى أيضا يبرهن على تجاوبهم الكامل مع العقيدة التى تغلغلت إلى أعماق نفوسهم ، فإن الدارس لأحوالهم وسلوكهم خلال سنوات الأزمات والجهاد الشاق على النفس وعلى الهوى وفى مواجهة الأهل والأصحاب والعادات المألوفة والعقائد الوثنية الباطلة التى نشأ البعض عليها بالمقارنة بتصرفاتهم وعقائدهم قبل وبعد الإسلام ، وفى ضوء دراسة أعمالهم وسلوكهم مع رسول الله ﷺ وخشيتهم لربهم وفهمهم لدقائق العقيدة بعد أن تلقوها من رسول الله ﷺ ، بعد كل هذا يمكن وصفهم بأنهم الأعلم والأحكم من كل من جاء بعدهم .

ونكتفى بواقعة واحدة للمقارنة . تلك هى موقعة تبوك حيث بلغت بهم الشدة مبلغها .

يقول ابن كثير (ومن هنا تتبين فضيلة أصحاب محمد ﷺ رضى الله عنهم على سائر أصحاب الأنبياء فى صبرهم وعدم تعنتهم كما كانوا معه فى أسفاره وغزواته منها عام تبوك فى ذلك القيظ والحر الشديد والجهد لم يسألوا خرق عادة ولا ايجاد أمر مع أن ذلك كان سهلا على الرسول ﷺ لما أجهدهم الجوع سألوه فى تكثير طعامهم فجمعوا ما معهم فجاء قدر مبرك الشاة فدعا فيه وأمرهم فملأوا كل وعاء معهم . وكذا لما احتاجوا إلى الماء سأل الله تعالى فجاءت سحابة فأمطرتهم ، فشربوا وسقوا الأبل وملأوا أسقيتهم ثم نظروا فإذا هى لم تجاوز العسكر فهذا هوالأكمل فى الاتباع المتمشى مع قدر الله ، مع متابعة الرسول ﷺ[٤٢] .

وهل نتصور أن أهل العصور التالية كانوا أكثر فهما للدين وأصوله من الصحابة ؟ أو أنهم أفقه وأورع منهم ؟ إن ذلك يعد قلبا للأوضاع وتبديلا

---

(٤٢) ابن كثير - التفسير ج١ ص١٣٩ ط الشعب .

لموازين القياس الصحيح ، إذ سجل لنا التاريخ فضائل أعمال الجيل الأول بمثاليتهم الفهم والتطبيق فلم يشغلهم الجهاد عن التدبر والفهم العميق للاسلام بعقيدته وعبادته وأحكامه ، وكثرة الروايات عن الجهاد والأعمال الصالحة تنطوى فى عمق الادراك والوعى بالرسالة والتحرك بها فانصرفوا عن الجدال واهتموا بالأعمال ، ولكن الأوضاع انقلبت بعدهم ، فظهر الجدل فى الدين على حساب العمل ، أو كان بداية لتفرقة وحدة المسلمين وتفتيت جماعتهم وظهور علامات الوهن بين صفوفهم .

لذلك اعتبر علماء السنة ظهور الجدل الكلامى لونا من الردة ، وعللوه بقلة الفقه فى الدين وذهاب العلماء لقول الدرامى « وكانوا مقموعين أيام الصحابة والتابعين ، مقهورين بسلطان الدولة وحجج العلماء ، ولكنهم عندما بعد الزمن ، وجدوا الفرصة لنشر مذاهبهم عندما وجدوا من الرعاع جهلا ، ومن العلماء قلة(٤٣)» .

لقد بحث المتكلمون ونقبوا فى تاريخ الصحابة وأيامهم فلم يجدوا اثار تدل على خوض الصحابة فيها بنفس طريقتهم وتبويباتهم ، فاستنتجوا أنهم لم يعرفوها . وهذا منهج خاطئ فى البحث والتصور ، يقول السفارينى :

ولما كان عصر الصحابة والتابعين لهم بإحسان خالياً من البدع الكلامية والشبه الخيالية والخصوم المعتزلية ، لم تكن أدلة علم أصول الدين مدونة هذا التدوين(٤٤) .

كما تمادى المتكلمون بالطعن فى الصحابة فزعموا أنهم كانوا مشغولين بالجهاد عن تناول أمهات أصول الدين !! وهذا خطأ جسيم وتفسير مقلوب إذ لا

---

(٤٣) عقائد السلف تحقيق د. على سامى النشار ود. عمار الطالبى – منشأة المعارف بالاسكندرية سنة ١٩٧١م .

(٤٤) مختصر شرح الاسفراينى ص٥ .

يمكن تفسير الانتصارات المذهلة للصحابة إلا فى ضوء استجابتهم لعقيدة الإسلام وفهمها حق الفهم وتطبيقها عمليا فاجتذبوا غيرهم من الشعوب ذات الحضارات العريقة فكان الصحابة فى وضع الطلائع والصفوة الممتازة .

وظهرت حروب الردة لتكشف معادن الرجال مبرهنة على أن قوة الايمان فى صف أبى بكر والصحابة وقد وقفت سدا مانعا لمواجهة أية ثغرة فى العقيدة وكانت محكا لأثر الايمان فى النفوس والفهم الصحيح لعقائد الإسلام ، فقد كشفت الردة عن (حقيقة التصور الالهى فى أذهان المسلمين وسلوكهم حين تحول إلى أعمال وحرب حتى لا يتمكن المرتدون من تشويه العقيدة ، أو انتقاض المنهج ، أو ادخال شيء من الجاهلية فى الإسلام[٤٥] .

إن هذا الفهم الممتزج بالايمان هو الدافع الحقيقى لجهاد الصحابة مع رسول الله ﷺ والتسابق للاستشهاد ، ومع الصديق رضى الله عنه بعده ، وفى عصر الخلافة الراشدة عموما .

ألا يحق لعلماء أهل السنة والجماعة سلوك طريقهم واعتبارهم الجيل المثالى فى العقيدة والسلوك ؟ .

ولن يدهشنا إذا عندما نرى أحد علمائهم - وهو الدرامى يقول :

فلم يظهر جهم[٤٦] وأصحابه - وهم أول من قالوا بالجبر ونفوا الصفات الالهية - فى زمن أصحاب رسول الله ﷺ وكبار التابعين فيروى عنهم فيها أثر منصوص ، مسمى ولو كانوا بين أظهرين أراءهم لقتلوا ، كما قتل على رضى

---

(٤٥) محمد حسن بريغش : ظاهرة الردة فى المجتمع الاسلامى الأول ط مؤسسة الرسالة - بيروت ١٣٩٤هـ-١٩٧٤م .

(٤٦) جهم بن صفوان أبو محرز السمرقندى ، الضال المبتدع رأى الجهمية ، هلك فى زمان صغار التابعين وماعلمته روى شيئا ولكنه زرع شرا عظيما ، الذهبى : ميزان الاعتدال ج١ ص١٩٧ ط الخانجى ١٣٢٥هـ .

الله عنه الزنادقة – وهو أتباع عبد الله بن سبأ اليهودى الذين قالوا بتأليه على – والتى ظهرت فى عصره ، ولقتلوا كما قتل أهل الردة[٤٧] .

ويوضح لنا الدرامى بهذا الرأى كيف دارت عجلة التاريخ لتطبيق سننه فى رقى الأمم وتدهورها ، إذ عبرت الفلول المهزومة فى الحضارات المغلوبة عن نفسها بنشر فلسفاتها ونظراتها للالوهية والكون والانسان ، أو باثارة المشكلات العقائدية التى كانت تعانى منها ابان أزماتها .

ومما أذهل عقول مؤرخى التاريخ وفلاسفته أن المسلمين قاموا بغزو بلاد ذات حضارات عريقة ، فكان من المنتظر قياسا على الغزوات المماثلة من قبل كغزوات الاسكندر الأكبر مثلا – حيث لم تتجاوز أعماله مجال التعمير الحضرى بمظهرها المادى فقط – كان من المنتظر بقاء الأفكار الفلسفية والدينية للسكان الأصليين كما هى ، ولكن ما حدث نتيجة انتصار المسلمين لم يتوقع لأنه اكتسح مالاقاه فى طريقه كالسيل الجارف (فتغير كل شىء بين يوم وليلة . ولم يقتصر فى هذه المرة على الواجهة السياسية والاقتصادية فى المدن الكبرى فقط ، وانما تغلغل فى الأعماق النفسية لهذه الشعوب جميعا : فاللغات والأفكار والقانون والامال والعادات وتصور العالم وعقيدة الالوهية ، كل ذلك قد طرأ عليه تغير جذرى سريع[٤٨] .

والشواهد أكثر من أن يستدل بها فى هذا الموضع وإلا اضطررنا إلى عرض حياة عشرات بل مئات الصحابة رضوان الله عليهم ومنهم من فسر القران الكريم ومنهم من تفقه ومنه من اختص بالافتاء والاجتهاد . والأمثلة كثيرة على مثل هذه التخصصات . ولو مضينا فى دراسة أنشطتهم العلمية لخرجنا بصورة

---

(٤٧) عقائد السلف ص٣٤٩ .

(٤٨) د. دراز : مدخل إلى القرآن الكريم ص ٥٤ ط دار القلم – الكويت ١٣٩١هـ ١٩٧١ .

كاملة عن حقيقة عقائدهم إذ توصلوا إليها فى كافة أوجه أصول الدين من عقيدة التوحيد إلى الصفات الالهية إلى مسألة القضاء والقدر الالهى ، إلى الانسان وحقيقته وغايته وأخلاقه ، إلى المجتمع ومكوناته والحياة الانسانية بكافة جوانبها حتى قال الامام أحمد بن حنبل (لقد حدثت أجناس الأعمال فى عصر الصحابة) ويقصد بذلك أنهم أرسوا قواعد الحياة .

وقال الامام أحمد (أنه ما من مسألة إلا وقد تكلم فيها الصحابة أو فى نظيرها فأنه لما فتحت البلاد وانتشر الإسلام حدثت جميع أجناس الأعمال فتكلموا فيها بالكتاب والسنة ، وإنما تكلم بعضهم بالرأى فى مسائل قليلة[٤٩] .

ويقصد بذلك أنهم أرسوا قواعد الحياة الإسلامية الحقيقية كلها . هذه الحياة الكاملة التى تتناول العقيدة والعبادات والاخلاق فى دائرة واحدة يعبرون عنها بحياتهم اليومية العادية والمعارك العسكرية والمعاملات التجارية والعلاقات الاجتماعية فى الاخو والصحبة والزواج والعتاق والمسرات والأحزان . وهذه المزية ينفرد بها الصحابة دون من جاء بعدهم ، لأنه ما إن انقضى عصرهم حتى ظهرت بواكير التحول التدريجى البطئ عن هذه النموذجية إلى حياة أقل درجة منها ، ظهرت الفتن والقلاقل شأن سنة الحياة فى النزول عن القمة بعد بلوغها الذروة .

ومن هنا أصبحت تقاس أطوارنا تاريخيا بالنظر إلى اقترابها أو ابتعادها عن المجتمع الإسلامى فى الخلافة الراشدة وما حققته الحضارة الإسلامية فى هذا الطور العظيم ، فإذا تكلمنا عن الشورى والبيعة والعدالة . وإذا تكمنا عن

(٤٩) ابن تيمية : معارج الوصول إلى أصول الدين وفروعه قد بينها الرسول ص٤٣ ط المكتبة العلمية بالمدينة المنورة .

المساواة فى الحقوق والواجبات بين الناس ، وإذا تكمنا عن الفتوحات ورايات الإسلام الخفاقة المنتشرة فى الأرض حينذاك ، فلن نجد مصدرا غنيا كاملا بكل ما تحقق فى هذه الميادين إلا فى وقت الخلافة الراشدة والقرون الأولى المفضلة .

ولهذا فإن التاريخ يسجل الصلة العكسية بين ظهور الحضارة الإسلامية واتساع نفوذها وأثر إشعاعها وفتوحاتها وبين ظهور الفرق وانقسام صفوف المسلمين بين نحل ومذاهب تتطاحن وتتناحر .

وإذا عبرنا بلغة فلسفة التاريخ لفهم تاريخ المسلمين ، عثرنا على الرباط الوثيق بين تنفيذ قواعد الشرع وفهم الإسلام من واقع مصدرية وبين النصر والظهور للمسلمين وبلوغ حضارتهم ألى الذروة ، ففى العصور الأولى عندما كان الصحابة والتابعون يسيرون على طريق الشرع بفهم ووعى ، إنتصروا فى الغزوات وقهروا الأعداء وحققوا مجتمعنا إنسانيا مثاليا لم تر البشرية مثله . ثم أصاب الوهن المجتمعات الإسلامية وظهر الضعف فى أوصالها على أثر ضعف العقيدة فى النفوس وظهور البدع .

ولا تخطئ عين الباحث المنقب فى كتب التاريخ ملاحقة ما حققه المسلمون فى عصر النبى ﷺ بقيادته ثم الصحابة والتابعون .

وإذا شئنا تفصيلا موجزا ، رأينا أن عصر بنى أمية إمتلأ بالفتوحات والانتصارات ولكن يعاب على أمرائهم تأخير الصلاة .وكان أوائل خلفاء بنى العباس أفضل ممن سبقهم من بنى أمية لقيام الصلاة فى أوقاتها .

وفى عصر المأمون (٢١٥هـ) ترجمت الكتب اليونانية وكان ذلك على حساب العقيدة . فعندما تدخلت المفاهيم الفلسفية اليونانية انحرفت العقيدة . وزادها انحرافا غلو التشيع ثم التصوف بمذاهبة المتطرفة كالحلول ووحدة الوجود ، واختلط علم الكلام لدى المعتزلة بمصطلحات الفلسفة اليونانية .

رويدا رويدا ضعفت الذاتية الإسلامية الأصلية - المتضمنة للعقيدة والأعمال - لدى الكثيرين ، وحلت محلها أفكار فلسفية أجنبية ، أو مذاهب كلامية متطرفة ، فضعفت من أثر العقيدة فى النفوس ، وحولت المسلمين إلى غير أهداف الأجيال الأولى ، ونزعت من القلوب الخوف والرجاء والمحبة لله تعالى بأسمائه وصفاته الحسنى التى كان الأوائل يندفعون بها فى ميادين الحياة والجهاد وتعمير الأراضى والسعى فيها ، تحولت إلى مناقشات وجدال ، فخمدت الجذور المشتعلة وتحولت أحيانا إلى ما يشبه الرماد ، فظهر الضعف وتغلب الأعداء !! .

والآن ، نحاول الإجابة على السؤال التالى :
كيف حدث ذلك ؟

استحداث الكلام فى أصول الدين ونشأة الفرق

مر بنا الحديث عن عصر النبى ﷺ والصحابة رضى الله عنهم حيث إكتملت دائرة الدين بنص الاية الكريمة ، وكانوا على دراية عميقة بالعقيدة الإسلامية وأصولها ، كما كانوا على قلب رجل واحد فى فهمها وتطبيقها .

وفى أعقاب الأحداث الجسام ، وعندما بعد الزمان وإنقضت الأعوام ، ظهرت الفرق والمذاهب الكلامية ، كل منها يبتدع عقائد وأقوالا لم يقل بها الأوائل ، حيث إعتمدوا على ارائهم ثم جعلوا الأدلة الشرعية منظورا فيها من وراء ذلك ، لهذا (سمى أهل البدع أهل الأهواء لأنهم اتبعوا أهواءهم[٥٠] .

ويصفهم الشاطبى بأن أكثر هؤلاء أهل التحسين والتقبيح ومن مال إلى الفلاسفة وغيرهم ، ويلحق بهم أيضا من يخشى السلاطين لينال ما عندهم أو

---

(٥٠) الشاطبى : الاعتصام ج٢ ص١٠٢ - تحقيق رشيد رضا - دار التحرير سنة ١٩٧٠م .

طلبا للرياسة (فلا بد أن يميل مع الناس بهواهم ويتأول عليهم فيما أرادوا[٥١] .

كذلك يعلل حدوث البدع بسبب الجهل باللغة العربية حينئذ فقد فهم أهل البدع من المتكلمين كتاب الله تعالى على غير وجهه[٥٢] . وإستند الشاطبى إلى اثار كثيرة أوردها بكتابه (الاعتصام) عند حذيفة من تخريج ابن وضاح ، حيث خرج عن ابن وهب أنه قال (ليس عام إلا والذى بعده شرّ منه. لا أقول: عام أمطر من عام ، ولا عام أخصب من عام ، ولا أمير خير من أمير ، ولكن ذهاب علمائكم وخياركم ثم يحدث قوم يقيسون الأمور بآرائهم فيهدم الإسلام ويثلم[٥٣] .

وسيأتى الحديث بمشيئة الله تعالى فى المبحث الثانى من هذا الكتاب عن اراء الفرق ومناقشتها تفصيلا ، ولكننا فى مجال التاريخ العام نثبت ها هنا كيف تدرجت البدع ثم تشعبت وتنوعت حيث أرجعها بعض علمائنا فى الأصل إلى أربعة فقالوا (أصول البدع أربعة ، وسائر الثنتين والسبعين فرقة عن هؤلاء تفرقوا ، وهم : الخوارج ، والروافض (أى الشيعة) ، والقدرية والمرجئة) .

وربما كان تأصيل البدع فى هذه البفرق وحدها يرجع إلى أنها كانت بدايات للانحراف عن عقيدة الأوائل ، فنحن نعلم ما أحدثه الخوارج من إنشقاقات فى الصف الإسلامى فضلا عن (تكفيرهم) لمرتكبى الكبائر ، وظهر التشيع فى بدايته علامة على سب الصحابة رضى الله عنهم بإستثناء على بن أبى طالب رضى الله عنه فكان بعد ذلك فاتحة للطعن فى الإسلام بواسطة الطعن فى أشخاصهم ، وكانت القدرية علامة على انكار نص من نصوص الدين – أى

(٥١ نفسه ص ١٠٣ .
(٥٢) نفسه ص ١٠٢ .
(٥٣) الاعتصام ج١ ص٥٣ .

الإيمان بالقدر خيره وشره ، وأصبح الارجاء بابا للاستهانة بالعمل وتشجيعا للاستهتار بتعاليم الإسلام .

وعلى أية حال فإن تبويب « الكلام » وتفريعه وتنظيره نسب إلى المعتزلة لأنهم أول من فعل ذلك . ففى زمن عمرو بن عبيد تكلموافى الوعيد وإنكار القدر ، وبعده جاء أبو الهذيل العلاف والنظام وأشباههم من أهل الكلام فنفوا الصفات الإلهية[٥٤] .

وكانت حجتهم الدفاع عن الإسلام ضد أعدائه ، إلا أنهم لم يستخدموا أدلة الشرع بل إستخدموا أدلة ظنوا أنها عقلية فأساؤا أكثر مما أحسنوا وأصبحوا (كمن أراد أن يغزو العدو بغير طريق شرعى ، فلا فتح بلادهم ولا حفظ بلاده بل سلطهم حتى صاروا يحاربونه بعد أن كانوا عاجزين عنه[٥٥]) .

لهذا إعتبر بدعهم علماء السلف وبدعوا طريقتهم وقام أهل السنة فى الوجه للمعتزلة وعارضوهم .

يقول ابن تيمية :

(ولهذا ذم السلف والأئمة أهل الكلام المحدث المخالف للكتاب والسنة ، إذ كان فيه من الباطل فى الأدلة والأحكام ما أوجب تكذيب بعض ما أخبر به الرسول ﷺ ، وتسلط العدو على أهل الإسلام[٥٦]) .

والنظرة المقارنة أيضا تعطينا صورة دقيقة عن التغير الحادث بعد عصر الصحابة والتابعين من حيث المنهج ومن حيث القضايا التى كانت يهتم بها أهل القرون الأولى بالمقارنة بالعصور التى تلتهم . يقول ابن قتيبة :

---

(٥٤) ورأسهم الجعد بن درهم ، عداده فى التابعين مبتدع ضال ، زعم أن الله تعالى لم يتخذ إبراهيم خليلا ولم يكلم موسى ، فقتل على ذلك بالعراق ، الذهبى : ميزان الاعتدال ج١ ص١٨٥ .

(٥٥) ابن تيمية : شرح العقيدة الأصفهانية ص٥٧/٦٣ .

(٥٦) نفسه ص ٦٣ .

(وكان المتناظرون فيما مضى يتناظرونفى معادلة الصبر بالشكر ، وفى تفضيل أحدهما على الاخر ، وفى الوساوس والخطرات ، ومجاهدة النفس ، وقمع الهوى ، فقد صار المتناظرون يتناظرون فى الاستطاعة والتولد والطفرة والجزء والعرض والجوهر[٥٧]) ويقصد بذلك الاصطلاحات التى ابتدعها المعتزلة فى كلامهم واستعاروها من الفلسفة اليونانية .

وقد لخص ابن خلدون تاريخ ذلك إجمالا فبين العقائد التى تقررت فى الدين إذ قال الرسول ﷺ حين سئل عن الإيمان فقال : أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الاخر وتؤمن بالقدر خيره وشره (وهذه هى العقيدة المقررة فى علم الكلام) .

وبعد شرح وتحليل لأمهات العقائد الإيمانية أوضح ابن خلدون أن هذه العقائد معللة بأدلتها العقلية وأدلتها من الكتاب والسنة .

ومن هذا التقرير يتبين أن أدلة الكتاب والسنة تستند إلى أدلة عقلية ، (وعن تلك الأدلة أخذها السلف وأرشد إليها العلماء وحققها الأئمة) .

وفى عبارة الأخيرة اشارة إلى إكتفاء الأوائل بهذا المنهج القويم ، واستمر الحال كذلك إلى أن عرض خلاف فى تفاصيل هذه العقائد (أكثر مثارها من الآى المتشابهة فدعا ذلك إلى الخصام والتناظر والاستدلال بالعقل وزيادة إلى النقل) ونجم عنه (حدوث) علم الكلام ، أى أنه يعلل حدوثه بالاختلاف حول الآيات المتشابهة .

ويصف بعد ذلك بدع المجسمة والمشبهة والمعتزلة إلى أن يصل سبب تسمية مسائله بعلم الكلام فيقول (وسموا مجموعة علم الكلام ، إما لما فيه من المناظرة

(٥٧) ابن قتيبة : الاختلاف فى اللفظ والرد على الجهمية والمشبهة (كتاب عقائد السلف) تحقيق د. النشار ود. الطالبى ص٢٢٤ – منشأة المعارف بالاسكندرية سنة ١٩٧١م .

على البدع وهى كلام صرف وليست براجعة إلى عمل ، وإما لأن سبب وضعه والخوض فيه هو تنازعهم فى إثبات الكلام النفسى[٥٨] وتمييزا له عن (الفقه) أن الفقه عمل ، لأنه مجموعة العبادات تبدأ بالطهارة ثم تنتهى بالموت ، والإيمان لابد له من عمل[٥٩] .

ومن أجمل كلمات ابن خلدون التى يصف بها عجز العقل عن الاحاطة بالمخلوقات قوله (لأن إدراكاتنا مخلوقة محدثة وخلق الله أكبر من خلق الناس ، والحصر مجهول والوجود أوسع نطاقا من ذلك والله من ورائهم محيط) ويتبع ذلك توجيه القارئ إلى المنهج السليم النافع الذى يعود عليه بالفائدة ونبذ المنهج السقيم غير النافع ، فيقول :

(فاتّهم إدراكك ومدركاتك فى الحصر واتبع ما أمرك الشارع به من اعتقادك وعملك فهو أحرص على سعادتك وأعلم بما ينفعك لأنه من طور فوق إدراكك ومن نطاق أوسع من نطاق عقلك ..)[٦٠] .

بعد ذلك علينا التعريف بعلم الكلام وموقف علماء المسلمين منه سواء المدافعين عنه أم الناقدين له :

التعريف بعلم الكلام وأهم موضوعاته :

يعرف ابن خلدون علم الكلام بقوله : (علم يتضمن الحجاج عن العقائد الإيمانية بالأدلة العقلية ، والرد على المبتدعة فى الاعتقادات عن مذاهب السلف وأهل السنة) .

---

(٥٨) المقدمة ص ٤٦٥ ط التجارية .

(٥٩) المقدمة ص ٤٦١ .

(٦٠) المقدمة ص ٤٦٠ .

ومع أنه أجاز الدفاع عن العقائد الإيمانية بواسطة الأدلة العقلية إلا أنه عاد فأوضح أن المسائل الغيبية إنما هى لا تقع فى حيز الامكانيات التى يستطيع العقل وحده الاهتداء إليها لأنها فوق طور العقل . وتحدث أيضا عن الملكة الإيمانية الراسخة فى النفس من أثر أداء العبادات فيقول :

(فقد يتبين لك من جميع ما قررنا أن المطلوب فى التكاليف كلها حصول ملكة راسخة فى النفس يحصل عنها علم إضطرارى هو التوحيد وهو العقيدة الإيمانية وهو الذى يحصل بها السعادة) .

ثم أخذ يحدد معالم الفكر والنطاق الذى يدور فيه ويصف الحدود الضيقة التى لايستطيع أن يتجاوزها وأن الفكر عاجز عن الاحاطة بتفصيل الوجود كله - أى الوجود (عند كل مدرك فى بادئ رأيه منحصر فى مداركه لايعدوها فالأمر نفسه بخلاف ذلك) . وأن الأمثال التى يسوقها مؤرخنا تدعم هذا الرأى ، فالأصم ينحصر الوجود عنده فى المحسوسات الأربع ويفقد صنف المسموعات ويسقط عند الأعمى صنف المرئيات .

إن هذا يثبت عجز الادراك الإنسانى عن الاحاطة بما فى الوجود كله ، فما بالنا بخالق هذا الكون سبحانه وتعالى ؟ولكن لايعنى هذا القدح فى العقل بل العقل ميزان صحيح لأن أحكامه يقينية - ولكن بسبب ما بيناه من عجزه عن الاحاطة بالوجود - لأنه أوسع نطاقا من المدارك الإنسانية أى أن العقل لا يستطيع أن يزن به أمور التوحيد والاخرة وحقيقة النبوة وحقائق الصفات الإلهية[٦١] . وربما كان المثال الذى ضربه لنا ابن خلدون فى هذا الصدد يعد أقوى دليل فيما يقدمه من رأى دقيق لاثبات عجز العقل عن إدراك ما وراء طوره فى المسائل الغيبية إذ يقول : (وليس ذلك بقادح فى العقل ومداركه

---

(٦١) مقدمة ابن خلدون ص ٣٨٢ - دار الفكر ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م .

بل العقل ميزان صحيح فأحكامه يقينيةلا كذب فيها غير أنك لا تطمع أن تزن به أمور التوحيد والاخرة وحقيقة النبوة وحقائق الصفات الإلهية وكل ما وراء طوره فإن ذلك طمع فى محال ، ومثال ذلك رجل رأى الميزان الذى يوزن به الذهب فطمع أن يزن به الجبال ، وهذا لا يدرك على أن الميزان فى أحكامه غير صادق ، ولكن العقل قد يقف عنده ولا يتعدى طوره حتى يكون له أن يحيط بالله وبصفاته فأنه ذرة من ذرات الوجود الحاصل منه ، وتفطن فى هذا الغلط من يقدم العقل على السمع فى أمثال هذه القضايا وقصور فهمه واضمحلال رأيه ، فقد تبين لك الحق من ذلك[٦٢] .

وقد أشار ابن خلدون فى تعريفه إلى أهم النقاط المثيرة للخلاف بين علماء الكلام فى دائرتى المعتزلة والأشاعرة ، وبين علماء الحديث والسنة مما جعلنا نرجع أن وراء هذه الأسطر قراءات متشعبة ومستوعبة لقضايا أصول الدين ووجهات النظر المتباينة حولها .

ويتضح أيضا أنه أعطى الجانب النقدى اهتمامه أيضا .

لذلك لا ينبغى أن ننسى جبهة عريضة وقفت تعارض علم الكلام فى دائرة السلف من علماء الحديث على مر العصور وتعده من قبيل البدع الطارئة على الفكر الإسلامى ، وأنه أدى إلى الاضطرابات والفتن ، وفتت جهود المسلمين وأجهد عقولهم فى مجال كفاه القران والسنة ، وحتى أمام وجهة النظر المدافعة عن المتكلمين بأنهم دافعوا عن الإسلام فإن الرأى المعارض – الذى يمثله ابن تيمية والجامع للاتجاه السلفى قبله – على العكس – يرى أنهم أخفقوا فى هذه المهمة لأنهم لم يستندوا فى أصولهم على المبادئ الاستدلالية القرانية (فالمتكلمون الذين ابتدعوا وزعموا أنهم به نصروا الإسلام وردوا به على أعدائه كالفلاسفة لا الإسلام نصروا ولا لعدوه كسروا ، بل كان ما ابتدعوه ما أفسدوا به حقيقة

(٦٢) المقدمة ص ٣٨٤ .

الإسلام على من اتبعهم[٦٣] . ومضى يذكر أسباب ذلك ودوافعه مما لا يدخل فى نطاق موضوعنا الان ، وسنفصله عند الحديث عن ارائه الكلامية . ونقتصر هنا على بيانه لخطأ المتكلمين المنهجى – وهو يعبر لنا عن الاتجاه السلفى العام ، إذ يستند إلى ضرورة علم ما أنزل الله على رسوله ﷺ من الكتاب والحكمة كما فعل الصحابة والتابعون ومن سلك سبيلهم لا سيما فى أصول التوحيد والإيمان – ثم بعد معرفة ما بينه الرسول ينظر فى أقوال المفكرين وما أرادوه بها فتعرض على الكتاب والسنة . مع العلم بأن العقل الصريح دائما موافق للرسول ﷺ لا يخالفه قط . فإن الميزان مع الكتاب ﴿ **الله أنزل الكتاب بالحق والميزان** ﴾ ، ولكن قد تقصر عقول الناس عن معرفة تفصيل ما جاء به ، فيأتيهم الرسول بما عجزوا عن معرفته وحاروا فيه ، لا بما يعلمون بعقولهم بطلانه ، فالرسل صلوات الله وسلامه عليهم تخبر بمحارات العقول لا بمحالات العقول . وإذا كان هذا هو المنهج الصحيح فإن المناهج المخالفة على العكس من ذلك ، فأنها ناجمة عن إبتداع بدعة برأى البعض وتأويلاتهم ، ثم جعل ما جاء به الرسول تبعا لها . فيحرف ألفاظه ويؤولها على وفق ما أصلوه[٦٤] .

---

(٦٣) ابن تيمية : شرح حديث النزول ص ١٦٣ .

(٦٤) ابن تيمية : مجموع فتاوى شيخ الإسلام ج١٧ ص٤٤٣/٤٤٤ .

أهم موضوعات علم الكلام[٦٥] :

تدور المناقشات فى أصول الدين التى يتكلم المتكلمون فيها ويتناظرون عليها ، حول المسائل الآتية :

أولا : الرد على الدهرية القائلين بقدم العالم فأخذ المتكلمون يبرهنون على حدوث الأجسام والدلالة على أن للعالم محدثا هو الله تعالى .

ثانيا : تنزيه الله عز وجل . للرد على أهل الكتاب من اليهود والنصارى ودحض مزاعم القائلين بكثرة الصانعين كالمجوس ، فقد شبه اليهود الله سبحانه وتعالى بصفات المخلوقين وادعى النصارى القول بالتثليث . وقال المجوس بإله النور وإله الظلمة .

ثالثا : إثبات أن الله تعالى عالم قادر حى قيوم . وأنه واحد ، للرد على النافين للصفات .

رابعا : الكلام فى رؤية الله عز وجل فى الجنة ، وإثباتها أو نفيها ، وأن كلام الله فى القران الكريم مخلوق أو غير مخلوق .

خامسا : البحث فى أفعال العباد وهل هى مخلوقة يحدثها الله تبارك وتعالى أو العباد وإذا كانت الاستطاعة قبل الفعل أو معه .

---

(٦٥) ويسمى أصول الدين أو علم الكلام أو الفقه الأكبر ، تمييزا له عن علم الفروع وعلم الفقه والشريعة .

ومن الناس من يجعل أصول الدين اسما لكل من اتفقت فيه الشرائع بما لا ينسخ ولا يغير سواء كان علميا أو عمليا سواء كان من القسم الأول أو الآخر حتى يجعل عبادة الله ومحبته وخشيته ونحو ذلك من أصول الدين وقد يجعل بعض الأمور الاعتقادية الخبرية من فروعه ويجعل اسم الشريعة ينتظم العقائد والأعمال ...

(ابن تيمية : قاعدة فى توحيد الله ، وتعدد الشرائع وتنوعها ص ١٨٤ ، بكتاب من هدى المدرسة السلفية – إعداد وتقديم عبد الله حجاج ١٣٩٩هـ – ١٩٧٩م .

سادسا : الحكم على من مات مرتكبا الكبائر ، فهل يخلد فى النار أو يجوز أن يرحمه الله تعالى ويتجاوز عنه ويدخله الجنة ؟

سابعا : الدلالة على النبوة بعامة ، ردا على البراهمة وغيرهم من مبطلى النبوة ، والدلالة على نبوة محمد ﷺ بخاصة .

ثامنا : القول فى الامامة – أو الخلافة – ومن يصلح لها ومن تصلح له وهل هى قضية مصلحية تتم بأهل الحل والعقد فى الأمة أم أنها تتم بالنص[٦٦] ؟ .

ولكن فى العصر الحاضر ، أى عقب إلغاء الخلافة الإسلامية فى دورها الأخير (الخلافة العثمانية) تفتقت المسألة فى أبحاث علماء الإسلام فى إطار آخر لم يتطرق إليه علماء السلف من قبل ، بل ربما لم يخطر ببالهم أنه سيحدث !! ذلك لأن الخلافة الإسلامية ظلت مصاحبة لتاريخ الإسلام وأمته منذ وفاة النبى ﷺ حيث تولى (الخلافة) أبو بكر الصديق ، ولم يكن يخطر على بال أحد أنه سيأتى وقت تلغى فيه هذه الخلافة وتتحول الأمة الواحدة إلى دول ودويلات متغيرة متفرقة على أيدى الاستعمار الغربى .

ومن هنا – وعقب إلغاء الخلافة – صيغت هذه المسألة فة الفقه السياسى الإسلامى تحت عنوان (عدم الفصل بين السياسة والدين) .

وربما أول من نبه إلى ذلك الشيخ مصطفى صبرى آخر شيوخ الإسلام الخلافة العثمانية – حيث قرر أن مسألة فصل الدين عن السياسة ترجع إلى مسألة (وجوب نصب الامام) المعدودة من المسائل الكلامية . ومؤدى رأيه يعنى أن وجوب الامامة فى اصطلاح علماء الإسلام يعنى مباشرة وتلقائيا أنه

---

(٦٦) الخوارزمى : مفاتيح العلوم ط المنيرية ص١٧ – ١٨ سنة ١٣٤٢هـ .

يلزم تحكيم شرع الله تعالى ولهذا أوجبوا نصب الامام أو الخليفة المسئول عن ذلك[٦٧] .

هذه هى المسائل المثارة فى المدارس الكلامية ، ويظهر من مصطلحاتها أنها ترتبط بمراحل تاريخية للمسلمين من أهم سماتها أنهم كانوا فيها أصحاب الحضارة السائدة فى عالمهم .

والآن جدت مشكلات أخرى ، فأصبح من الضرورى أن يجابهها الفكر الإسلامى بطرق ملائمة لثقافة العصر وحضارته . فإذا صورنا العالم الإسلامى أيام الاشتباك العقلى مع خصوم الإسلام ، فإنه من الواضح أنه كان مهاجما ، يملك فى يديه العناصر الحضارية الاسمى ، ثم أنحسرت موجة الحضارة وانقلب العالم الإسلامى مدافعا بعد أن كان ممسكا بزمام الأمور مرهوب الجانب مسموع الكلمة[٦٨] .

والنظرة العامه لتاريخنا المعاصر تجعلنا ندرك صحة ما نذهب إليه ، فقد إتخذ الغرب موقف المهاجم منذ شن نابليون هجومه على الشرق الذى بدأ فى التمزق حيئذ بالغا الذروة فى الحرب العالمية الأولى حيث انهار النظام الذى كان قائما فى ظل الخلافة العثمانية .

وتجددت المشاكل أمام الفكر الإسلامى الذى أخذ يجابهها بأساليب جديدة نتيجة من ناحية لمقاومة الاستعمار ومقاومة المذاهب والبحوث الفكرية التى

---

(٦٧) ينظر مقدمتنا لكتاب الشيخ مصطفى صبرى (النكير على منكرى النعمة من الدين والخلافة والأمة) وقد اخترنا له عنوانا آخر أيضا باسم (الأسرار الخفية وراء إلغاء الخلافة العثمانية) من مطبوعات دار الدعوة - الاسكندرية .

(٦٨) باول شمتز : الإسلام قوة الغد العالمية ترجمة الدكتور محمد شامة ص ٦٤ - مكتبة وهبة بالقاهرة .

خلفها بمعاونته فى تمكين سلطته فى رقعة البلاد الإسلامية[٦٩] . ومن ناحية أخرى أصبح من واجب العلماء التعريف بالإسلام بصورته الشاملة كدين وحضارة وبعث النشاط فى قيمه العليا – سواء فى حقائقها الميتافيزيقية أو أنظمتها التشريعية والاجتماعية والسياسية – أو فى قيمها الإنسانية الأخلاقية فى هذا العصر المصطبغ بالتقدم العلمى المادى ، الذى عزل الإنسان عن القيم الروحية التى غذته بها الأديان .

ومهما بلغت العلوم فى تقدمها وإزدهارها ، فليس لها أن تعترض طريق الدين . وقد أصبح هذا الاستدلال فى غاية القوة حيث أن العلماء إعترفوا فى هذا القرن بأن العلوم المادية لا تعطى إلا علما جزئيا عن الحقائق ومن جانب آخر اضطر العلماء إلى الانحناء والخضوع أمام الاء الله عز وجل ، والاقرار بأن الزهو بالعلم والاكتشافات العلمية كان تعبيرا عن قصور فى إدراك الإنسان لمدى قدرته إزاء سنة الله الكونية ثم أظهرت الاكتشافات أن الإنسان لا يستطيع إكتشاف قوانين حياته بنفسه ، وأن الأشياء التى لا نطلع عليها هى أهم بكثير من التى نطلع عليها ، وإقرارا لهذا الواقع إشترك نحو مائة وخمسون من كبار علماء العالم فى نشر معجم بعنوان (دائرة معارف الجهل) موضحين[٧٠] الكثير من الظواهر والحقائق الإنسانية والكونية التى لا تزال بدون تفسير . كذلك مما يقرب عالم الغيب للأذهان الذى يشمل أصول الدين أغلب قضاياه محاولات العلماء معرفة عالم الأفلاك حولنا وهو مادى منظور ولكن أبعاده وحركاته وسرعاته وأعداده كلها تحير العقل وتذهله وتعجزه عن التصور الحقيقى – لأن هذا العالم أعظم وأضخم من القوة المتخيلة للأذهان فالإنسان

---

(٦٩) د. محمد البهى : الفكر الإسلامى فى تطوره – دار الفكر سنة ١٩٧١م .

(٧٠) وحيد الدين خان : الإسلام يتحدى (مدخل علمى إلى الإيمان) تعريب ظفر الإسلام خان مراجعة وتحقيق د. عبد الصبور شاهين – دار البحوث العلمية – ١٣٩٣هـ – ١٩٧٣م .

الذى يدرس الكون (مضطر لتغيير قيمه ومقاييسه إلى هذه الحجوم والكتل الهائلة التى لا يجد لها تشبيها معقولا يساعده على تصورها وفهمها[٧١] .

حجج المتكلمين فى الدفاع عن منهجهم :

يستند علماء الكلام فى الدفاع عن منهجهم إلى الحجج الآتية :

الأولى : أن ظهور علم الكلام فى زمن أتباع التابعين استتبعه استحسان وتم تدوينه بالكتب ، فيعد من هذا الوجه من قبيل البدعة الحسنة ، به إنزاحت الشبه عن قلوب أهل الزيغ وثبت قدم اليقين للموحدين .

الثانية : أن أدلة العقول لازمة لبيان صحة أصول الدين وحقائقها ، لأن المناهج الصحيحة فى معرفة حق الكتاب وصدق الرسول ﷺ مستند من البراهين العقلية .

الثالثة : إذا جعل أصل الدين الاتباع – لا العقل – فإن ذلك مخالفة للكتاب لأنَّ الله تعالى ذم التقليد فى القران ، وندب الناس إلى النظر والاستدلال امرا بمجادلة المشركين بالدلائل العقلية ومن تدبر القرآن ونظر فى معانيه وجد تصديق هذا الأصل[٧٢] .

الرابعة : يروى القاضى عبد الجبار (٤١٥هـ) أنه لما منع الرشيد من الجدال فى الدين وحبس أهل الكلام ، كتب إليه ملك السند يطلب من يناظره ، فوجه إليه الرشيد قاضيا لم يحسن الجدل ، فإضطر إلى البحث عمن يناضل عن الدين ، وأخرج أهل الكلام من السجن ووقع إختياره على أحدهم فبعثه للمناظرة .

---

(٧١) زهير الكرمى : مقدمة كتاب (الكون والثقوب السوداء)ص١٣ سلسلة كتب (عالم المعرفة) بالكويت .

(٧٢) السّيوطى ; صون المنطق ص١٥٧ .

وتروى القصة بوقائع أخرى ، تتلخص فى إجتماع الرشيد برجلين من المتكلمين فتكلما فى مسألة فقال لبعض الفقهاء - احكم بيننا فقال هذا أمر لا يعنينى فأمر له بصلة وقال هذا جزاء من لا يشتغل بما لا يعنيه ، أما الرواية الثالثة ، فتشير إلى أمره بقتل رجلين تكلما أمامه فى مسألة غامضة فأمر بقتلهما لأنهما زنديقان .

ولكن المؤيدين لعلم الكلام يستخلصون منها جميعا عجز أهل الحديث عن النضال عن الدين لمغايرة منهجهم عن طريقة المتكلمين المستندة إلى العقل .

رأى علماء السلف فى الحجج والاعتراض عليها :

يرى المعارضون - أن الاختلاف ينبغى أن يفصل بين النظر الشرعى والكلام المبتدع ويظهر الاختلاف بينهم منهجيا قبل أى شئ اخر ، إذ يرى أهل الحديث أن العقل لا يوجب شيئا فلا دور له ولاحظ فى تحليل أو تحريم أو تحسين أو تقبيح ما لم يرد به الوحى مستدلين على ذلك بقول الله : ﴿ **وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا** ﴾ ١٧ الاسراء . وقوله عز وجل ﴿ **رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل** ﴾ النساء ١٦٥ . وقال تعالى حاكيا عن الملائكة فيما خاطبوا به أهل النار ﴿ **ألم يأتكم رسل منكم يتلون عليكم آيات ربكم وينذرونكم لقاء يومكم هذا قالوا بلى** ﴾ الزمر ٧١ فيتبين من هذه الآية أنه عز وجل أقام عليهم الحجة ببعث الرسل ، فلو كانت الحجة لازمة بنفس العقل لم يكن بعثة الرسل شرطا لوجوب العقوبة ، وإذا تأسس الإيمان عن الفعل لأدى ذلك إلى إنكار دور الرسل وكأن وجودهم وعدمه بمنزلة واحدة ، أو كأنهم اقتصروا فى دعوتهم على الشرائع وفروع العبادات دون أصول الدين .

وهنا يظهر صورة مختصرة للاعتراض فى صيغة تهكم ، فيرى أحدهم (أنه لو قال لا إله إلا الله عقلى رسول الله لم يكن مستكفرا عند المتكلمين من جهة المعنى ، فظهر فساد قول من سلك هذا[٧٣] . وأيضا ففى الدين معقول وغير معقول والاتباع فى جميعه واجب ، وأن الله تعالى هو الذى يعرف العبد ذاته فقد ثبت أن النبى ﷺ قال (والله لولا الله ما إهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا) فدل على أن الله تعالى يعرف العبد مع وجود العقل سبب الادراك والحجة لقوله عز وجل ﴿ **إن فى ذلك لايات لقوم يعقلون** ﴾ النحل ٦٧ ، وقال ﴿ **إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب** ﴾ ق ٥٠ وقال تعالى مخبرا عن أصحاب النار ﴿ **وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا فى أصحاب السعير** ﴾ الملك ١٠ ، فالعقل اله لإقامة العبودية لادراك الربوبية ، فهو اله التمييز بين القبيح والحسن ، السنة والبدعة والرياء والاخلاص ، ولولاه لم يكن تكليف ولا توجه أمر ولا نهى[٧٤] . وقديما عبر الجنيد عن عجز العقل عن إدراك الربوبية وعاب على المتكلمين منهجهم بقوله نفى العيب حيث يستحيل العيب ، عيب[٧٥] . ولاينكر علماء الحديث النظر لزيادة البحث ، وإنما أنكروا طريقة أهل الكلام إذ أسسوا طريقتهم على وجوب النظر أولا المؤدى إلى معرفة البارى عز وجل ، بينما ينبت أتباع هذه الطريقة عن النبى ﷺ وصحابته والتابعين بعده[٧٦] . وقد علمنا من سيرته أنه لم يدع أحدا إلى الاستدلال بالاعراض والجواهر وحدوث الأجسام كما يفعل أهل الكلام[٧٧] بل أن دراسة منهج الأنبياء والرسل يجعلنا ندرك أنهم لم يشتغلوا بالنظر وتلقين .

---

(٧٣) القاضى عبد الجبار : فرق وطبقات المعتزلة ص٦١ - ٦٤ .

(٧٤) السيوطى : صون المنطق ص١٨٠ .

(٧٥) السيوطى : صون المنطق ص١٧٠ .

(٧٦) ابن خلدون : المقدمة .

(٧٧) ابن الوزير اليمانى : البرهان القاطع ص٥٥ .

أتباعهم والمصدقين بهم الأدلة التى هى أصول الإسلام ، لكنهم حرصوا على تعليم الشرائع والاداب . وينبغى التمييز بين لفظى التقليد والاتباع ، فالتقليد هو فى قول الغير بلا حجة ، أما الاتباع فانه السير على منهاج رسول الله ﷺ بعد قيام الأدلة : على نبوته ، المنقولة إلينا بواسطة أهل الاتقان والثقات من إلى ما لا يعد كثرة من المعجزات والبراهين والدلالات ، وأهملوا تعليمهم الدلائل وتعليمهم كيفية حل الشبه ، ولو فعلوا لنقل إلينا تصانيفهم كما نقل إلينا كتب الفلاسفة والمتكلمين من علماء المسلمين ، ويذهب ابن الوزير اليمانى إلى أبعد من هذا فيرى أنه لم ينقل أن اثنين اختلفا فى شئ قط ، ولا كذب أحدهما الاخر ولا غلطه ولا خطأه ، ولو كانوا اكتسبوا ذلك بالنظر لقضت العادة باختلافهم كما اشتد الاختلاف بين الفلاسفة والمتكلمين ، فإن كثيرا منهم قد تفردوا بمقالات حتى قيل اجتماع العلماء فى النظريات محال ويضيف إلى ذلك دليلا اخر ، هو انقطاع الأذكياء فى تحصيل علم الكلام ، دقيقه وجليله ، مستفيدا بما انتهى إليه الرازى معترفا بالقصور عن بلوغ غايته ومنتهاه ، فقرر فى وصيته التى مات عليها (ولقد اجتزت الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية فما رأيت فيها فائدة تساوى الفائدة التى وجدتها فى القران العظيم) . ويورد القصة التى شنع بها أهل الكلام على المحدثين من ارسال ملك الروم إلى هارون الرشيد وطلب « المناظرة » وعجز المحدث عنها وسخرية أولئك الفلاسفة ، فقد كثر الكلام فى التبجح بذلك ، وبحكاية أخرى تشبهها . والجواب عليهم فى ذلك أنهم أرادوا الاستدلال على أنهم أجدل من المحدثين فذلك مسلم لهم أنهم أجدل من رسول الله ﷺ ، لأن الكل يعلم أنه لم يصدر شئ من الكلام ومجادلة الفلاسفة من رسول الله ﷺ ولا من جميع الصحابة رضى الله عنهم ولا اشتغلوا بممارستهم لما رواه أهل اللجاج ، ولا يلزم من ذلك أنهم أقل معرفة بالله ولا أقل نصرة لدين الله ، ولو أحبوا الخوض فى علم الكلام واشتغلوا بتعلمه وتعليمه لبلغوا فيه ما أرادوا وعرفوا ما عرف المتكلمون وزادوا ، ولكنهم

أعرضوا اعراض مستغن عنه – وإستقراء السير والأخبار تدلنا على أنهم لم يتبعوا هذاالأسلوب فى الدعوة ، فها هى قصة جعفر بن أبى طالب ومهاجرو الحبشة مع النجاشى وما راجعه به خطيبهم جعفر حين قيل للنجاشى أنهم يقولون فى عيسى عليه السلام قولا عظيما ، فلما سألهم النجاشى عن ذلك أجابوا بكلام الله تعالى واحتجوا به على صحة عقيدتهم وتلا جعفر على النجاشى صدر سورة مريم حتى بكى النجاشى وأصحابه وكان ذلك سبب اسلامه ، كما أرسل صلوات الله عليه إلى هرقل من كان على صفة المحدث الذى أرسله هارون وهو دحية بن خليفة الكلبى ولم يعلمه ما يجيب به عليهم أن أوردوا عليه ما يدق من شبههم وهم أهل المنطق وسائر الدقائق النظرية ، كما بعث إلى النجاشى صاحب الحبشة ، وإلى المقوقس صاحب الاسكندرية وبعث أبا عبيدة إلى البحرين يعلنهم الإسلام ، وبعث عليا ومعاذا وأبا موسى إلى اليمن ، وبعث سائر الملوك للدعاه إلى الإسلام لم يضمّنها شيئا من ذلك مثل كتابته إلى هرقل وإلى كسرى . وخلا المنهاج الذى اتبعه الرسول – كما أمره الله عز وجل – هو الاقتصار على مجرد الدعوة إلى الإسلام والاتكال فى إيضاح الحجة على ما قد فعله الله تعالى لهم من إظهار المعانى وتقديم البيانات والواضحة للعقول ، إذ قال الله عز وجل تسلية لرسول الله ﷺ وبيانا لحد ما يجب عليه ﴿ **فإن تولوا فإنما عليك البلاغ والله بصير بالعباد** ﴾ أى فى الذى بواطنهم وما أقام عليهم من الحجة ، إذ لا مطمع فى هداية المرء والجدل والحجة وكيف يطمع فيهم وقد حكى الله تعالى عنهم أنهم جادلوه يوم القيامة وأنكروا ما صنعوا معاصيه سبحانه وتعالى حتى شهدت عليه أيديهم وأرجلهم فقالوا لأعضائهم لم شهدتم علينا[٧٨] ؟ .

وإن قيل إن الله تعالى قد أمر رسول ﷺ بالجدل فى قوله تعالى ﴿ **وجادلهم بالتى هى أحسن** ﴾ فالجواب من وجهين : **أحدهما** ، أن الله تعالى بين ذلك

(٧٨) ابن الوزير اليمانى : الذب عن سنة أبى القاسم صلوات الله عليه ج٢ ص١٣١ .

بالتى هى أحسن ولم يأمره بمطلق الجدال ، فامتثل ما أمره ومع ذلك فلم ينقل عنه أنه جادل بأساليب المتكلمين والجدليين فثبت أن التى هى أحسن ليست سبيل المتكلمين مثل ما علم الله رسوله صلى الله عليه وسلم أن يحاجهم به فى قوله تعالى ﴿ **قل إنما أعظكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا ما بصاحبكم من جنة إن هو إلا نذير لكم بي يدى عذاب شديد قل ماسألتكم من أجر فهو لكم إن أجرى إلا على الله وهو على كل شئ شهيد** ﴾ وتنفيذه للأمر الالهى ﴿**وأنذر عشيرتك الأقربين** ﴾ فصعد على الصفا فجعل ينادى لبنى قريش حتى اجتمعوا فسألهم (أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلا بالوادى تريد أن تغير عليكم كنتم مصدق) ؟ قالوا (نعم ، ما جربنا عليك إلا صدقا) قال ﴿ **فإنى نذير لكم بين يدى عذاب شديد** ﴾ والأمثلة الأخرى كثيرة فى القران عن محاجة الأنبياء وجدالهم كما فى سورة هود ، ومحاجة ابراهيم لقومه ومحاجة يوسف لصاحب السجن .

الوجه الثانى – أن الله تعالى أجمل كيفية الجدال بالتى هى أحسن فى تلك الآيات وبينه فى غيرها بتعليمه فى القرآن العظيم لنبيه ﷺ فقال تعالى ﴿ **إن الدين عند الله الإسلام وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ماجاءهم العلم بغيا بينهم ومن يكفر بآيات الله فإن الله سريع الحساب[19] فإن حاجوك فقل أسلمت وجهى لله ومن اتبعن وقل للذين أوتوا الكتاب والأميين أأسلمتم فإن أسلموا فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما عليك البلاغ والله بصير بالعباد[20]** ﴾ فهذه الآية واضحة الدلالة على الأمر بالاقتصار على مجرد الدعوة إلى الإسلام والاتكال فى إيضال الحجة على ما قد فعله الله تعالى لهم من خلق العقول وبعثة الرسول صلى الله عليه وسلم وإنزال الآيات وإظهار المعجزات وتكثير مواد البينات (٧٩) وسنرى أيضا أن ابن تيمية فى معارضته لعلم الكلام

(٧٩) ابن الوزير اليمانى : الذب عن سنة أبى القاسم صلوات الله عليه وسلامه ج٢ ص١٣٨ ومابعدها – ١٤١ .

يوضح أن السلف الصالح لم يعارضوا جنس النظر والاستدلال ولكن المعارضة اتجهت إلى الأساليب الكلامية المستقاة من الفلسفة اليونانية وكان الأحرى الاحالة إلى الأدلة الشرعية وفى مقدمتها القرآن الحكيم لأنه اتجه فى خطابه للإنسان باستثارة قوانين العقل وبراهينه وتحريك وجدانه وإيقاظ قلبه من الغفلة .

المبحث الثانى

انحراف عقائد الفرق عن عقائد السلف

دراسة مقارنة :

* التحذير من الفرقة والاختلاف .
* السلف الصالح هم الأحكم والأعلم .
* الفرق : نشأتها وعقائدها .

(١) الخوارج

(٢) الشيعة

– موقف ابن تيمية من مسألة الامامة أو الخلافة عند الشيعة.

– السياسة الشرعية عند ابن تيمية .

(٣) المرجئة

(٤) القدرية (نفاة القدر)

(٥) الجهمية

(٦) المعتزلة

(٧) الأشاعرة

(٨) ابن تيمية والتصوف

* تفسير ابن تيمية للتاريخ .
* حاجتنا إلى معرفة العقيدة الإسلامية .



التحذير من الفرقة والاختلاف

تحدثنا فى المبحث السابق إجمالا عن أصول البدع الأربع : الخوارج والشيعة والقدرية والمرجئة ، وجاء دور النقد الذى وجهه علماء إلى هذه الفرق .

ولسنا نريد بطبيعة الحال إثارة الحديث عن (الفرق) و (الاختلاف) و (الانشقاق) ، ولكننا نريد التحذير من تكرار (البدع) فهى ليست موقوته بعصر دون اخر ، فإن الزمان – كما يقول الامام الشاطبى – باق ، والتكليف قائم والخطرات متوقعة . ويتساءل أيضا : وهل قرن أو عصر يخلو إلا وتحدث فيه البدع ؟ مرددا بذلك المعنى الذى قصده ابن عباس رضى الله عنه حين قال (وما من عام إلا والناس يحيون فيه بدعة ويميتون فيه سنة ، حتى تحيا البدع وتموت السنن[1]) .

ودارس تاريخ المسلمين سيرى صحة تنبؤاته ، لاسيما فى العصور الأخيرة حيث يلاحظ وكأن بعض الفرق عادت من جديد !!

ولكن ليس شرطا أن تعود بأشخاصه ورجالها وأسمائها ، ولكن بمذاهبها وانحرافاتها عن العقيدة والإسلامية التى عضت عليها الفرقة الناجية[2] بالنواجذ .

إن الحقيقة التى لا سبيل إلى التشكيك فيها أن عقائد الفرق تعشعش فى أذهان البعض وربما بلا دراية أو معرفة بأصولها عند الفرق التى انقضى زمانها وأصبحت فى ذمة التاريخ !!

---

(١) الشاطبى : الاعتصام ج٢ ص١٢٨ .

(٢) سيأتى بيان عقيدة الفرقة الناجية المقصودة بالحديث النبوى فى نهاية هذا المبحث .

وإذا عرضنا لأسمائها وعقائدها فلكى نحافظ على ما تتطلبه الأمانة العلمية من بسط لوجهات النظر المختلفة التى سجلتها صفحات التاريخ .

ولكن غرضنا الأسمى التحذير من الفرقة والاختلاف ، والتنبيه إلى الانحرافات العقائدية التى انحدرت إليها هذه الفرق ، وتعظم مسئوليتنا إذا علمنا أن أعداء الإسلام لا يزالون ينفثون سموم أحقادهم بإشعال نار الفتنة والاختلاف من جديد بين المسلمين كلما التأم شملهم ، أو نهضوا رافعين راية الإسلام من جديد !!

وبصرف النظر عن أسماء هذه الفرق فإنها كما نعتقد ما زالت تعبر عن (عقائد) البعض إلى الآن .

وأفضل الطرق لتصحيح العقائد لذوى النوايا الحسنة . أن نتتبع مواطن الخلل والخطأ فى عقائد هذه الفرق لتجنب الانزلاق إليها من جديد .وعلى ذلك يكون أحسن الطرق للتحصن ضدها هو التعريف بعقائدها ومناقشتها بالحجة مع مقارنتها بالعقيدة الصحيحة المتلقاه عن السلف بأدلتها من الكتاب والسنة :

وللقارئ فكرة عامة مختصرة قبل العرض والمناقشة :

* إن عقيدة الخوارج قائمة على تكفير مرتكبى الكبائر .

* ونشأ التشيع بسبب النزاع حول قضية (الإمامة) أو (الخلافة) وهى الرئاسة العامة للمسلمين .

* ويعبر المرجئة عن الفصل بين القول والعمل وربما يؤدى إلى الاستهانة بأوامر الدين .

★ وكان اسم (القدرية) عنوانا على نفاة القدر ومخالفة للعقيدة الإسلامية بالايمان بالقضاء والقدر .

★ **الجهمية** : ابتدعوا بدعا بارائهم ليس فيها كتاب ولا سنة ، ثم كفروا من خالفهم فيما ابتدعوا (ولهذا كان ذم السلف للجهمية من أعظم الذم ، حتى قال عبد الله بن المبارك « إنا لنحكى كلام اليهود والنصارى ولا نستطيع أن نحكى كلام الجهمية[٣] .

ويعبر موقفهم عن مخالفة عقيدة مقصودة للكتاب والسنة واحلال (الاراء) محلها ، ثم ارتكاب ما هو أشنع ، حيث يتهمون من خالفهم بما يحلو لهم !

والمعتزلة : بعد اندثارهم كفرقة – مازالوا يعيشون بيننا تحت رداء تحكيم (العقل) و (حرية الرأى) واستبعاد الأحاديث النبوية . وسنرى عند مناقشتهم بأدلة السلف أنهم يتذرعون بهذه الحجج وينسبونأنفسهم إلى الحكمة والفكر ، بينما هم فى الحقيقة يتحاكمون إلى غير الكتاب والسنة .

مع العلم بأن القران الكريم حذر من ذلك تحذيرا شديدا . وقد أورد ابن تيمية ايات كثيرة فى هذا الصدد ، منها قوله تعالى ﴿ **الذين يجادلون فى آيات الله بغير سلطان أتاهم كبر مقتا عند الله وعند الذين امنوا** ﴾ غافر آية ٣٥ وفى الآية الأخرى ﴿ **إن فى صدورهم إلا كبر ما هم ببالغيه فاستعذ بالله إنه هو السميع البصير** ﴾ غافر آية ٥٦ .

والسلطان : هو الحجة المنزلة من عند الله . وقال تعالى ﴿ **ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم امنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا**

---

(٣) ابن تيمية : موافقة صحيح المنقول لصريح المعقول ج١ ص١٤٧ .

إلى الطاغوت ، وقد أمروا أن يكفروا به ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالا بعيدا ﴾ النساء آية ٦٠ .

ويرى شيخ الإسلام أن هذه الايات وغيرها تحذر من يتحاكم إلى غير الكتاب والسنة (وإن زعم أنه يريد التوفيق بين الأدلة الشرعية وبين ما يسميه هو عقليات من الأمور المأخوذة عن بعض الطواغيت من المشركين وأهل الكتاب ، وغير ذلك من انواع الاعتبار[٤]) .

السلف الصالح هم الأحكم والأعلم :

وسنحاول أن نخط طريقنا من القاعدة المنهجية التى يدعمها ابن تيمية شرعا وعقلا ، وتتلخص فى الاعتقاد أن السلف الصالح من الصحابة كانوا هو الأعلم بلغة القران ومراميه ، والأدق فى فهم محكمة ومتشابهه ، فلم تظهر فى عصرهم خلافات فى أصول العقيدة . وكان هناك إجماع عليها بين الكافة ، ثم بدأت الانشقاقات رويدا رويدا ، وكلما تفتقت الأحداث عن مسألة ، أو ظهرت ثغرة ، أسرع الجهابذة من علماء المسلمين ومفكريهم لسدها ، كظهور الخوارج بسبب سوء فهم القران ، أو إعلان التشيع على إثر مقتل الحسين ... إلى اخر الأحداث التى نقلتها كتب التاريخ . فأخذت الاراء تتضخم فيعلو البناء الكلامى طبقة طبقة حتى صبغ فى الشكل الذى نراه فى كتب المتكلمين بفرقهم ومدارسهم المختلفة .

على أنه ينبغى معرفة تقسيم الدين إلى أصول وفروع لم يكن معروفا عند الصحابة والتابعين ، وقد يرجع إلى زمن ظهور المعتزلة[٥] عندما خاض البعض فى (علم الكلام) .

---

(٤) موافقة صحيح المنقول لصريح المعقول ج١ ص٣١ .

(٥) ابن تيمية : رسالة الفرقان بين الحق والباطل ص٨٦ .

وظل هذا العلم فى دائرة البدع عند السلف بأساليبه ومصطلحاته ، فيذكر ابن تيمية أنه (حقيقة عرفية فيمن يتكلم فى الدين بغير طريقة المرسلين)[6] ويحرص فى ثنايا ارائه على التأكيد بأن نقد السلف لعلم الكلام لم يصدر عن انتقادهم المنهج العقلى ، ولكنهم فضلوا المقاييس الشرعية ، لأنها عقلية أيضا ، وبهذا يثبت أنهم كانوا أهل نظر ودراية ، بجانب كونهم علماء أثر ورواية .

فالأصل أن الرسول ﷺ قد بلغ الرسالة كما أمر ولم يكتم منها شيئا تنفيذا لقوله تعالى **﴿ وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ﴾** ، وقال تعالى **﴿ يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس ﴾** . وقد أخبر الله بأنه قد أكمل الدين ، وقال الرسول ﷺ **﴿ ماتركت من شئ يقربكم إلى الجنة إلا وقد حدثتكم به ، وما من شئ يبعدكم عن النار إلا وقد حدثتكم به ﴾** .

وبناء على هذا الأصل ، فإنه يتبين لنا أنه - ﷺ - أوضح كافة الأصول الدينية مما أخبر به عن الله تعالى من أسماء الله وصفاته ، مما جاء فى القران .وشرح وبين لصحابته هذه الأصول كلها كأحسن ما يكون البيان . قال أبو ذر (لقد توفى رسول اللـه ﷺ وما طائر يقلب جناحيه فى السماء إلا ذكر لنا منه علما) . وكان الصحابة حريصين على الفهم والاستيعاب الدقيق الكامل لكل ما يتعلمونه من القرآن والحديث ، فإن عثمان بن عفان وعبد الله بن سعود وغيرهما كانوا إذا تعلموا من النبى ﷺ عشر آيات لم يجاوزوها حتى يتعلموا ما فيها من العلم والعمل (قالوا . فتعلمنا القرآن والعلم والعمل جميعا) وقام عبد الله بن عمر بحفظ سورة البقرة فى ثمانى سنوات لاستغراقه فى المعرفة والفهم[7] .

---

(٦) ابن تيمية : مجموع فتاوى ج١٢ ص٤٦٠ - ٤٦١ .

(٧) فتاوى ج٥ ص١٥٥ - ١٥٦ .

وكانت أم الدرداء تصف زوجها بأن أفضل عمله التفكر[٨] .

وعلى العكس من هذه الحقيقة ، فإن الادعاء بأن الصحابة كانوا مشغولين بالجهاد – كما يذكر بعض المتكلمين – يحمل فى طياته ذم الصحابة ، ومؤداه أيضا أن الرسول بلغ قرانا لا يفهم معناه ، بل تكلم بأحاديث الصفات ، وهو لايفهم معناها ، وأن جبريل كذلك وأن الصحابة والتابعين كذلك .... وهذا الموقف – كما يذكر ابن تيمية – ضلال عظيم[٩] .

ويستند ابن تيمية إلى معرفة عميقة بايات القران والأحاديث النبوية التى تضع الأوائل فى المكانة الأقصى الأفضل ، ولا يفوته استقراء التاريخ وعقد المقارنات بين القواعد الراسخة التى استقاموا عليها ، وبين الخارجين عليها فى العصور التالية . ولكن وجه الأفضلية يلتحم أيضا مع منهج الاتباع للأوائل ، إذ ظلت الجماعة الإسلامية المتصلة بالسلف تعض بالنواجذ على كتاب الله تعالى وسنة نبيه ﷺ .

ثم بدأت العواصف تهب على أرض وحدة المسلمين وتازوهم ، فتقتطع عوامل الاستقرار من جذورها تدريجيا ، وتشق أخاديد الفتن بعقم . أول ما ظهرت عند اشتشهاد عثمان بن عفان رضى الله عنه .

واختفت وراء مقتل عثمان رضى الله عنه دواعى الفتن والمؤامرات ، فإن الأحداث التى أشعل نارها عبد الله بين سبأ تدلنا على أنه كان المحور الذى التف حوله الحانقون والحاقدون والمنافقون ، فأطلوا برأسهم بعد أن قمعهم الشيخان قبله ، لسببين : أحدهما خوفهم من الظهور أمام عمر بن الخطاب لأنهم يعرفون أسلوبه فى الزجر والردع ، والثانى ، كثرة عدد الصحابة الذين

(٨) نقض المنطق ص٨٧ .
(٩) شرح حديث النزول ص٦٥ .

يعرفون فضائل عثمان فيخرصون ألسنة الطاعنين فيه ، وربما وجدنا فى دفاع عبد الله بن عمر عنه فى وجه الطاعنين ما يؤيد نظرنا ، ولم يكن كل الناس كابن عمر[١٠] .

ولانستطيع الاسترسال فى ذكر هذه المطاعن ودفاع عثمان عن نفسه ، فقد لا تسمح طبيعة هذه الدراسة من تحقيق غرضنا[١١] ، ولكننا نكتفى بالقول ، إن المتابع للأحداث فى كتب التاريخ بحيدة مع سلامة قصد ، يعثر على ملامح خطط معدة من قبل ، وأشهرها تزييف كتاب على لسان عائشة رضى الله عنها ، تأمرهم فيه أن يخرجوا . ثم إن عثمان دافع عن نفسه فى كل الافتراءات التى وجهت إليه وأبى تنفيذ مشورة بعض الصحابة لقتلهم قمعا للفتن ، وأعاد الوفود إلى بلادها ، ولكنهم ما لبثوا أن عادوا بعد تظاهرهم بالرجوع متعللين مرة أخرى باكتشاف كتاب على لسان عثمان يأمر فيه أمراء الأمصار بقتلهم ، ولكن الخليفة تبرأ مما نسبوه إليه . وناظرهم محمد بن مسلمة فتظاهروا مرة ثانية بالعودة ، ولكن ما لبثوا أن عادوا .

ومما يدلنا على حرص عثمان على وحدة المسلمين ودرء الفتن عنهم ، أنه قبل مناقشتهم والدفاع عن نفسه لمقارعة الحجة بالحجة فبرهن على سلامة موقفه وقوة شخصيته وحرصه على الاقناع والاقتناع . ويقوى هذا الاستنتاج أنه ما كان أحد من الصحابة يظن أن الأمر يصل إلى حد قتله .

وعانت الأمة الإسلامية من آثار استشهاده ما عانت ، إذ تحول الدفع الإسلامى النشط ، إلى نكسة مؤسفة أصابت المجتمع الإسلامى فى الصميم ، ولهذا فإننا نظن أننا لا نخطئ إذا عللنا هذه الأحداث بأصابع محركة من وراء

---

(١٠) د. عزت على عيد عطية : البدعة ص٥٦ .

(١١) ينظر كتاب نظام الخلافة فى الفكر الإسلامى – ط دار الدعوة بالاسكندرية .

الستار بدهاء وإحكام ، وسنحت لأصحابها فرصة بعدها فى المضى قدما لتنفيذ أهدافهم فكان هدفهم الأول إحداث صدع كبير فلما تحقق أصبح من الميسور أن تتلاحق الفتن . فيأخذ بعضها برقاب بعض ، وما دامت الشرارة الأولى قد بدأت . فقد أصبحت النتائج محققة ، ومعظم النار من مستصغر الشرر .

ونقول هذا ردا على منكرى وجود شخصية عبد الله بن سبأ اليهودى المتظاهر بالإسلام للكيد والطعن ، أو المستبعدين لهذه الأحداث الضخمة ونسبتها إلى شخصه وحده . وقد يصعب فعلا تصديق أن يقوم شخص واحد بكل هذا ، ولكننا نرى أن هناك مخططا محبوك الأطراف ، يصل بين وفود الأمصار ، وترويج شائعات حول تصرفات الخليفة ، ثم الاصرار على قتله بعد أن اتضح سلامة موقفه ، بدليل أن الحصار حول منزله قد استمر أكثر شهر ، ثم هاجموه على حين غرة فقتلوه وهو يقرأ القرآن !!

الفرق نشأتها وعقائدها

ما إن استشهد عثمان رضى الله عنه حتى ابتدأ ظهور الفرق ، لأن حادث استشهاده أثار العديد من القضايا فتلاحقت الأحداث وأخذ بعضها برقاب بعض فبينما بايع الصحابة عليا رضى الله عنه ، رأى معاوية الاقتصاص أولا من قتلة عثمان ، ثم اقتتل الفريقان ، وظهر التحكيم كوسيلة لرأب الصدع وألح أصحاب على على التحكيم ، بالرغم من معارضته ، لأنه كان قاب قوسين أو أدنى من الظهور على الفريق الاخر .

ولما أطاعهم كارها ، عاد أتباعه فأعلنوا أنه (لا حكم إلا الله) وخرجوا عليه وكفروه ، واستتبع ذلك إنقسام المسلمين إلى ثلاثة أقسام ، فريق يؤيد عليا وفريق يؤيد معاوية ، وفريق يؤيد ثالث أبى الخوض فى النزاع ، ومن ثم ظهر التشيع فى بدايته لتأييد على ، ثم تحول إلى عقائد كلامية عند مقتل الحسين بن على فى موقعة كربلاء .

ويلخص لنا ابن تيمية أهم معتقدات الفرق التى ظهرت على أثر استشهاد عثمان رضى الله عنه ، فيذهب إلى أن أصل مذهب الخوارج تعظيم القرآن وطلب اتباعه ، ولكنهم خرجوا على السنة والجماعة – فهم لا يرون إتباع السنة التى يظنون مخالفتها للقران ، كالرجم ونصاب السرقة ... ويجوزون على الرسول ﷺ أن يكون ظالما فلا كفرون عثمان وعليا ومن والاهما لحكمهما – فى نظرهم – بغير ما أنزل الله ، حيث خالفوا القرآن ، وكل من خالف القرآن يكفر !!

وظهر بإزائهم الشيعة فقالوا بعصمة الأئمة وعلمهم بكل شئ ، وأوجبوا الرجوع إليهم فى جميع ما جاء به الرسل فلا يأخذون إلا بقول من ظنوه معصوما ، ولا يرجعون إلى كتاب ولا سنة .

وأما القدرية فخاضوا فى قدره بالباطل وانقسموا فريقين :

فريق يغلب الشرع فيكذب القدر وينفيه أو ينفى بعضه ، فينفى قدره ومشيئته .

وفريق يغلب القدر فينفى الشرع فى الباطن أو ينفى حقيقته ويقول : لا فرق بين ما أمر الله وما نهى عنه أو بين الأولياء والأعداء . فينفى حكمة الله سبحانه وتعالى ومشيئته[11] .

وهكذا يرى أن أكثر الفرق الكلامية يروون باطلا بباطل وبدعة ببدعة .

وسننظر في أهم أراء هذه الفرق ، ثم نتبعها ببيان مدى انحرافها عن مسلك الجماعة الإسلامية كل على حدة من وجهة نظر شيخ الإسلام ابن تيمية :

(١) الخــــوارج :

تبين لنا بعض أهل الفتنة والظلم قتلوا عثمان بن عفان رضى الله عنه . فتفرق المسلمون ، إذ نشبت معركة صفين فكانت أشبه بانفجار ذى دوى شديد ، ألقيت فيه قنبلة التحكيم ففجرت فى الحال قيام الخوارج .

وكان معاوية بن أبى سفيان ممن رأى أن بيعة على لم تنعقد لافتراق الصحابة أهل الحل والعقد بالآفاق . وأنه يجب المطالبة بدم عثمان أولا ثم يجتمعون على إمام ، بينما كانت حجة على بن أبي طالب التى استند إليها أن البيعة التى تمت له قد عقدها نفس القوم المبايعين أبا بكر وعمر وعثمان قبله ، وأنها تمت عن شورى المهاجرين والأنصار ، فلا معنى لخروج أحد عن هذه البيعة التى أجمع عليها هؤلاء وأولئك ، وإلا حق على الخارج عن الجماعة أن يقاتل .

أما معاوية فإنه يبرر موقفه بأنه مطالب بدم عثمان الذى قتل مظلوما ، ولأنه وليه ويؤيد مطالبته بقتل قاتليه ، يقول الله تعالى ﴿ **ومن قتل مظلوما فقد جعلنا لوليه سلطانا ، فلا يسرف فى القتل إنه كان منصورا** ﴾ . وقد أجابه أهل

(١١) ابن تيمية : مجموع فتاوى ابن تيمية ج ١٣ ص ٢٠٨ - ٢١٣ .

الشام إلى طلبه حيث بايعوه وأوثقوا له ، على أن يبذلوا أنفسهم وأموالهم أو يدركه بثأره أو يفنى الله أرواحهم .

وتحفل المصادر المختلفة بالجدل والحجاج العقلى بين على والخوارج مما يعطى فى مضمونها صورة واضحة عن المعتقدات التى اعتنقها هؤلاء ويعوضنا بعض الشيء عن التماس آرائهم من كتبهم نفسها . لقد أعلنوا شعارهم (لا حكم إلا لله) ولكن عليا لم يرتج عليه لسماعه هذا الشعار فهو العالم بكتاب الله يعرف جيدا أنه لم يحد عنه بقبوله التحكيم . فقا : (كلمة حق أريد بها باطل) .

والخوارج فى جمعهم بين تكفير عثمان وعلى يستندون على حجة واحدة هى الحكم بغير ما حكم الله ، فيقولون : (لأن عليا حكم الحكمين وخلع نفسه عن إمرة المؤمنين وحكم فى دين الله فكفر ، وعثمان ولى رقاب المؤمنين ولاة جور فحكم بغير ما حكم الله فكفر) .

وقد تولى الرد عليهم أهل السنة لبيان خطئهم فيما ذهبوا إليه ، فقد حكم الله الناس فى كتابه فى غير موضع إذ قال عز وجل فى جزاء الصيد : ﴿ **يحكم به ذوا عدل منكم** ﴾ وقال سبحانه وتعالى : ﴿ **وما اختلفتم فيه من شيء فحكمه إلى الله** ﴾ وأيضا : ﴿ **فردوه إلى الله وإلى الرسول** ﴾ وقال : ﴿ **ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولى الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم ولولا فضل الله عليكم ورحمته لاتبعتم الشيطان إلا قليلا** ﴾ .

فهذا محكم القرآن قد جعل أحكاما كثيرة إلى العلماء ، وإلى الأمراء من الناس ينظرون فيه مما لم ينزل بيانه من عند الله ، فكيف يساغ لهم القول (لا حكم إلا لله) ؟ .

ولا حجة لهم فى تكفير عثمان وعلى رضى الله عنهما ، لأنهما كان وليين للمسلمين فى الأصل بإجماع لا اختلاف فيه ؛ فالإجماع على إيمانهما وولايتهما

---

(١٢) ابن تيمية : الفرقان بين الحق والباطل ص ٦٩ .

ثابت حتى يجئ مثله فيزيل ولا يتهما وإيمانهما ويثبت كفرهما ، فلا حجة لهم فى تكفيرهم .

ثم حدث فى اخر عهد الصحابة القدرية ، فكانت الخوارج تتلكم فى حكم الله الشرعى : أمره ونهيه ، ووعده ووعيده ، وحكم من وافق ذلك ومن خالفه ، ومن يكون مؤمنا ومن يكون كافرا ، فخاضوا فى حكم الله أى شرعه بالباطل .

أما عن تفسيرهم للايات القرانية التى يتسلحون بها فى تكفير من يرتكب الكبائر فإنهم يقيسون على قوله تعالى : ﴿ **ومن يكفر بالايمان فقد حبط عمله** ﴾ وقوله عز وجل ﴿ **إنا هديناه السبيل إما شاكرا وإما كافورا** ﴾ وقوله سبحانه وتعالى : ﴿ **وهو الذى خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن** ﴾ فهم يرون أن الله لم يجعل منزلة ثالثة تقع وسطا بين الكفر والايمان فمن كفر وحبط عمله فهو مشرك والايمان رأس الأعمال وأول الفرائض فى العمل ، ومن ترك ماأمره الله به فقد حبط عمله وإيمانه ومن حبط عمله فهو بلا إيمان ، والذى لا إيمان له فهو مشرك وكافر .

ويرجع تسويتهم بين الكبائر والصغائر إلى سوء فهمهم للقرآن فالله عز وجل قد فرق بينهما بقوله : ﴿ **إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم وندخلكم مدخلا كريما** ﴾ وكذلك ينص الحديث : ففى سنن أبى داود والنسائى وغيرهما من حديث أبى هريرة رضى الله عنه « إجتنبوا السبع الموبقات الشرك بالله والسحر وقتل النفس التى حرم الله إلا بالحق وأكل الربا وأكل مال اليتيم والتولى يوم الزحف ، وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات » ، وهناك من الأخاديث أيضا ما وصف فيها الذنوب بالكبائر مما يزيد عن السبعين وربما

كان تفسير ذلك أن النبى ﷺ علم أولا بالسبع المذكورات ثم علم بما زاد ، والأرجح أن النص على السبع فى كل حديث لزيادة عظمها ، وفى الصحيحين عن ابن مسعود رضى الله عنه قال : قلت يارسول الله أى الذنب أعظم ؟ قال : **« أن تقتل ولدك مخافة أن يطعم معك » . قلت ثم اى قال : « أن تزنى بحليلة جارك » .**

فأنزل الله تصديق ذلك : ﴿ والذين لايدعون مع الله إلها آخر ولا يقتلون النفس التى حرم الله إلا بالحق ولايزنون ، ومن يفعل ذلك يلق اثاما ، يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهانا ، إلا من تاب وآمن وعمل عملا صالحا فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات ، وكان الله غفورا رحيما ﴾

آية ٦٨ سورة الفرقان

ومن أقوال السلف فى هذا الصدد إجابة ابن عباس رضى الله عنهما لرجل سأله عن عدد الكبائر فأجاب (هى إلى السبعمائة أقرب منها إلى السبع ، غير أنه لا كبيرة مع استغفار ، ولا صغيرة مع إصرار) . وعلق ابن مفلح على ذلك بقوله (الفقيه كل الفقيه الذى لا يوئس الناس من رحمة الله عز وجل ، ولايجرئهم على معاصيه[١٤]) .

ويعد ابن تيمية بدعة الخوارج أول بدعة ظهرت فى الاسلام ، إذ كفروا المسلمين واستحلوا دماءهم وأموالهم وتميزوا بالامام والجماعة والدار وسموا دارهم دار الهجرة وجعلوا دار المسلمين دار كفر وحرب . ومن ناحية أخرى يشيد بهم فى موضع المقارنة بينهم وبين الشيعة فإن الخوارج يرجعون إلى القرآن وهو حق - وإن غلطوا فيه ، وهم صادقون فحديثهم من اصح الحديث .

(١٤) شرح الاسفراينى ص٢٥٥ - ٢٦٢ .

ولكن غلطوا فى تكفير المسلمين بالذنوب حيث قسموا الناس إلى مؤمن لا ذنب له ، وكافر لا حسنة له ، بينما قسم الله تعالى الأمة التى أورثها الكتاب واصطفاها « ثلاثة أصناف » ظالم لنفس ، ومقتصد ، وسابق بالخيرات ... قال تعالى ﴿ **ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ، ومنهم مقتصد ، ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله ، ذلك هو الفضل الكبير . جنات عدن يدخلونها ، يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤا ولباسهم فيها حرير وقالوا الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن إن ربنا لغفور شكور ، الذى أحلنا دار المقامة من فضله لا يمسنا فيها نصب ولا يمسنا فيها لغوب** ﴾ .

وتقسيم طبقات الأمة الوارد فى الاية الكريمة ينطبق على الطبقات الثلاث المذكورة فى حديث جبريل (الاسلام) و (الايمان) و (الاحسان) .

كذلك فقد دلت نصوص الكتاب والسنة على أن عقوبة الذنوب تزول عن العبد بنحو عشرة اسباب ، نوجزها فيما يلى :

أحدها : التوبة ، قال تعالى ﴿ **قل ياعبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا إنه هو الغفور الرحيم** ﴾ وغيرها من الايات .

الثانى : الاستغفار ، كما جاء فى حديث (**ما أصر من استغفر وإن عاد فى اليوم مائة مرة**) .

فإن هذا الاستغفار إذا كان مع التوبة مما يحكم به ، عام فى كل تائب ، وإن لم يكن مع التوبة فيكون فى حق بعض المستغفرين ، الذين قد يحصل لهم عند الاستغفار من الخشية والانابة ما يمحوا الذنوب .

الثالث : الحسنات الماحية كما قال تعالى ﴿ **أقم الصلاة طرفى النهار وزلفا من الليل إن الحسنات يذهبن السيئات** ﴾ وقال ﷺ : « الصلوات الخمس ،

والجمعة إلى الجمعة ، ورمضان إلى رمضان ، مكفرات لم بينهن ، إذا اجتنبت الكبائر » وقال « **الصدقة تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار ، والحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب** » .

السبب الرابع الدافع للعقاب : دعاء المؤمنين للمؤمن مثل صلاتهم على جنازته فعن عائشة وأنس بن مالك عن النبى ﷺ أنه قال « **ما من ميت يصلى عليه أمة من المسلمين يبلغون مائة ، كلهم يشفعون إلا شفعوا فيه** » وعن ابن عباس قال سمعت رسول الله ﷺ يقول : « **ما من رجل مسلم يموت فيقوم على جنازته أربعون رجلا لا يشركون بالله شيئا ، إلا شفعهم الله فيه** » **رواهما مسلم** .

الخامس : **ما يعمل للميت من أعمال البر كالصدقة ونحوها ، فقد ثبت** عن النبى ﷺ **أنه قال : « من مات وعليه صيام صام عنه وليه »** .

السادس : شفاعة النبى ﷺ وغيره فى أهل الذنوب يوم القيامة ، مثل قوله ﷺ : « **شفاعتى لأهل الكبائر من أمتى** » وقوله ﷺ : « **خيرت بين أن يدخل نصف أمتى الجنة وبين الشفاعة فاخترت الشفاعة لأنها أعم وأكثر : أترونها للمتقين ؟ لا . ولكنها للمذنبين المتلوثين الخطائين** ».

السابع : المصائب التى يكفر الله بها الخطايا فى الدنيا كما فى الصحيحين عنه ﷺ أنه قال : « **ما يصيب المؤمن من وصب ولا نصب ، ولا هم ولا حزن ولا غم ولا أذى – حتى الشوكة يشاكها – إلا كفر الله بها من خطاياه** .

الثامن : **ما يحصل فى القبر من الفتنة والضغطة والروعة ، فإن هذا مما يكفر به الخطايا** .

التاسع : أهوال يوم القيامة وكربها وشدائدها .

العاشر : رحمة الله تعالى وعفوه ومغفرته بلا سبب من العباد[١٥] .

نعود للحديث عن الخوارج[١٦] الذين تطرفوا فى معتقداتهم واتجاهاتهم فظهر على اثارها - كرد فعل لها - النظريات الشيعية التى تعد بمثابة تطرف مضاد لجنوح الخوارج فى تكفير معارضيهم - وعلى رأسهم على - فكان لابد أن يظهر المدافع عنه وأن يسلك نفس الطريق المتطرف ، فمقابل (تكفير) على . ظهرت فكرة (تأليه) على كما سنرى عند احدى فرق الشيعة .

وتكاد تجمع كتب الفرق على أنهم المعنيين بالحديث الذى وصفهم بأنهم يمرقون من دين الاسلام كما يمرق السهم من الرمية ، ولهذا فإننا نعجب لموقف المستشرق فلهوزن لطعنه فى الحديث ولنزعته التى لم يستطع إخفاءها - بما تحمله من دلالة لنظريات المستشرقين بوجه عام - هذه النزعة التى تمجد كل رأى يخالف جماعة المسلمين ، وتبحث وتنقب دون يأس أو كلل عن المخالفين لأهل السنة لابرازها وخدمتها وعرضها على أوسع نطاق !

(٢) الشيعـــة :

وسنقتصر على طائفتين فقط حيث انقسم الشيعة إلى فرق وطوائف كثيرة :

---

(١٥) باختصار من كتاب (الإيمان الأوسط) لابن تيمية من ص٢٩ إلى ص٤٣ مكتبة الفرقان ومكتبة الإيمان والفتاوى ج٧ ص٤٨٧ إلى ص٥٠١ ط الرياض .

(١٦) ولكن الصحابة لم يكفروا الخوارج إذ كانوا يصلون خلفهم ، وكان عبد الله بن عمر رضى الله عنهما وغيره من الصحابة ، كانوا يصلون خلف نجده الحرورى . وكانوا أيضا يحدثونهم ويفتونهم ويخاطبونهم كما يخاطب المسلم المسلم (منهاج السنة ج٣ ص٦٢) .

أ - **الغلاة** : وكما ظهر الخوارج ، أطلت الشيعة الغلاة برأسها لتعلن ألوهية على ابن أبى طالب فأمرهم بالرجوع وأمهلهم ثلاثا ، ولكنهم أصروا فأمر بإلقائهم فى أخاديد من نار .

وكان على رأس هذه الفتنة عبد الله بن سبأ - أو ابن السوداء - الذى تجرأ على سب أبى بكر وعمر رضى الله عنهما ، فطلبه على لقتله فهرب منه . ويرى ابن تيمية أن قتله إما بسبب السب أو لأنه كان متهما بالزندقة واحتمال الزندقة هو الأقوى لأنه كان يهوديا وتظاهر بالإسلام لاسيما أنه كان يقصد إفساد دين الإسلام(١٥) .

وقد ثبت أن هذا التيار السبئى هو المخطط السرى الذى يجمع أعداء الإسلام منذ عبد الله بن سبأ الذى أفسد من أمور المسلمين كثيرا ، (وأنه رسم خطة محكمة ماكرة أدت إلى الفتنة السياسية والدينية التى مازالت آثارها ماثلة فى مذاهب بعض المتصوفين فى الإسلام)(١٦) .

ويبدو أن اليهود وجدوا الفرصة سانحة لإشاعة الفرقة بين المسلمين فاختفوا وراء التشيع لآل البيت ، وتظاهروا بأنهم من الشيعة مستغلين عواطف بعض المسلمين الذين كانوا يفضلوا علياً على عثمان رضى الله عنهما ، ذلك أن التشيع فى بدايته كان فى المفاضلة بينهما فحسب أى أنه اتجاه عاطفى إنسانى لا دخل فيه لعناصر عقلية ، ولم يكن الشيعة الأوائل ينالون من أبى بكر وعمر باعتراف شيوخهم الأوائل ، فقد سئل شريك بن عبد الله القاضى : « أنت من شيعة على وأنت تفضل أبا بكر وعمر ؟ فقال : كل شيعة على على هذا هو يقول على أعواد هذا المنبر : خير هذه الأمة بعد نبيها أبو بكر ثم عمر ، أفكنا نكذبه ؟ والله ما كان كذابا » .

وظهر الغلو فى الفرق الشيعية بعد ذلك ، ومن أشدها غلواً الإسماعيلية الذين

---

(١٥) ابن تيمية : النبوات ص ١٤٢ .

(١٦) د. محمود قاسم - دراسات فى الفلسفة الإسلامية ص ٢٥٤ - ٢٥٥ ط دار المعارف بمصر سنة ١٩٧٣م .

كانوا يزعمون أنهم خلفاء علويون فاطميون – وحكموا بمصر بهذا الاسم - وهم فى الحقيقة من ذرية عبيد الله القداح ، وقد وصفهم الغزالى بأن (ظاهر مذهبهم الرفض – أى التشيع – وباطنه الكفر المحض[١٧]) .

وقد سمحت معرفة ابن تيمية بالتاريخ أن يعرف حقيقة الشيعة الباطنية الغلاة عندما سلسل نسبة عبيد الله بن ميمون القداح الذى ادعى أنه من ولد محمد ابن إسماعيل – فبرهن على كذبه بما اتفق عليه أهل المعرفة بالنسب ، وغيرهم من علماء المسلمين أن أباه كان يهوديا ربيب مجوس ، فله نسبتان : نسبة إلى اليهود ونسبة إلى المجوس وهو وأهل بيته من أئمة الإسماعيلية الملاحدة الذين وصفهم العلماء - ومنهم الغزالى – بأن ظاهر مذهبهم الرفض – أى التشيع – وباطنه الكفر المحض .

وقد ظهر عبيد الله هذا - الذى سمى نفسه بالمهدى سنة ٢٩٩هـ وتوفى سنة ٣٢٤هـ وانتقل الأمر إلى ولده القائم – ثم ابنه المنصور ، ثم ابنه المعز الذى بنى القاهرة .

وبعده العزيز ثم الحاكم ثم الظاهر ثم المستنصر ، وانقرض ملكهم فى الديار المصرية سنة ٥٦٨هـ فملكوها أكثر من مائتى سنة .

وقد علق ابن تيمية على أخبارهم بقوله إن أخبارهم عند العلماء مشهورة بالإلحاد والمحادة لله ورسوله والردة والنفاق ، ويرى أن الحديث الذى رواه ابن ماجه (لا مهدى إلا عيسى ابن مريم) حديث ضعيف[١٨] .

ومن المناسب أن نورد أيضاً النص الذى وصف السيوطى به نفس الأحداث المتعلقة بالمهدى صاحب المغرب فقال : (وهو جد خلفاء المصريين الذين يسمونهم الجهلة الفاطميين ، فإن المهدى هذا ادعى أنه علوى وإنما جده مجوسى) كما استند إلى رأى القاضى أبو بكر الباقلانى الذى وصفه بأنه مجوسى ولم يعرفه أحد من علماء النسب ؛ وكان باطنيا خبيثا ، حريصا على إزالة ملة الإسلام ، أعدم العلماء والفقهاء ليتمكن من إغواء الخلق ، وجاء أولاده على

أسلوبه ، أباحوا الخمور والفروج وأشاعوا الرفض[٢١] .

ويقول فى موضع اخر (وإنما كان المعروفون بالزندقة والنفاق بنى عبيد القداح الذين كانوا بمصر والمغرب ، وكانوا يدعون أنهم علويون ، وإنما كانوا من ذرية الكفار فهؤلاء قد اتفق أهل العلم على رميهم بالزندقة والنفاق ، وكذلك رمى بالزندقة والنفاق قوم من ملوك النواصى الخلفاء من بنى بويه وغير بنى بويه) ونفهم من هذا أن ابن تيمية على دراية بأخبارهم وأسرارهم ، ويبدو أنه اطلع على المصادر المتعددة التى تكشف حقيقتهم وتؤصل نسبهم ، ومما يعضد ذلك ما نقرأه لعبد القاهر البغدادى – وكان معاصرا لهم (توفى سنة ٤٢٩هـ –١٠٣٧م) الذى اختتم كلامه عن القداح بقوله (ثم ظهرت فتنته فالمغرب وأولاده اليوم مسئولون على أعمال مصر[٢٢]) .

وتميل بعض الدراسات الحديثة حول القرامطة إثبات انتساب المعز لدين الله إليهم ، فقد جاء بالوثيقة التاريخية التى نشرها الدكتور سهيل زكار نص الرسالة التى بعث بها القرامطة عندما علم باتجاههم إلى غزو مصر فكتب إليهم كتابا ، يذكر فيه فضل نفسه وأهل بيته ، وأن دعوة القرامطة كانت له وإلى ابائه من قبله[٢٣] .

ويميز ابن تيمية بين فرق الشيعة ويضع حدودا بين المعتدلين والغلاة منهم ، فالباطنية من بنى عبيد بن ميمون القداح الذين ادعوا أنهم من ولد محمد بن

(١٧) شرح عقيدة السفارينى ج١ ص٣٣٤ .
(١٨) منهاج السنة ج ٢ ص ١٣٣ – ١٣٤ .
(٢١) السيوطى : تاريخ الخلفاء ص ٣٩١ تحقيق الشيخ محمد محيى عبد الحميد ط التجارية ١٣٨٩هـ – ١٩٦٩م .
(٢٢) البغدادى : الفرق بين الفرق ص ٢٨٣ ط صبيح .
(٢٣) ثابت بن سنان وابن النديم : تاريخ أخبار القرامطة ص٥٩ – ٦٠ – ترجمة الحسن الأعصم القرمطى – تحقيق د. سهيل زكار – دار الأمان لبنان ١٣٩١هـ – ١٩٧١م .

اسماعيل بن جعفر ، لم يكونوا من أولاده - بل كان جدهم يهوديا ربيبا لمجوسى وأظهروا التشيع . ولم يكونوا فى الحقيقة على دين واحد من الشعية لا الأمامية ولا الزيدية بل ولا الغالية الذين يعتقدون إلهية على أو نبوته ، بل كانوا شرا من هؤلاء كلهم . ولهذا أكثر تصانيف علماء المسلمين فى كشف أسرارهم وهتك أستارهم وكثر غزو المسلمين لهم .

وهؤلاء يدعون المستجيب لهم أولا إلى التشيع ، وإلتزام ما توجبه الشيعة وتحريم ما يحرمونه ، ثم بعد هذا ينقلونه درجة بعد درجة حتى ينقلونه فى الاخر إلى الانسلاخ من الإسلام[٢٤] .

ونتوقف عند الفقرة الأخيرة لتطابقها بما عرفنا عنهم ونقلته المصادر التاريخية وكتب الفرق - فنقرأ مثلا عبارة لأبى قاهر البغدادى يوضح لنا فيها خطتهم فى الدعوة بقوله : (والدليل على أنهم كما ذكرناه ، قرأته فى كتابهم المترجم « السياسة والبلاغ الأكيد ، والناموس الأعظم » ، وهى رسالة عبيد الله بن الحسين القيراونى - أى المهدى - إلى سليمان بن الحسن بن سعيد الجنابى أوصاه فيها بأن قال له : ادع الناس بأن تتقرب إليهم بما يميلون إليه ، وأوهم كل واحد منهم بأنك منهم فمن انست منه رشدا فاكشف له الغطاء ، وإذا ظفرت بالفلسفى فاحتفظ به ، فعلى الفلاسفة معولنا ، وإنا وإياهم مجمعون على رد نواميس الأنبياء ، وعلى القول بقدم العالم ...[٢٥]) .

ومن النصوص التى ينقلها لنا البغدادى أيضا عن الكتاب الآنف الذكر الوصية التالية : - إنى أوصيك بتشكيك الناس فى القرآن والتوراة والزبور والانجيل وبدعوتهم إلى إبطال الشرائع ، وإلى إبطال المعاد والنشور من القبور

---

(٢٤) ابن تيمية : فتاوى شيخ الإسلام ج٤ ص١٦٢ ط الرياض .
(٢٥) البغدادى : الفرق بين الفرق ص٢٩٤ - ٢٩٥ .

وإبطال الملائكة فى السماء ، وإبطال الجن فى الأرض ، وأوصيك بأن تدعوهم إلى القول بأنه قد كان بعد ادم بشر كثير ، فإن ذلك عون لك على القول بقدم العالم[٢٦] .

من هذا يتبين لنا أن شيخ الإسلام لم يتجن عليهم عندما نقل لنا أخبارهم ، وحكم على مخططاتهم وأهدافهم بأنها متصلة بالمخطط اليهودى السيئ الذى أراد الكيد للاسلام وأهله ، فقد أجمع المحققون من أهل السنة – كما يذكر البغدادى أن ابن السوداء كان على هوى دين اليهود ،وأراد أن يفسد على المسلمين دينهم بتأويلاته فى على وأولاده[٢٧] .)وتتحد كتب التاريخ والفرق المجمعة على ذكر أهداف الباطنية ، كما تكاد تتفق فى شرح خططهم وتعاليمهم[٢٨] .

(ب) المعتـــــدلة :

أما الشيعة المعتدلة ، فهى الاثنى عشرية التى تنتسب إلى جعفر الصادق ، وهى تقول بإمامة على ثم الحسن ثم الحسين ثم على بن الحسين (زين العابدين) ثم محمد بن على بن الحسين (محمد الباقر) ثم جعفر بن محمد الصادق بن موسى بن جعفر ثم الرضا ثم محمد بن على الجواد ، ثم على الهادى ثم الحسن العسكرى ثم الامام محمد المنتظر (وترتيبه الثانى عشر فى سلسلة الأئمة) .

(٢٦) نفسه ص٢٩٦ .

(٢٧) نفسه ص ٢٢٥ .

(٢٨) ويمكن الرجوع لمن يريد الاستزادة إلى المصادر الآتية :

- فضائح الباطنية (الغزالى)
- الفرق بين الفرق (البغدادى)
- التبصير فى الدين (للاسفراينى)
- كشف أسرار الباطنية (الباقلانى)
- فرق المسلمين والمشركين (للرازى) .

وقد استقلوا بمصادر الحديث والفقه عن أهل السنة والجماعة – ويرون الامامة بالنص وليست بالبيعة .ولكن ظهرت فى العصر الحديث روح التقريب بينهما لمواجهة خصوم الإسلام ، وإننا لنجد خير من يعبر عن هذه الرواية قول أحد علماء الشيعة الاثنى عشر (مازلنا نتشاجر حول الخلافة حتى أصبح خليفتنا المفوض السامى الفرنسى) وقول الشيخ عبد العزيز البشرى (مازلنا نختلف حول غسل أو مسح قدم ، حتى أصبحنا لا نملك من وجه الأرض موضع قدم) .

فهل حققت نداءات التقريب النتائج المرجوة ؟

إننا مع الأسف الشديد لم نعثر فيما أطلعنا عليه من مصادر على مظاهر تغيير ، بل وجدنا الإصرار على عقائد الإمامية المتوارثة[1].

وربما ظهر من بينهم من يعارض الغلو ، ويدعو إلى تصحيح العقائد وفق أهل السنة – كالدكتور موسى الموسوى[2]– ولكن هل سيجد عندهم آذانا صاغية ؟

نسأل الله تعالى أن يوفق مساعيه .

---

(١) ينظر مقدمة كتابنا (نظام الخلافة بين أهل السنة والشيعة) دار الدعوة بالإسكندرية ١٤٠٨هـ – ١٩٨٨م .

(٢) ينظر كتابه (الشيعة والتصحيح – الصراع بين الشيعة والتشيع) ط الزهراء للإعلام العربي بمصر ١٤٠٩هـ – ١٩٨٩م .

موقف ابن تيمية – معبرا عن أهل السنة – من مسألة الامامة أو الخلافة عند الشيعة :

سنعرض هاهنا لمناقشة للمسألة فى إطارها التاريخى كقضية عقدية ، أما الخلافة كجوهر النظام السياسى الإسلامى فهو موضوع آخر له أهميته لا سيما بعد إلغائها بواسطة أتاتورك اليهودى الدونمى .

لقدوضع الشيعة مسألة الامامة فى المكان الأول من الأهمية ، وعدوها من أهم المطالب فى أحكام الدين ، وتدخل ضمن العقائد الايمانية ، وقد تعرضت هذه الفكرة لأعنف مهاجمة قام بها ابن تيمية لأنه يرى أن إحلال مسألة الامامةهذا الموضع لا يتفق مع الأصول الإسلامية ، فالعقائد الشيعية فى رأيه ترتبط بعقائد غير إسلامية أو على الأقل تتشابه معها فى خطوطها وملامحها ، فقدْ قالت الشيعة لا تصلح الامامة إلا فى ولد على ، وقالت النصارى لا جهاد فى سبيل الله حتى يخرج المسيح الدجال وينزل سيد من السماء ، وقالت الرافضة لا جهاد فى سبيل الله حتى فى الحقيقة ليست أشرف المسائل . هذا هو الدليل الأول ، أما الدليل الثانى فهو أن المصنفين فى أصول الدين يذكرون مسائل أكثر أهمية منها ، وهى التوحيد ، والعدل ، والنبوة ، ثم يأتون بالامامة فى نهاية المطاف . كذلك رتب المعتزلة أصولهم لخمس حسب درجاتهم من الأهمية ، فوضعوا الأصل الخامس – وهو الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر الذى تتعلق به مسائل الامامة – فى اخر هذه الأصول من حيث الترتيب .

ويذكر ابن تيمية ما دار بينه وبين بعض شيوخ الشيعة . الذين حاولوا إقناعه بصحة عقيدتهم فى مسألة الامامة ، فهى عندهم لطف لأن الامام يأمر الناس بالواجب وينهاهم عن القبح ، ولابد أن يكون معصوما لكى يتم المقصود من نصبه فيصبحون أقرب إلى أفعال الأوامر الدينية واجتناب النواهى ، وقد بدأت سلسلة الأئمة منذ على بن أبى طالب إلى أن انتهت إلى المنتظر صاحب السرداب . وقد بسط شيخنا رده على هذه العقيدة بنواحيها المختلفة . وهو

يرى أنه لا مجال للطف بينما الامام مختف لا ندرى من أمره شيئا ، ولا نعلم أوامره ونواهيه ، ولا نجد طريقة نستطيع بها أن نعرفه لأنه مختف غائب . وإن فرض طاعته يتنافى مع المقدور والمستطاع ، والله تعالى لا يكلف العباد إلا بما يطيقونه ، أما فرض طاعة هذا الامام فهو يتدرج تحت تكليف مالا يطاق . ثم يطلب ابن تيمية اسنادا للحديث الذى استشهد به الحلى (أحد علماء الشيعة المعاصرين له) على وجوب معرفة الامام ، ويطعن فى صحة نقله لأنه لم يتم عن طريق الثقات ويقول : « ونحن نطالبهم أولا بصحة النقل ثم بتقدير أن يكون ناقله واحد فكيف يجوز أن يثبت أصل الايمان بخبر مثل هذا الذى لا يعرف له ناقل وإن عرف له ناقل أمكن خطؤه وكذبه ، وهل يثبت أصل الايمان إلا بطريق علمى[29] ؟ . فالحديث الصحيح يختلف عما ذكره الحلى يخرج المهدى وينادى مناد من السماء

وكان الحلى قد عبر موضوع الامامة فى كلام طويل ، نقتبس منه أحد الأحاديث التى استشهد بها ونصه : « من مات ولم يعرف إمام زمانه مات ميتة جاهلية[30] » . أما وجهة نظر ابن تيمية فى هذه المسألة ، فإنه يستند فيها على القواعد التى بنى عليها الإسلام وأولها الشهادة ، فهى التى تنقل غير المسلمين إلى الإسلام ، وبواسطتها مع إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وباقى الأركان يصبحون مسلمين وإخوانا فى الدين ، ولم يحدث أن ذكر الرسول صلوات الله عليه مسألة الامامة حين كان يدعو الناس للاسلام . وإنما دعى إلى الشهادة فحسب كما لم تظهر حاجة المسلمين حال حياته لأنه صلوات الله عليه كان إمام المسلمين وقد اتفق الشيعة وأهل السنة على أن المؤمنين الذين عاصروه وصاحبوه هم أفضل الخلق دون اعتناقهم لعقيدة الامامة التيرى الحلى أنها أهم مسائل الدين وهى عقيدة فاسدة ، لأن الايمان الصحيح الذى بينه الرسول ﷺ قائم على

(٢٩) منها السنة ج١ ص٢٧ .
(٣٠) منهاج السنة ج١ ص٢ .

عقيدة التوحيد ، ونبوة محمد والايمان بالملائكة والكتب والرسل والبعث بعد الموت ، ويستتبعه إقامة الصلاة وسائر العبادات والتكاليف[31] .

وإذا افترضنا أن الامامة هى أهم مسائل الدين ، لكان من الجدير أن يوضحها الكتاب ولأظهرها النبى ﷺ فإن القرآن يتضمن مواضيع عدة تتناول ذكر الخالق تعالى وصفاته واياته وملائكته ، كما يحتوى على قصص الأنبياء والرسل ، وينص فيه على الفرائض التى كلف المسلمين بأدائها . فلو كانت أهم مسائل الدين لنص عليها الكتاب ، كما فعل بالنسبة لغيرها من الموضوعات ، ولكنها لأن نصه (من خلع يدا من طاعة لقى الله يوم القيامة لا حجة له ، ومن مات وليس فى عنقه بيعة مات ميتة جاهلية) . كما يتفق مع حديث اخر ينهى الرسول صلوات الله عليه فيه عن الخروج من الطاعة ومفارقة الجماعة وهو ينطبق على الشيعة الذين يخرجون عن الطاعة ، ويفارقون جماعة المسلمين ويستشهد بحديث لا يسلم من النقد دراية أو رواية ، مع أنه حجة عليهم لأنهم لا يعرفون إمام زمنهم ، ويدعون أنه الغائب المنتظر (الذى لم يره أحد ولم يسمع له خبر ...ومعلوم أن هذا ليس معرفة بالامام) .

وقد أثار الحلى الاعتراضات التى يوجهها الشيعة لنظرية الامامة عند أهل السنة والجماعة ، وهى تتلخص بصورة عامة فيما يلى :

أولا : لم يجعلوا الأئمة محصورين فى عدد معين .

ثانيا : يعتقدون أن الامامة تنعقد للقرشى وتجب طاعته على جميع المسلمين بمجرد مبايعته .

---

(٣١) منهاج السنة ج١ ص١٦ .

ويسهب ابن تيمية على طريقته فى التحليل والنقد فى الرد ، فيتناول النقاط التى أثارها الحلى بالتفصيل الاتى(٣٢) :

أولا : أن أهل السنة متفقون على عصمة الأنبياء فى تبليغ الرسالات ، وكل ما يبلغونه عن الله تعالى من أمر ونهى فهم مصدقون ، واتفق أهل السنة والجماعة على هذه العقيدة ما عدا طائفة الخوارج التى اعتبرت العصمة للنبى ﷺ قاصرة على ما يبلغه عن الله ، لا فيما يأمر أو ينهى به ، وهذا خطأ عند ابن تيمية ولا يجوز تحميل المسلمين جميعا بذنب قلة أخطأت ، ومع هذا فإن (الجمهور الذى يجوز الصغائر ومن يجوز الكبائر ، ويقولون أنهم لا يقرون عليها ، بل يحصل لهم بالتوبة منها من المنزلة أعظم مما كان من قبل ذلك(٣٣) .

أما دعوى عصمة الأئمة ، فلم تقم حجة تدعمها إلا ما يراه الشيعة من ضرورة عدم خلو العالم من أئمة معصومين ، وهو علة اللطف والمصلحة . ويعود ابن تيمية – كدأبه دائما – ليستقرئ الأحداث التاريخية فى هذه النقطة ليدلل بها على أن اللطف لم يتحقق طوال عصور الأئمة الشيعة الاثنى عشر . ويذهب إلى أبعد من هذا ، فيعقد مقاربة بين على بن أبى طالب والخلفاء حيث تمتع المؤمنون فى ظل حكم الأوائل بالاستقرار والأمن ، وكانت المصلحة واللطف متحققين فى نطاق أوسع مما كان خلال حكم الامام على لحدوث القتال والفتنة . فمن خطأ العقيدة وضع الامام المنتظر الغائب وأجداده المتقدمين فى نفس مرتبة الرسول ﷺ – وهو وحده الذى انفرد بالعصمة والسلطان ، ولم يثبت أن تلاه أحد من الأئمة المعتقد فى عصمتهم الذين تولوا الحكم بمبايعة ذى الشوكة إلا عليا وحده . ثم يصرح بهذه العبارة التى لا يمل من ترديد معناها فى جنبات كتابه « منهاج السنة » (وكانت مصلحة المكلفين

(٣٢) نفس المصدر ص٢٧ .
(٣٣) منهاج السنة ج٣ ص٨٢ .

واللطف الذى حصل لهم فى دينهم ودنياهم فى ذلك الزمان أقل منه فى زمن الخلفاء الثلاثة ، فعلم بالضرورة أن ما يدعونه من اللطف والمصلحة الحاصلة بالأئمة المعصومين باطلة قطعا[٣٤]) .

أما حصر الأئمة فى عدد معين ثابت ، فإنه يسهل الاستدلال على عدم صحته بقوله تعالى : ﴿ **يا أيها الذين امنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم** ﴾[٣٥] وكذلك الأحاديث المروية عن الرسول ﷺ لم يوقتهم فيها بعدد معين .

وقول الحلى بأنه بمجرد بيعة القرشى يصير إماما غير صحيح من عدة وجوه هى :

الأول : ليس من مذهب أهل السنة أنه بمجرد المبايعة للقرشى يصبح إماما منعقد واجب الطاعة ، إنه لا بد من توافر شروط أخرى ، منها الشورى ، فقد قال عمر بن الخطاب : « من بايع رجلا بغير مشورة من المسلمين ، فلا يبايع هو ولا الذى بايعه[٣٦] » .

الثانى : لايجيز أهل السنة طاعته - حتى ولو كان إماما عادلا - إلا فيما لا يعد معصية ، فالطاعة مشروطة بتوافق أوامره ونواهيه مع الأوامر والنواهى التى رسمها الشرع ، كالأمر بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والصدق والعدل والحج والجهاد فى سبيل الله مصداقا للاية ﴿ **أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم** ﴾ فالطاعة المطلقة لا تكون إلا لله تعالى ، وطاعة الرسول ﷺ واجبة لأنه لا يأمر إلا بطاعة الله (وجعل طاعة أولى الأمر داخلة فى ذلك ولم يذكر لهم طاعة ثالثة لأن ولى الأمر لا يطاع طاعة مطلقة وإنما يطاع فى

(٣٤) منهاج السنة ج٢ ص٨٤ .
(٣٥) آية ٥٩ - النساء .
(٣٦) منهاج السنة ج٢ ص٨٥ .

المعروف[٣٧]، والأحاديث فى معنى الطاعة متوفرة ومتحدة القصد ، منها : إنما الطاعة فى المعروف ولا طاعة فى المعصية ، ولا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق ... الخ .

أما شرط القرشية فإن ابن تيمية ينزع إلى الغض منه عند عدم توافره ، فهو لا يحبذ التفاخر بالأنساب ، ويرى أن من الفضائل التى يحث عليها الإسلام التباعد عن الفخر كما يقول صلوات الله عليه : « **إنه أوحى إلى أن تواضعوا حتى لا يفخر أحد على أحد ، ولا يبغى أحد على أحد** » فنهى بهذا عن الاستطالة على الناس والتفاخر ، فإن كان الرجل ينتمى حقيقة إلى الطائفة الفاضلة كبنى هاشم أو قريش ، فإنه يخطئ إذا تطاول على غيره بهذا الانتماء (لأن فضل الجنس لا يستلزم فضل الشخص ... فرب حبشى أفضل عند الله من جمهور قريش[٣٨] .

والإمامة عند ابن تيمية عبارة عن عقد ، وهو بهذا الاعتبار ل يأت بجديد عن هذه النظرية التى طرقها علماء أهل السنة قبله . فإن علماء الفقه يجمعون على هذا الرأى لأن الإمامة عندهم هى عقد مبايعة بين الامام وبين أهل الحل والعقد[٣٩] ، ومن التعاريف التى وضعها الماوردى لهذا العقد مثلا أنه (عقد مرضاة واختيار لا يدخله إكراه أو إجبار[٤٠]) .

ولكن ابن تيمية أوضح بصفة خاصة حظر الاتفاق فى أى عقد على ما يخالف كتاب الله ، وعرض لما اتفق عليه العلماء من بطلان الشروط المناقضة لحكم الله ، فيقول : « فهذه الشروط مخالفة لحكم الله ورسوله . فهى باطلة باتفاق المسلمين ، وهذا فى جميع العقود[٤١] . ويستدل أيضا بنصوص كثيرة

(٣٧) نفس المصدر ص ٨٥ .
(٣٨) ابن تيمية : اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم ص١٦٤ – ١٦٥ .
(٣٩) محمد نجيب المطيعى : حقيقة الإسلام وأصول الحكم .
(٤٠) الماوردى : الأحكام السلطانية ص٥ .
(٤١) ابن تيمية : نظرية العقد ص١٥ .

تؤيده فيما ذهب إليه ، ومنها الحديث الذى ورد فى الصحيحين ونصه : « **من أطاعنى فقد أطاع الله ، ومن عصانى فقد عصى الله ، ومن أطاع أميرى فقد أطاعنى ، ومن عصا أميرى فقد عصانى** » ، ولهذا فلو ولى شخص ، وكان شرط توليته أن يحكم بغير حكم الله ، فإن هذا الشرط يقع باطلا ولا يعتد به .

وكان لزاما على ابن تيمية أن يوضح معالم النظرية السياسية الإسلامية للرد على الامامية فعالجها من زاوية ما أسماه بالسياسة الشرعية .

السياسة الشرعية :

قدم ابن تيمية لكتابه (السياسة الشرعيه فى إصلاح الراعى والرعية بكلمة يقول فيها : « أما بعد ، فهذه رسالة مختصرة فيها جوامع من السياسة الالهية[٤٣] وسيتضح لنا حالا السبب فى ربطه بين السياسة والخالق جل شأنه ، فالكتاب الكريم حافل بالايات التى تأمر بالعدل ، وتحض على اتباعه ، وتنهى عن الظلم وتأمر باجتنابه فى مثل قوله تعالى : ﴿ **إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل** ﴾[٤٤] .

وهذه الاية – مع غيرها من الايات القرانية التى تنص على العدل والقسط تعنى أنه ليس لحاكم أن يحكم بظلم أبدا . لأن الله تعالى رسم الطريق القويم العادل فإن حكم الله هو (أحسن الأحكام والشرع وهو ماأنزل الله ، فكل من حكم بما أنزل الله فقد حكم بالعدل[٤٥] .

أما الاية الثانية التى يخاطب فيها الله عز وجل الرعية بقوله : ﴿ **ياأيها الذين أمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم فإن تنازعتم فى شئ**

(٤٢) نفس المصدر ص١٧ .

(٤٣) ابن تيمية : السياسة الشرعية ص١ . ويقول لاووست : « إن ابن تيمية فى هذا الكتاب قد تميز بعرض ينفرد به كلية حيث حدد مسأة طبيعية وأشكال وصفات الدولة ، فأصبح بعرضه هذا ينفرد عما هو معروض بالطرق التقليدية للمدرسة السنية » .

(٤٤) الآية رقم ٥٨ من سورة النساء .

(٤٥) منهاج السنة ج٣ ص٣١ .

صلى الله عليه وسلم

فردوه إلى الله والرسول ﴾[٤٦] . فإن هذه الاية تكمل الهدف الذى تعنيه الاية الأولى . فأولهما موجهة لأولى الأمر حيث أو جبت عليهم الحكم بالعدل ، والثانية خاصة بالرعية ليطيعوا ولاة أمورهم فيما أمر به الله ، فإذا أمروا بمعصية فلا طاعة لهم كما ينبغى فى حالة الاختلاف الرجوع إلى كتاب الله وسنة رسوله صلوات الله عليه فإذا كانت الاية قد أوجبت أداء الأمانات إلى أهلها والحكم بالعدل فهذان جماع السياسة العادلة والولاية الصالحة[٤٧] .

وقد أكد الرسول ﷺ شريعة العدل ، وحرم ظلم المسلمين أحياء وأمواتا كما حرم دماءهم وأموالهم وأعراضهم ، لهذا كانت خطبة الرسول ﷺ فى حجة الوداع متضمنة لهذه الأحكام بقوله : **« إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا فى شهركم هذا ألا هل بلغت ، ألا فليبلغ الشاهد الغائب »**[٤٨] هذه هى الاجتهادات المنقولة عن شيخ الإسلام.

وقد بايعه تلميذه ابن القيم ، وصاغ فكرة العدالة فى إطار الشريعة فأصبحت العدالة عنده هى المتفقه مع أحكام الشريعة ، وبالعكس فما لا ينطبق على الشريعة يعد غير عادل ، فإن غاية اشريعة صلاح العباد فى المعاش والمعاد فأتت بأحكام بلغت الدرجة القصوى من حيث العدالة ، ولا تعدو السياسة العادلة كونها جزءا من أجزاء الشريعة وفرعا من فروعها والنتيجة المترتبة على هذا التصور لفكرة العدالة وعلاقتها بالشريعة أن أصبحت السياسة عند ابن القيم نوعين (سياسة ظالمة ، فالشريعة تحرمها ، وسياسة عادلة تخرج الحق من الظالم الفاجر بيعن الشريعة[٤٩] . ولا يوافق تلميذ ابن تيمية على فصل السياسة عن الشريعة ، ويذكر أن السياسة العادلة هى الموافقة لما جاء به الشرع ولا فصل

(٤٦) الآية رقم ٥٩ من سورة النساء .
(٤٧) ابن تيمية : السياسة الشرعية ص٣ .
(٤٨) ابن تيمية : منهاج السنة ج٣ ص٣٣ .
(٤٩) ابن القيم : الطرق الحكمية ص٤ .

بينهما ، ويبرر استعماله لمصطلح السياسة بقوله : « ونحن نسميها سياسة تبعا لمصطلحكم[50] ، وإنما هى فى الحقيقة (عدل الله ورسوله) فإن الله أرسل الرسل وأنزل الكتب ليقوم الناس بالقسط الذى قامت به السموات والأرض . فالسياسة العادلة إذالا هى جزء من أجزاء الشريعة التى اكتملت أركانها لمعالجة شئون العباد . أما تقسيم طرق الحكم إلى شريعة وسياسة ، أو تقسيم الدين إلى شريعة وحقيقة أو إلى عقل ونقل ، فإن كل هذه التقسيمات باطلة فنقول (بل الساسة والحقيقة والطريقة والعقل كل ذلك ينقسم إلى قسمين ، صحيح وفاسد فالصحيح قسم من أقسام الشريعة والباطل ضدها ومنافيها[51].والشريعة كاملة الأحكام غنية بذاتها عما عداها فلم يأت تصور قصورها عن تحقيق صالح المسلمين إلا لسببين :

أولهما : تقصير البعض فى معرفة الشريعة ، وعدم القدرة على مطابقتها مع الواقع ، مما أدى إلى تعطيل الحدود وضياع الحقوق ، فتجرأ البعض على انتهاك حرمات الشريعة والضرب بها عرض الحائط .

وثانيهما : قابل الاتجاه الأول إتجاه غالى فى التعسف وطبق الشريعة بطريقة خاطئة لا توافق حكم الله ورسوله ﷺ (وكلا الطائفتين أتيت من تقصيرها فى معرفة ما بعث الله به رسوله وأنزل به كتبه)[52] أى لم تستهدف العدل الذى أقام الله تعالى به السموات والأرض .

ويبدو أن استعمال مصطلح (السياسة الشرعية) والتقسيم الذى وضعه ابن القيم كان له تأثيره فيما بعد ، إذ نلاحظ أن المقريزى (٨٤٥هـ - ١٤٤١م) يستعمل هذا الاصطلاح عندما يطرق نفس الموضوع . ويتناوله بالتحديد ، فيذكر أن المسلمين فى عصره ، بل منذ عهد الدولة التركية

---

(٥٠) ابن القيم : الطرق الحكمية ص١٤ .

(٥١) ابن القيم : إعلام الموقعين ج٤ ص٣١١ .

(٥٢) ابن القيم : الطرق الحكمية ص١٤ .

يقسمون الأحكام إلى شرعية وسياسية ، والسياسية بدورها نوعان : **العدالة** وهى تتبع الأحكام الشرعية والظالمة التى تحرمها الشريعة ، والسياسة هى كلمة مغولية أصلها (ياسة) ثم أدخلت عليها حرف السين (فظن من لا علم عنده أنها كلمة عربية) .

وينسب المقريزة إلى جنكزخان كتاب (الياسا)[٥٣] الذى فيه القواعد والعقوبات واتخذ منها شريعة لقومه ، وظل متداولا بين أيدى أولاده واحدا بعد واحد ، يلتزمون به كالتزام أوائل المسلمين بالقران . ولما كثرت طوائف المغول وانتشرت فى البلاد الإسلامية واعتنقوا الإسلام دينا ، ولقنوا تعاليم الكتاب الكريم ، وعرفوا أحكام الشريعة فجمعوا بين ما جاء بها من الحق ، وبين ما تضمنه كتاب (الياسا) من الباطل ، وقاموا بتفويض قاضى القضاة أحكام العبادات والأقضية الشرعية ، ومع تأثرهم بالقواعد التى رسمها لهم زعيمهم جنكزخان فى (إلياسا) نصبوا ما يسمونه (الحاجب) ليقضى بينهم بقواعده فى الأموال عند اختلافهم[٥٤] .

(٣)المـــــرجئـة :

رأينا كيف بدأ الاختلاف بين المسلمين وما نجم عنه من ظهور اراء ونظريات الفرق مثل الخوارج والشيعة ، وقد دخل هذا المعترك أيضا فريق ثالث هم المرجئة .

وكلمة (مرجئة) مشتقة من (أرجأ) بمعنى آخر أمهل ، فهم يرجئون أمر هؤلاء المختلفين إلى يوم القيامة ، وبعضهم يشتق اسمهم من (أرجأ) بمعنى بعث الرجاء فى نفوس العصاة ، فهم يؤملون كل مسلم عاص بأن يتوب ويرجع إلى الله[٥٥] .

(٥٣) المقريزى : الخطط ج٣ ص٣٥٧ .

(٥٤) نفس المصدر ج٣ ص٣٥٩ .

وينظر كتاب (نظام الخلافة فى الفكر الإسلامى) د. مصطفى حلمى – دار الدعوة – الاسكندرية .

(٥٥) أحمد أمين : فجر الإسلام ص٢٧٩ .

ثم بدأت هذه الفرقة تتناول المسائل الثلاث التى بحثها قبلهم الخوارج والشيعة .

وقد تبين لنا أن الخوارج تعد كل كبيرة كفرا ، كما ذهب الشيعة إلى اعتبار الإمامة ركنا أساسياً فى الإسلام ، وجاء المرجئة فأعلنوا أن الإيمان هو المعرفة بالله سبحانه وتعالى ورسله عليهم السلام ، فمن عرف أن لا إله إلا الله محمد رسول الله فهو مؤمن ، أى أنهم لم يشترطوا العمل مع الإيمان ، فكان ذلك رداً على الخوارج – الذين اشترطوا الإتيان بالفرائض والكف عن الكبائر ، وكان هذا الرأى أيضا بمثابة الرد على الشيعة الذين يعتقدون أن الإيمان بالإمام والطاعة له جزء من الإيمان .

وقد عرض ابن تيمية لمذهب المرجئة وأرجع أصول الخطأ عندهم إلى عاملين :

الأول : ظنهم أن الايمان فى مرتبة واحدة ، فقالوا إيمان الملائكة والأنبياء وأفسق الناس سواء ... بينما الايمان الذى أوجبه الله يتباين تباينا عظيما ، فيجب على الملائكة من الايمان ما لايجب على البشر ، أو يجب على الأنبياء مالا يجب على غيرهم ، وليس المراد هنا انه يجب عليهم من العمل فحسب ، بل ومن التصديق والاقرار أيضا .

الثانى : لم يفطن المرجئة إلى تفاضل الناس فى الاتيان بالأعمال ، فليس إيمان من أدى الواجبات كإيمان من أخل ببعضها وليس إيمان السارق والزانى الشارب للخمر كإيمان غيرهم[٥٦] .

---

(٥٦) ابن تيمية : الفرقان بين الحق والباطل ص٢٩ .

(٤) القـدرية (نفـاة القـدر) :

يقول ابن تيمية (ثم فى آخر عصر الصحابة حدثت القدرية وتكلم فيهم من بقى من الصحابة كابن عمر وابن عباس ووائلة بن الأسقع وغيرهم[٥٧] وهم يقولون الأمر مستقبل وأن الله لم يقدر الكتاب والأعمال . ويقال إن أول من ابتدعه بالعراق رجل من أهل البصرة من أبناء المجوس ، وتلقاه عنه معبد الجهنى وأخذ غيلان عن معبد[٥٨] .

وسيأتى الشرح والتحليل لعقيدة الايمان بالقدر ، وتمهيدا ، لذلك فإننا نضع هنا أمام القارئ نبذة مختصرة عنها .

فإن مذهب أهل السنة والجماعة فى الايمان بالقدر يقتضى - كما ينص على ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية - ان الله تعالى خالق كل شئ وربه ومليكه لا رب غير ولا خالق سواه ، ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن .

وما يصيب العبد من النعم فالله أنعم عليه ، وما يصيبه من الشر فبذنوبه ومعاصيه ، كما قال تعالى ﴿ **وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم** ﴾ وقالى تعالى ﴿ **ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك** ﴾ أى ما أصابك من خصب ونصر فالله أنعم به عليك ، وما أصابك من حزن وذل وشر فبذنوبك وخطاياك . وكل الأشياء كائنة بمشيئة الله وقدرته وخلقه ، فلا بد أن يؤمن العبد بقضاء الله وقدره ، وان يوقن العبد بشرع الله وأمره .

---

(٥٧) ابن تيمية : النبوات ص١٤٢ .

(٥٨) شرح عقيدة الاسفراينى ج١ ص٢٥١ .

والقدر السابق لايحول بين العبد وبين العمل وفقا لشرع الله تعالى وأوامره الدينية ، وفقد ورد فى الصحيحين عن على بن أبى طالب رضى الله عنه قال **« كنا مع رسول الله ﷺ ببقيع الغرقد فى جنازة فقال : ما منكم أحد إلا قد كتب مقعده من النار ومقعده من الجنة فقالوا : يارسول الله : أفلا نتكل على الكتاب وندع العمل ؟ قال اعملوا ، فكل ميسر لما خلق له ، أما من كان من أهل السعادة فسييسر لعمل أهل السعادة ، وأما من كان من أهل الشقاوة فسييسر لعمل أهل الشقاوة ، ثم قرأ قوله تعالى ﴿ فأما من اعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى ﴾** .

ويتضح من ذلك أن ارتباط الأفعال بالنتائج فى السلوك الانسانى كارتباط الأسباب بالمسببات فى العالم الطبيعى بحكم العقل والتجربة ، فإن الزرع ينبت ببذر البذور والسقاية بالماء ، والشبع يتحقق بالأكل ، والرى بالشرب والموت يكون بالقتل الخ ...

لذلك حث الرسول ﷺ على العمل وحض عليه وكان الاسوة الحسنة فى عمل كل مايحبه الله تعالى ويرضاه وأمرنا بذلك ، ففى الحديث الصحيح عن النبى ﷺ أنه قال **« المؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف ، وفى كل خير ، احرص على ما ينفعك وإستعن بالله ولا تعجزن ، إن أصابك شئ فلا تقل لو أنى فعلت كذا لكان كذا وكذا ، ولكن قل قدر الله وما شاء فعل ، فإن لو تفتح عمل الشيطان »** .

فأمرنا النبى ﷺ بشيئين : أن نحرص على ما ينفعنا وهو أمتثال الأمر وهو العبادة وهو طاعة الله ورسوله وان نستعين بالله وهو يتضمن الايمان بالقدر فإنه لاحول ولا قوة وإلا بالله ، وأنه ما شاء الله كان ومالم يشأ ! يكن .

أما من ظن أنه يطيع الله بلا معونته – كما يزعم القدرية – فقد جحد قدرة الله التامة ومشيئته النافذة ، وخلقه لكل شئ . ومن ظن فى الطرف الاخر المقابل انه إذا اعين على ما يريد كان محمودا سواء وافق الأمر الشرعى الدينى أو خالفه ، فقد جحد دين الله وكذب بكتبه ورسله ووعده ووعيده واستحق من غضبه وعقابه أعظم ما يستحقه الأول .

إذن لابد من الايمان بالقدر مع الاذعان للأمر والنهى الشرعيين وإذا أحسن العبد حمد الله تعالى وإذا أساء استغفر الله تعالى ، وعلم أن ذلك بقضاء الله وقدره فهو من المؤمنين ، فان ادم – عليه السلام – لم أذنب تاب فاجتباه ربه وهداه ، وإبليس أصر واحتج فلعنه الله وأقصاه فمن تاب كان ادميا ومن أصر وأحتج بالقدر كان ابليسيا فالسعداء يتبعون أباهم ، والأشقياء يتبعون عدوهم ابليس[٥٩] .

هذه هى الفرق الأربعة التى ظهرت فى عصر الصحابة ، فقد حدثت الخوارج والشيعة فى فتنة مقتل عثمان بن عفان رضى الله عنه ، وظهرت المرجئة والقدرية فى اواخر العصر ، يقول عبد الله بن المبارك (أصول البدع أربعة الخوارج والشيعة والقدرية والمرجئة[٦٠] .

(٥٩) ابن تيمية : النبوات ص١٤٢ – ١٤٣ .

(٦٠) مجموع فتاوى ابن تيمية ج٢ ص٦٣ – ٧٣ باختصار .

٥ - (الجهميـــة) أتباع جهم بن صفوان :

أى بدعة الجبر ونفى الصفات الالهية :

نشأ الجهم بن صفوان بسمرقند بخراسان وكان تلميذ الجعد بن درهم وتلقى عنه منهجه فى التأويل .

ويروى أن خالد بن عبد القسرى خطب الناس بواسط فقال : (يا أيها الناس ، ضحوا تقبل الله منكم ، فإنى مضح بالجعد بن درهم ، فإنه زعم ان الله لم يتخذ ابراهيم خليلا ، ولم يكلم موصى تكليما ، سبحانه وتعالى عما يقول الجعد علوا كبيرا ، ثم نزل فذبحه) .

قال الذهبى (والجهمية والمعتزلة تقول هذا ، وتحرف نص التنزيل فى ذلك وزعموا أن الرب منزه عن ذلك[٦١] .

وإلى جهم ينسب الجبر ونفى الصفات الالهية ، فبدعه العلماء وفسقوه لأن تأويلاته المنحرفة خالفت النصوص الشرعية الدالة على إثبات الصفات والأسماء الحسنى لله تعالى ، والمثبتة لحرية الانسان ومسئوليته عن أفعاله ونفى الجبر عنه . وقد تصدى للرد عيه أئمة أهل السنة أمثال ابن حنبل وابن قتيبة وابن المبارك وغيرهم .

ومن العجب أنه بالرغم من اعتقاد جهم بن صفوان بالجبر إلا أنه خرج مع الحارث بن سريج على بنى أمية وقتل مما ينبئ على فعله ما لا يعتقد إذ لو اعتقد الجبر حقيقة لانعكس أثره على فعله ومنعه من الخروج على بنى أمية .

---

(٦١) الذهبى : العلو للعلى الغفار ط المكتبة السلفية بالمدينة المنورة ١٣٨٨هـ - ١٩٦٨م .

ومع انه يعد جبريا كما وصفه الشهرستانى ، إلا أنه فى الوقت نفسه يعد من شيوخ المعتزلة لقوله بنفى الصفات وخلق القران[٦٢] .

ويعطينا الأشعرى صورة أدق وأشمل لمعتقداته حيث يذهب إلى أنه (لا فعل أحد فى الحقيقة إلا الله وحده ، وانه هو الفاعل وان الناس انما تنسب إليهم أفعالهم على المجاز كما يقال : تحركت الشجرة ودار الفلك وزالت الشمس ، إنما فعل ذلك بالشجرة والفلك والشمس الله سبحانه ، إلا أنه خلق للانسان قوة كان بها الفعل ، وخلق له إرادة للفعل واختيارا له منفردا بذلك كما خلق له طولا وكان به طويلا ولونا وكان به متلونا)[٦٣] .

والمغالطة فى قوله واضحة فى التسوية بين أفعال العبد والصفات التى خلقوا بها كما يتبين من معالجتنا لمسألة القضاء والقدر ، فإن خلقه الانسان : طوله وعرضه وباقى صفاته ليست مرادا له ولامقدورا له ، وأما أفعاله الداخلة تحت مشيئته وقدرته فهى أفعال له ومقدوره ومراده[٦٤] .

وقد بدأ الصحابة فى استخدام اصطلاح البدعة مقابل (السنة) إذ عدوا كل من خرج على السنة فهو من قبيل البدع (فإن السنة التى يجب إتباعها هى سنة رسول الله ﷺ ، والسنة تذكر فى الأصول والاعتقادات ، وتذكر فى الأعمال والعبادات وكلاهما يدخل فيما أخبر به وأمر به[٦٥] .

ويقسم ابن تيمية البدع إلى نوعين : نوع كان يقصد أهلها متابعة النص فأخطأ فى فهم الايات القرانية والأحاديث ، كالخوارج والشيعة المعتدلين

---

(٦٢) أحمد أمين : ضحى الإسلام ج٣ ص٨١ .

(٦٣) الأشعرى : مقالات الإسلاميين ج١ ص٣١٢ تحقيق محيى الدين عبد الحميد ط النهضة ١٩٥٠م .

(٦٤) ابن تيمية : منهاج السنة ج١ ص٥٨ .

(٦٥) ابن تيمية : النبوات ص٦٧ (السنة والبدعة بالتفصيل) .

والمرجئة . أما النوع الثانى – وهو الجهمية – فلم يكن أصل دينهم إتباع الكتاب والرسول ﷺ إذ أنهم نفوا الصفات التى أثبتتها النصوص .

ويقول فى عبارة جامعة[٦٦] « ولا يجوز أن يكون فى القران ما يخالف صريح العقل والحس إلا وفى القران بيان معناه ، فإن الله جعله شفاء لما فى الصدور وبيانا للناس ، فلا يجوز أن يكون بخلاف ذلك ، لكن قد تخفى اثار الرسالة فى بعض الأمكنة والأزمنة حتى لا يعرفون ما جاء به الرسول ﷺ إما أن لا يعرفوا اللفظ ولا يعرفوا معناه ، فحينئذ يكونون فى جاهلية بسبب عدم نور النبوة ومن هنا يقع الشر وتفرق الدين التى تحدث بالسيف ، فالفتن القولية والعملية هى من الجاهلية بسبب خفاء نور النبوة عنهم فإذا انقطع نور النبوة عنهم وقعوا فى البدع وحدثت البدع والفجور ، ووقع الشر بينهم ، فمسائل النزاع فى الأصول والفروع إذا لم ترد إلى الله ورسوله صلى الله عليه وسلم لم يتبين فيها الحق بل يصير المتنازعون فيها على غير بينة من أمرهم .

وقبل الانتقال إلى بحث ما الت إليه هذه الانشقاقات فى دوائر المتكلمين ، وأكبرهم المعتزلة والأشاعرة ، علينا بحث موقف السلف حينذاك ، فترى فى وصف أبى حنيفة ما يوضح لنا الاتجاه الصحيح السائد للمسلمين ، المعارض لكل ما حدث من نزاع ، فقد سئل عن أهل الجماعة ، فأجاب :

« **الجماعة سبعة أشياء** » أن يفضل أبا بكر وعمر ، وأن يحب عثمان وعليا ، وأن يصلى على من مات من أهل القبلة بذنب ، وألا ينطق فى الله بشئ ، من رأيه ولكنه يصفة بما وصف به نفسه » .

وكذلك قال من أصحابه أبو يوسف : « مذهب أهل الجماعة عندنا وما أدركنا عليه جماعة أهل الفقه ، ممن لم يأخذ من البدع والأهواء ، أن لا يشتم

(٦٦) ابن تيمية : النبوات ص٩٥ .

أحدا من أصحاب رسول الله ﷺ ، ولا يذكر فيهم عيبا ، ولا يذكر ما شجر بينهم فيحرف القلوب عنهم ، وأن لا يشك بأنهم مؤمنون ، وأن لا يكفر أحدا من أهل القبلة ممن يقر بالإسلام ، ويؤمن بالقران ، ولا يخرجه من الايمان بمعصية إن كانت فيه ، ولا يقول بقول أهل القدر ، ولا يخاصم فى الدين فإنها من أعظم البدع .

وهكذا اتضحت عقيدة أهل السنة والجماعة لتجابه أيضا الانشقاق الذى حدث على أيدى المعتزلة كما سنرى :

(٦) المعتـــزلة :

أصول المعتزلة واعترضات علماء السنة عليها :

تعـــريف :

تكاد تجمع المصادر التاريخية وكتب الفرق على أن نشأة مذهب الاعتزال ترجع إلى اختلاف واصل بن عطاء مع شيخه الحسن البصرى (١١٠هـ) فى الحكم على مرتكب الكبيرة ، واعتزاله مجلسه لهذا السبب ، فيما عدا هذه الرواية الشهيرة فإن الملطى توفى سنة (٣٧٧) - يعود بنشأة المعتزلة إلى أيام تنازل الحسن بن على عن الخلافة لمعاوية بن أبى سفيان ، لأنهم كانوا من أصحاب على فاعتزلوا الناس ولزموا البيت والمساجد قائلين (نشتغل بالعلم والعبادة فسموا بذلك « المعتزلة » ... والأرجح الرواية الأولى .

وعلى أية حال ، فقد انفصل الخوارج عن الجماعة للأسباب التى ذكرناها ، انفا ، وفعل المعتزلة بالمثل بطريقة أخرى ، وأطلقوا على أنفسهم إسم المعتزلة مشتركين معا فى أعتقاد الأصول الخمسية التى وضعوها ، ففارقوا جماعة المسلمين وانفصلوا عنهم حريصين على التمييز والظهور بما أعلنوه من عقائد

مخالفة ، ولهذا فقد قوبلوا بالاستنكار والمعارضة من جانب العلماء ، لأنهم ابتدعوا اراء لم يعرفها الأوائل كالحكم على مرتكب الكبيرة بأنه فى (منزلة بين المنزلتين) ونفى القدر . فكان عبد الله بن المبارك حينذاك يحذر المسلمين منهم بقوله (أيها الطالب علما ايت حماد بن زيد ، فخذ العلم بحلم ، ثم قيده بقيد ، وذر البدعة من اثار عمرو بن عبيد) ومنه نفهم الانشقاق الذى بدأ يظهر بين علماء الحديث والمتكلمين منذ بزوغ المسائل الكلامية فى مهدها ، إذ كان عمرو بن عبيد قبل ذلك منخرطا فى سلك الجماعة الإسلامية ، مرتبطا بالأصول الإسلامية ، منتميا إلى حلقة الحسن البصرى امام البصرة الكبير ، ولكنه بإعلانه لرأيه المخالف لرأى الجماعة اعتبر مبتدعا ، فوصفه ابن حبان بأنه كان من أهل الورع والعبادة إلى أن احدث ما أحدث واعتزل مجلس الحسن ، وجماعة معه فسموا معتزلة ، وكان يشتم الصحابة ويكذب فى الحديث وهما لا تعمدا ...

الأصول الخمسة عند المعتزلة :

والأصول الخمسة التى اتفقوا عليها هى :

التوحيد ، العدل ، والوعد والوعيد ، المنزلة بين المنزلتين ، الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، فمن أنقص منها أو زاد عليها أصلا واحدا لا يستحق لقب الاعتزال .

ولافكار المعتزلة مظهر براق كالمعدن المزيف يجذب بظاهره العيون ، ولكن سرعان ما يظهر بريقه الزائف من يتعمق فى فهمه ، فإذا دققنا فى فهم أصولهم واحدا فواحدا ، تحليلا لها ومقارنة بما يقابلها من عقائد أهل السنة والجماعة ، ظهر لنا زيف بريقها .

إن مرادهم بالتوحيد(٦٧) نفى صفات الله تعالى ، وقد أورد عقيدتهم كاملة أبو الحسن الأشعرى فى كتابه (مقالات الإسلاميين) ، ومنها نستقى بعض ما ذهبوا إليه فى هذا الأصل ، إذ أجمعوا على أن الله واحد ليس كمثله شئ وهو السميع البصير وليس بجسم ولا جوهر ولا عرض ، ولايحيط به مكان ولا يجرى عليه زمان ولا تجوز عليه الممارسة ولا الحلول فى الامكان ، ولا يوصف بشئ من صفات الخلق الدالة على حدوثهم ، وكل ما خطر بالبال وتصور بالوهم فغير مشبه له ، لم يزل سابقا للمحدثات ، موجودا قبل المخلوقات ، ولم يزل عالما قادرا حيا ولا يزال كذلك ، لا تراه العيون ولا تدركه الأبصار .

(٦٧) فجر المعتزلة باختيارهم للأصول الخمسة كما قلنا فى مقدمة هذا الكتاب مسألة المصطلحات وكيف نستخدمها فى نطاق العلوم الإسلامية . وهم ينشئون ويفخرون بأصلين من هذه الأصول هما (التوحيد والعدل) ، وقد قصدوا فى الحقيقة بالأول نفى الصفات الإلهية ، وبالثانى نفى القدر

وقبل الدخول فى إيضاح أصولهم الخمسة فإن ما يجدر مناقشته أولا هو ضرورة الاتفاق على تعريف موضوعى فى دائرة الإسلام نفسه ، فما هو أصل التوحيد عند المسلمين الأوائل الذى فهمه من الكتاب والسنة ؟

يقرر شيخ الإسلام ابن تيمية أن « التوحيد الذى بعث الله به رسوله وأنزل به كتابه هو عبادة الله وحده لا شريك له ، وهو توحيد ألوهيته المتضمن توحيد ربوبيته ، كما قال تعالى : ﴿ **وإلهكم إله واحد** ﴾ وقوله : ﴿ **لا تتخذوا إلهين اثنين إنما هو إله واحد فإياى فارهبون** ﴾ وقوله عز وجل : ﴿ **وما أرسلنا من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون** ﴾ .

إن دعوة الرسل اذن قائمة على هذا التوحيد المنافى لعقيدة الشرك التى اعتنقها المشركون ، حيث كانوا يقرون بأن رب العالمين واحد ، لكن كانوا يعبدون معه غيره ، كما قال تعالى : ﴿ **وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون** ﴾ وقال عز وجل : ﴿ **ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله** ﴾ .

(ينظر شرح العقيدة الأصفهانية ص٢٠ - ٢١ لابن تيمية ط كردستان بمصر سنة ١٣٢٩هـ .

ويمضى الأشعرى – وهو خبير بعقائدهم لأنه كان معهم طوال أربعين عاما فينقل لنا ما قالوه فى (**التوحيد**) ، ويكفى من الاطلاع عليها معرفة الألفاظ والمصطلحات الفلسفية ، فضلا عن استخدام أوصاف غير لائقة تجعلنا ندرك خلو القلوب والنفوس من الهيبة التى استشعرها المسلمون الأوائل ، ونفهم أيضا التعليق المنسوب للجنيد القائل (نفى العيب حيث يستحيل العيب عيب) . وربما عنى بذلك مثل اطلاقهم المترادفات الاتية (ولا بذى حرارة ولا رطوبة ولا يبوسة ولا طول ولا عرض ولا عمق ... الخ .

وغيرها من الألفاظ التى تتنافى مع أدب الحديث عن رب العالمين جل شأنه ومن هنا نفهم حكمة سكوت السلف الصالح عن مثل هذا الكلام واكتفائهم بالقران العظيم ، وهو دليل على عمق الايمان والعناية الفائقة بكتاب الله تعالى تلاوة وحفظا وعملا فأيقنوا أنه يغنيهم عن كل ما سواه .

والمفهوم من (**التوحيد**) وهو الأصل الأول عند المعتزلة وأنهم يعنون به إثبات وحدة الذات الإلهية فنفوا الصفات ظنا منهم أن إثباتها يؤدى إلى الشرك وأنكروا رؤية الله تعالى فى الآخرة وعن هذا الأصل أيضا تفرع قولهم فى القرآن بأنه محدث ، مخلوق . وقد وقف لهم علماء السنة بالمرصاد ودحضوا عقيدتهم بالحجج العقلية وشكلت مجادلة الامام أحمد معهم أهم سند لعقيدة أهل السنة والجماعة .

وقد ظن المعتزلة أنهم بنفى الصفات الالهية يؤكدون عقيدة التوحيد ، ويتحاشون التشبيه والتجسيم والحشو ، ووصفوا من خالفهم بهذه الصفات وهم أول من رموا مخالفيهم بهذه الصفات .

ويرى ابن تيمية عند نقده لهم أن الأسماء التى يتعلق بها المدح والذم من الدين لاتكون إلا من الأسماء التى أنزل الله بها سلطانه ودل عليها الكتاب والسنة والاجماع كالمؤمن والكافر والعالم والجاهل والمقتصد والملحد ، فاما هذه

الالفاظ الثلاثة فليست فى كتاب الله ولا فى حديث عن رسول الله ولا ينطبق بها أحد من سلف الامة وأئمتها نفيا ولا إثباتا ، ولذلك أصبح التوحيد عندهم مصطلحا يعنون به نفى جميع الصفات الالهية ، وكل من أثبت شيئا منها رموه بالتجسيم والتشبيه حتى أن من قال (إن الله يرى) أو (إن له علما) فهو عندهم مشبه مجسم ، وأما التوحيد الذى بعث الله به الرسل وأنزل به الكتب فليس هو متضمنا شيئا من هذه الاصطلاحات بل أمر الله عباده أن يعبدوه وحده لايشركوا به شيئا فلا يكون لغيره نصيب فيما يختص به من العبادة وتوابعها ، هذا فى العمل ، وفى القول : هو الايمان بما وصف به نفسه ووصفه رسوله) ولابد من التوحيد بالقول والكلام – وهو ان يصفوا الله بما وصفته رسله وهذا وحده لا يكفى فى السعادة ، والنجاة فى الاخرة ، بل لابد من أن يعبد الله وحده ، ويتخذ إلها دون سواه وهو معنى قول (**لا إله إلا الله**) **.إن هذا الفصل بين العلم والعمل وترجيح جانب على اخر ، وإثارة الجدل فى قضايا مستقرة ، كل هذه الأسباب قربتهم من الفلاسفة ، وحولت العقيدة النابضة بالحياة إلى نظريات يدور حولها النقاش وتختلف عليها وجهات النظر بين أخذ ورد .**

أضف إلى ذلك ، أن اية مقارنة بين صفات الله تعالى وأفعاله وأسمائه الحسنى وبين ما ابتدعوه بحجة التوحيد ، ترينا مدى الافتعال الظاهر من مصطلحاتهم فهى أدنى إلى ألفاظ الفلاسفة اليونان منها إلى ايات القران . والقران الكريم مملوء بإثبات صفات الله تعالى وأسمائه الحسنى ، فعن العلم نقرأ قوله تعالى ﴿ ولله غيب السموات والأرض وإليه يرجع الأمر كله فاعبده وتوكل عليه وما ربك بغافل عما تعملون ﴾ هود ٣٢١ .

قوله عز وجل **﴿ الرحمن على العرش استوى ، له ما فى السموات وما فى الأرض وما بينهما وما تحت الثرى . وان تجهر بالقول فانه يعلم السر**

وأخفى . **الله لا إله إلا هو له الأسماء الحسنى** ﴾ وقوله سبحانه ﴿ **الله يعلم ما تحمل كل أنثى وما تغيض الأرحام وما تزداد وكل شئ عنده بمقدار . عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال** ﴾ .

وعن القدرة ، يقول تعالى ﴿ **ذلك بأن الله هو الحق وأنه يحيى الموتى وأنه على كل شئ قدير** ﴾ ، ﴿ **يخلق ما يشاء إن الله على كل شئ قدير** ﴾ .

ثم انظر إلى القدرة التى تبهر القلوب وتحير العقول إذا فكر الإنسان فى أصله وفصله وحياته وموته وبعثه !! . قال تعالى ﴿ **ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين . ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين . ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما ثم أنشأناه خلقا اخر فتبارك الله أحسن الخالقين . ثم إنكم بعد ذلك لميتون . ثم إنكم يوم القيامة تبعثون** ﴾ المؤمنون ١٢ -١٦ .

ولزيادة الإيضاح فإننا سنتكلم عن :

آثار الإيمان بالصفات الالهية فى حياتنا الدنيوية :

ويتضح لقارئ القران الكريم والمطلع على السنة النبوية عنايتهما الفائقة بإثبات الأسماء والصفات الالهية . فما مغزى ذلك وما جدواه وما اثار فى حياتنا كبشر مخلوقين ، نتعلق بالرجاء والأمل ، ونخضع لعوامل القهر والخوف ، وتعترينا نوازع الضعف وهواجس الاخفاق ، ونتطلع إلى من يأخذ بيدنا ويحقق رجاءنا ويغذى نفوسنا بالطمأنينة والسكينة وسط بحر الحياة المتلاطم الأمواج ؟!!

قلنا من قبل ، ان الإنسان مفطور على معرفة ربه عز وجل والاقرار بوجوده ونستطيع القول هنا أيضا (على سبيل اليقين ، لا على سبيل الظن ، بأن صحائف الفكر البشرى لم تشهد انسانا بغير عقيدة فى إله

ولكن يأتى الاختلاف بين البشر فى التصور نفسه لاختلاف فى أساس الاعتقاد بوجود الله[٦٨] .

خذ مثلا فلسفة ارسطو التى تصف المبدأ الأول بواجب الوجود ، ولكنها ذاتا مجردة من كل وصف ، ولا دخل له فى أى شأن من شئون الكون ، فسدت بذلك باب الدعاء والالتجاء بل قطعت كل خيط من الامل والرجاء لدى بنى آدم ، إذ لا جدوى من محاولة أيجاد اية علاقة بينهم وبين (المبدأ الأول) كما تصوره هذه الفلسفة .

وعلى العكس خلقت عقيدة العرب الجاهلية كل صفة من صفات الاله على أشخاص من خلقه ، كالقدرة على الاحياء ، والرزق ، والعلم الخ ... فقطعت بذلك أيضا الرجاء فى سؤال الاله الواحد والالتجاء إليه ثم جاءت الايات القرانية والاحاديث النبوية . مذكرة الإنسان بصفات الله أى بعلمه وقدرته وسائر صفاته ، وأسمائه الحسنى .

فهو سبحانه الحى القيوم ، يجيب المضطرب إذا دعاه ويكشف عنه السوء وهو أقرب إليه من حبل الوريد ، وأنه عز وجل معه بعلمه أينما كان . حيث يطمئن قلبه ، ويجعله شديد الثقة بالعون الالهى ، إذ يؤمن أن لا ملجأ منه إلا إليه ، فيصبر عند البلاء ويشكر عند الرخاء : يستنصره فينصره ويسأله فيعطيه ، يستسقيه فيسقيه ، ويتقرب إليه فيقربه .

وهكذا تأتى الأسماء والصفات الالهية منبهة بنى ادم إلى حاجتهم الدائمة إلى خالقهم ورازقهم لكى لا يتوهم الاستقلال والغنى بذواتهم عن مولاهم ، وتفتح أمامهم باب الأمل فى حياة أفضل دائما سواء فى الدنيا أو الاخرة .

---

(٦٨) د. زكى نجيب محمود : الله وحياة الإنسان فى فكره وسلوكه ص١٨ - ١٩ مجلة الهلال - جمادى الأولى سنة ١٣٩٩هـ - أبريل سنة ١٩٧٩م .

فبمعرفة العبد لربه ذاتا وصفاتا تجعله يدرك أن الله يراقبه فى حركاته وسكناته فى سره وعلنه ، فيخشاه ويتقيه ويلجأ إليه عابدا داعيا متضرعا .

وبوسعك الالمام بطرف من عقائد أهل الملل والنحل الاخرى كاليهودية والنصرانية والمجوسية ، فلا تعثر فى تصوراتها الالهية ، بمثل تصور المسلم لربه عز وجل مما أدى إلى الافتقار إلى الالوهية ، بالنسبة إلى الإنسان الغربى ، واحلال العلم والإنسان مؤلهين ، محلها على الأرض ، ولنتدبر بعد ذلك ما أوقعته كوارث القرن العشرين المتلاحقة بتلك الالوهية الجديدة للعلم والإنسان من دمار) .

والاسوأ من ذلك انتقال العدوى إلينا معشر المسلمين بعد ضعف عقيدة التوحيد وهى الحصن الذى نلوذ به لرفع هذه البلوى ، بعد أن تسرب إلينا انحراف الغرب فأصبح خضوعا لحواسنا يكاد يكون تاما مثلهم ، وكادت الغالبية منا تفقد القدرة على تخطى الظواهر ببصائرها وعقلوها إلى الله عز وجل خالق الكون ومدبره[٦٩] .

وعلى المستوى الحضارى ، قامت الحضارة الإسلامية على عقيدة التوحيد فظلت متماسكة عندما وازن المسلمون بين اطرافها ، اى بين الايمان بالله غيبا ذاتا وصفاتا – وبين اعداد العدة بالاساليب العسكرية المعروفة انذاك ، فاحتاج المسلمون الامبراطوريتين الفارسية والرومانية بفضل إيمانهم بالله تعالى على هذه الصورة ، إذ أيقنوا أنه ناصرهم ، فلم ترهبهم قوى الاعداء الظاهرة الملموسة ولم يخفهم الفارق المشاهد فى القوى والعتاد والعدد ، لأنهم أيقنوا أن الله من وراء الغيب يؤيدهم ويشد أزرهم ويأتى الآن الدور لتناول الأصل الثانى :

والمقصود بالأصل الثانى ، وهو العدل ارجاع كل عمل إلى الإنسان لتفسير ظهور الشر ونسبته إلى الإنسان فقط . وإذا كان المسلمون كافة يؤمنون بعدل

---

(٦٩) أبو الحسن الندوى : دعاء النبى ﷺ معجزة من معجزات السيرة ودليل من دلائل النبوة – مجلة البعث الإسلامى – لكهنؤ (الهند) ص١٦و١٧ جمادى الأولى ١٣٩٦هـ – مايو سنة ١٩٧٦م .

الله سبحانه وتعالى ، فإن المعتزلة فرعوا الكلام عن هذا الأصل ، فأدى بهم إلى إيجاب الصلاح والأصلح على الله تعالى ، وانبثقت فكرتهم عن الحسن والقبيح العقليين وأنهما ذاتيان عقليان كما تفرغت أيضا مسألة خلق أفعال العباد قالوا : (يمتنع عليه ارادة الشر والمعاصى والقبائح) وقالوا : (يريد مالا يقع ، ويقع ما لا يريد) فزعموا أنه تعالى أراد من الكافر الايمان وان لم يقع إلا الكفر وإن وقع ، وكذا أراد من الفاسق الطاعة لا الفسق حتى زعموا أن أكثر ما يقع من عباده على خلاف مراد الله ، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا .

وظاهر عقيدتهم ارادة تنزيه الله تعالى ، ولكننا سنعرف عندما نعرض لاراء علماء أهل السنة ، كم أخطأوا وشذوا لأنهم لم ينتبهوا إلى التمييز بين الأمر والرضا والمحبة إذ الأخيرة لا تكون إلا فى الخير ، ولكن الارادة قد تكون فى غيره فهى تتعلق بكل ممكن كما يذكر ابن تيمية ، قال الله تعالى ﴿ **ولا يرضى لعباده الكفر** ﴾ ، فإن قيل ، قد قال الله تعالى ﴿ **يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر** ﴾ وقال ﴿ **وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها** ﴾ ، فالمقصود هنا أن الإرادة التى تعنيها هى الإرادة الكونية المتصلة بالحكمة من خلق العالمين .

واما الارادة الدينية المتصلة بالأوامر الشرعية فهى ترادف الرضا والمحبة ، وربما يلخص لنا موقف المعتزلة عبارة القاضى عبد الجبار فى قوله « سبحان من تنزه عن الفحشاء » بينما يعبر عن اتجاه أهل السنة والجماعة رد أبى اسحق الاسفارينى « سبحان من لا يقع فى ملكه إلا ما يشاء »[٧٠] .

ويتفرع عن ذلك الحديث عن الإيمان بالقدر وعلاقته بالإرادة الإنسانية :

---

(٧٠) شرح عقيدة الاسفرايينى ص٢٣١، ٢٣٢ .

الايمان بالقدر وعلاقته بالارادة الإنسانية :

من أفضل ما نستهل به هذا الموضوع ، هو اجابة السؤال الذى وجه إلى جعفر الصادق رضى الله عنه عندما سئل عن قول الله تعالى ﴿ **أفحسبتم انما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لا ترجعون** ﴾ « المؤمنون » لم خلق الله الخلق ؟

فأجاب : لان الله كان محسنا بما لم يزل فيما لم يزل ، فأراد الله أن يفيض احسانه إلى خلبقه وكان غنيا عنهم ، لم يخلقهم لجر منفعة ولا لدفع مضرة ، ولكن خلقهم وأحسن إليهم فأرسل إليهم الرسل ليفصلوا بين الحق والباطل فمن أحسن كافأه الجنة ومن عصى كافأه النار)[٧١] .

ويشرح ابن القيم أنواع الابتلاءات التى يتعرض لها الإنسان أثناء حياته فى الدنيا ، محصيا الايات القرانية الدالة عليها .

ويذكر أن الله سبحانه وتعالى ابتلى العباد بالنعم كما إبتلاهم ، بالمصائب ، وان ذلك كله ابتلاء فقال ﴿ **ونبلوكم بالشر والخير فتنة** ﴾ .

وقال : ﴿ فأما الإنسان إذا ما إبتلاه ربه فأكرمه ونعمه فيقول ربى أكرمن وأما إذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه فيقول ربى اهانن ﴾[٧٢] .

وقال : ﴿ الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا ﴾وقال : ﴿ وهو الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام وكان عرشه على الماء ليبلوكم أيكم أحسن عملا ﴾ .

فأخذ سبحانه أنه خلق العالم العلوى والسفلى وقدر اجل الخلق ، وخلق ما على الأرض للابتلاء والاختبار ، وهذا الابتلاء إنما هو إبتلاء صبر العباد وشركهم فى الخير والشر والسراء والضراء .

---

(٧١) ابن تيمية : شرح حديث النزول ص١٥٩ - منشورات المكتب الإسلامى ١٣٨٩هـ - ١٩٦٩م .

(٧٢) فى تفسير ابن القيم الآية : قال الله تعالى : كلا ، أى ليس الأمر كما يقول الإنسان بل قد أبتلى بنعمتى وأنعم ببلائى .

كذلك وردت الاحاديث الكثيرة فى بيان ما يقابله المؤمن فى حياته من ابتلاءات طوال عمره ، منها :

– عن صهيب الرومى رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ **« عجبا لأمر المؤمن ، ان أمره له كله خير وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن ، ان أصابته سراء شكر فكان خيرا له وان أصابته ضراء صبر فكان خيرا له »** رواه مسلم .

– عن مصعب بن سعد عن أبيه قلت يارسول الله أى الناس أشد بلاء ؟ – أى محنا وشدائدا . **قال** ﷺ : **(الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل ، يبتلى الرجل على حسب دينه ، فإن كان دينه صلبا اشتد بلاؤه ، وإن كان فى دينه رقة ابتلاه الله على حسب دينه ، فما يبرح البلاء بالعبد حتى يمشى على الأرض وما عليه خطيئه »** (رواه ابن ماجه وابن أبى الدنيا والترمذى وقال حديث حسن صحيح) .

والعبد المؤمن امام شكره على النعم وصبره على البلاء حتى يجتاز طريق الدنيا ويعود إلى الجنة – موطنه الأصلى كوعد الله تعالى إياه (فإنه ماحرمه – عز وجل إلا ليعطيه ، ولا أمرضه ألا ليشفيه ، ولا أفقره إلا ليغنيه ، ولا أماته إلا ليحييه . وما أخرج أبويه من الجنة إلا ليعيدهما إليها على أكمل وجه . كما قيل : يا ادم لا تجزع من قولى لك اخرج منها ، فلك خلقتها وسأعيدك إليها)[٧٣] .

موقـف الإنســـان :

الإنسان إذن امام هذه الحقيقة لا يملك فرارا ، فهو بين أمر يجب عليه امتثاله وتنفيذه ، ونهى يجب عليه اجتنابه وتركه ، والصبر مع هذين الطرفين لازم ولا يخلو من نوعين :

(٧٣) و(٧٤) ابن القيم : عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين ص٤٧، ٥١، ٦٩ .

أحدهما – يوافق هواه ومراده كالصحة والسلامة والجاه والمال .

والآخر – المخالف للهوى وهو على شكلين :(أ) يرتبط باختياره كالطاعات والمعاصى ، وعليه يترتب الاجر .

(ب) لا يرتبط باختياره كالمصائب ، وبها تمحى السيئات وترفع الدرجات[٧٤] .

ولكن الثابت أن الإنسان لا يملك منح نفسه القدرات والمزايا الجبلية كالذكاء والصحة والانوثة أو الذكورة ، ولا يملك اختيار أبويه فيرث عنهما مواهب وسمات معينه دون الاخرى ، ولا انتخاب الزمان الصالح ليعيش فيه ، ولا البيئة الصالحة لينمى فيها طفولته . هذه كلها أمور لا يملكها الإنسان وخارجة عن نطاق اختياره وليس مسئولا عنها[٧٥] .

ولكن المتعللين بالقدر على أفعالهم الإنسانية يحتجون بايات قرانية يختارونها وفق اهوائهم ، كقول الله تعالى ﴿ **يضل من يشاء ويهدى من يشاء** ﴾ وهذا الاحتجاج سرعان ما يدحض امام النظرة القرانية لآيات أخرى تخبر الإنسان بين فعلين ، كقوله عز وجل ﴿ **إنا هديناه السبيل اما شاكرا واماكفورا** ﴾ . وقوله سبحانه وتعالى : ﴿ **ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها** ﴾ والقران يفسر بعضه بعضا ، وهذا التفسير هو أدق التفاسير الذى يلجأ إليه العلماء لان القران ميسر لكل ذى بصر وبصيرة .

﴿ **ولقد يسرنا القران للذكر فهل من مدكر** ﴾ القمر ١٧

وبهذا الفهم يصبح تفسير الاية الأولى واضحا لا لبس فيه إذ معناها ان اضلال الله لشخص انه اثر الغى على الرشاد فأقره الله على مراده وتمم له ما يبغى لنفسه قال تعالى ﴿ **فلما زاغو أزاغ الله قلوبهم والله لا يهدى القوم الفاسقين** ﴾ الصف ٥ .

---

(٧٥) الشيخ على الطنطاوى : تعريف عام بدين الإسلام ص١٣١، ١٣٢ – دار الرائد ١٣٩٥هـ – ١٩٧٥م .

إذن ، فمعنى قوله تعالى ﴿ **يضل من يشاء** ﴾ لايتعارض وقوله ﴿ **وما يضل به الا الفاسقين الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه** ﴾ البقرة ٢٦ ، ٢٧ . وكذلك الحال فى قوله تعالى ﴿ **يهدى من يشاء** ﴾ . وللنظر إلى قيمة الارادة الإنسانية فى قول الله تعالى وهو يتكلم عن ارادته ﴿ **قل ان الله يضل من يشاء ويهدى إليه من أناب ، الذين امنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ، ألا بذكر الله تطمئن القلوب** ﴾ الرعد ٢٧ ، ٢٨ .

ثم يأتى دور مناقشة المحتجين بالاحاديث النبوية وربما يقع أكثرهم على الحديث الاتى – ويفسرونه خطأ بأنه يدل على الجبر ونفى حرية الارادة الإنسانية .

والحديث : « ما منكم من احد وما من نفس منفوسة إلا وقد كتب مقعده من النار ومقعده من الجنة ، قالوا يارسول الله ، أفلا نتكل على كتابنا وندع العمل ؟ قال : اعملوا فكل ميسر لما خلق له ، أما من كان من أهل السعادة فيصير لعمل أهل السعادة وأما من كان من أهل الشقاوة فيصير لعمل أهل الشقاوة ثم قرأ ﴿ فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى وأما من بخل واستغنى وكذب الحسنى فسنيسره للعسرى ﴾ الليل ٤ .

وهذا الحديث – للبصر النافذ – لا لبس فيه[٧٦] ، أما سبق علم الله تعالى فانه ليس حجة أيضا للمحتجين بالقدر على معاصيهم .قال تعالى : ﴿ **وما جعلنا القبلة التى كنت عليها الا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه** ﴾ البقرة ٢ : ١٤٣ وقال : ﴿ **ام حسبتم ان تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين** ﴾ آل عمران ٣ : ١٤٢ وقوله : ﴿ **ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو اخباركم** ﴾ محمد ٣١

---

(٧٦) الشيخ الغزالى : عقيدة المسلم ص١٤٠ والحديث رواه البخارى بألفاظ متقاربة .

فروى عن ابن عباس فى قوله (إلا لنعلم) أى (لنرى) وروى نميز ، وكذلك قال عامى المفسرين (الا لنرى ونميز) وكذلك قال جماعة من أهل العلم ، قالوا : لنعلمه موجودا واقعا بعد أن كان قد علم أنه سيكون ولفظ بعضهم ، قال : العلم على منزلتين - علم الشئ قبل وجوده ، وعلم به بعد وجوده ، والحكم للعلم به بعد وجوده لأنه يوجب الثواب والعقاب .

قال : فمعنى قوله (لنعلم) أى لنعلم العلم الذى يستحق به العامل . الثواب والعقاب ، ولا ريب أنه كان عالما سبحانه بأنه سيكون ، لكن لم يكن المعلوم قد وجد(٧٧) .

*****

ويتصل **الاصل الثالث بالوعد والوعيد** ومضمونه كما يعبر عنه الشهرستانى أن المؤمن اذا خرج من الدنيا على طاعة وتوبة استحق الثواب والعوض ، وإذا خرج من غير توبة عن كبيرة أرتكبها استحق الخلود فى النار ، ولكن عقابه يكون اخف من عقاب الكفار(٧٨) .

وانسياق المعتزلة فى هذا الاصل يتصل بدفاعهم عن الحرية الإنسانية واحتكامهم إلى العقل إذ أصبح الثواب والعقاب عندهم ينصب على أفعال الإنسان نفسها والتى يقتضيها العقل ومعنى هذا اعتقادهم أن إثابة المطيع ومعاقبة العاصى ان لم يتب - امر محتوم (أى يجب) على الله تعالى أن يفعله ، فخلطوا بين الوعد والوعيد ، بينما يعتقد أهل الحديث والسنة أنه يجوز على الله تعالى اخلاف الوعيد لا إخلاف الوعد ، والفرق بينهما أن الوعيد حقه فاخلافه عفو وهبة ، واسقاط ذلك موجب كرمه وجوده واحسانه والوعد على نفسه

(٧٧) ابن تيمية : الرد على المنطقيين ص٤٤٦ ط لاهور ١٣٩٦هـ ١٩٧٦م .
(٧٨) الملل والنحل ج١ ص٥٩ .

بوعده ، والله لا يخلف الميعاد ، ويعتقد أهل السنة والجماعة أنه من موانع وقوع الوعيد التوبة والتوحيد والحسنات والعظيمة والمصائب المكفرة واقامة الحدود فى الدنيا وأضعاف أضعافها .

*****

ويأتى اصلهم فى (**المنزلة بين المنزلتين**) الذى فارقوا به الجماعة ليرتبوا عليه اعتقاد أن مرتكب الكبيرة فاسق ، وهو منزلة بين منزلتى الكفر والايمان ولكنهم لم يكفروه كما فعل الخوارج ، كما لم يستحلوا الدماء والأموال فى الدنيا .

ولا ينفرد المعتزلة **بالاصل الأخير – أى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر** لأنه مبدأ اسلامى اعتنقه كل الفرق ، وهو يقضى بأمر المسلمين وتكليفهم بالجهاد فى سبيل الله بأمر الاية **﴿ ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، وأولئك هم المفلحون ﴾** ال عمران ١٠٤ إلى جانب اعتقادات أخرى اختلفوا فيها تزيد عن هذه الأصول مثل قولهم بأن العلم بالله تعالى يحصل بالنظر والاستدلال أى ترتيب الاقيسة العقلية ، فخالفوا جماهير الفقهاء والصوفية وأهل الحديث والعامة وغيرهم ، لأن سلف الامة وأئمتها اتفقوا على أن معرفة الله تعالى والاقرار به لا يقف على الطرق التى يذكرها أهل طريقة النظر (لأن أصل المعرفة والاقرار بالصانع يحصل بديهة وضرورة ولا يتوقف على النظر والاستدلال ، ويدلل ابن تيمية على ذلك بأن جميع الأمم تقر بالصانع مع عظيم شركهم وكفرهم (ولهذا يوجد له عند كل امة اسم يسمونه ، والتسمية مسبوقة بالتصور . فلا يسمى احد إلا ما عرفه ، ثم المستمع لذلك الاسم يقبل بفطرته ثبوت المسمى به من غير طلب حجة على وجود ويكون قبولها لاسماء سائرها ما أدركه بحسه وعقله مثل الشمس والقمر والواحد والاثنين بل هذا أكمل وهناك اراء أخرى لعلماء السنة ردوا بها على المعتزلة :

الـرد على المعتـزلة :

أخذ عليهم علماء السنة أنهم يردون الأحاديث غير الموافقة لأغراضهم ومذاهبهم ويدعون أنها مخالفة للعقول (وغير جارية على مقتضى الدليل فيجب ردها ، كالمنكرين لعذاب القبر ، والصراط ، والميزان ، ورؤية الله عز وجل فى الاخرة)[٧٩] .

فضلا عن اختلافهم فى الاعتقاد بشفاعة الرسول ﷺ يوم القيامة وإنكار بعضهم لمعجزات الرسول ﷺ[٨٠] .

وكل ذلك بزعم اعتمادهم على الأدلة التى تجيزها عقولهم .

ومازال الاتجاه الاعتزالى يجذب البعض بتأثير سحر (العقل) وأحكامه ، وأصبح الأعتزال الان (موقفا) و (اتجاها) بعد أن كان معبرا عن فرقة لها أصولها ومذهبها كما رأينا .

لذلك نرى إيضاح رأى علماء السلف فى حججهم العقلية وفتنتهم بالعقل وكأن أدلة الشرع لم تستند إلى العقل .

ونحن هنا مضطرون إلى الشرح بشئ من الافاضة لإجلاء هذه النقطة الدقيقة التى ربما كانت مثار التباس عند البعض .

ونرى أن الافة الحقيقية فى الفكر الاعتزالى بوجه عام يشمل نقطتين :

أولا : الظن بأن (عقولهم) أولى بالتقديم من النصوص الشرعية .

ثانيا : رد بعض الأحاديث النبوية وإنكارها أو الطعن فى السنة عموما .

(٧٩) الشاطبى : الاعتصام ج١ ص١٤٥ .

(٨٠) ينظر كتاب : (موقف المعتزلة من السنة النبوية ومواطن انحرافهم عنها) تأليف : أبو لبابة حسين ص١١٣-١٤٩ دار اللواء - الرياض ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م .

أولا : أحـكام العقـــل :

وفى هذه النقطة نرى إصابة ابن تيمية فى رده المفحم حيث فند الصلة بين الأدلة وصحح كثيرا من المفاهيم الخاطئة حول الأدلة عند الكلام عن أصول الدين ، قال فى قول جامع (أن يقال كون عقليا أو سمعيا ليس هو صفة تقتضى مدحا ولا ذما ولا صحة ولا فسادا ، بل ذلك يبين الطريق الذى به علم وهو السمع أو العقل ، وإن كان السمع لابد معه من العقل ، وكذلك كونه عقليا ونقليا . وأما كونه شرعيا فلا يقابل بكونه عقليا وإنما يقابل بكونه بدعيا إذ البدعة تقابل الشرعة ، وكونه شرعيا صفة مدح ، وكونه بدعيا صفة ذم . وماخالف الشريعة فهو باطل ، ثم الشرعى قد يكون سمعيا ، وقد يكون عقليا . فإن كون الدليل شرعيا يراد به كون اشرع أثبته ودل عليه ، ويراد به كون الشرع أباحه وأذن فيه ، فإذا أريد بالشرعى ما أثبته الشرع ، فإما أن يكون معلوما بالعقل أيضا . ولكن الشرع نبه عليه ودل عليه ، فيكون شرعيا عقليا ، وهذا كالأدلة التى نبه الله تعالى عليها فى كتابه العزيز من الأمثال المضروبه وغيرها الدالة على توحيده وصدق رسله وإثبات صفاته وعلى المعاد . فتلك أدلة عقلية تعلم صحتها بالعقل . وهى براهين ومقاييس عقلية ، وهى مع ذلك شرعية .

وأما أن يكون الدليل الشرعى لا يعلم إلا بمجرد اخبار الصادق – ﷺ – فإنه إذا أخبر بما لا يعلم إلا بخبره كان ذلك شرعيا سمعيا .

وكثير من أهل الكلام يظن أن الأدلة الشرعية منحصرة فى خبر الصادق ﷺ – فقط وأن الكتاب والسنة لا يدلان إلا من هذا الوجه ؛ ولهذا يجعلون أصول الدين نوعين العقليات والسمعيات ويجعلون القسم الأول مما لا يعلم بالكتاب والسنة ، وهذا غلط منهم ، بل القران دل على الأدلة العقلية وبينها

ونبه عليها ، وإن كان من الأدلة العقلية ما يعلم بالعيان ولوازمه ، كما قال تعالى **﴿ سنريهم اياتنا فى الاقاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أو لم يكف بربك أنه على كل شئ شهيد ﴾** .

وأما إذا أريد بالشرعى ما أباحه الشرع وأذن فيه ، فيدخل فى ذلك ، ما أخبر به الصادق وما دل عليه ونبه عليه القران . ومادلت عليه وشهدت به الموجودات .

والشارع يحرم الدليل لكونه كذبا فى نفسه ، مثل : (أ) أن تكون إحدى مقدماته باطلة ، فانه كذب ، والله تعالى يحرم الكذب لاسيما عليه ، كقوله تعالى **﴿ ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب ألا يقولوا على الله إلا الحق ودرسوا ما فيه ﴾** . (ب) ويحرمه لكون المتكلم يتكلم بلا علم ، كما قال تعالى **﴿ ولا تقف ما ليس به علم ﴾** وقوله تعالى **﴿ وان تقولوا على الله ما لا تعلمون ﴾** : (ج) ويحرمه لكونه جدالا فى الحق بعد ماتبين كقوله تعالى **﴿ يجادلونك فى الحق بعد ما تبين ﴾** وقوله تعالى **﴿ وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق ﴾**[٨١] .

وبناء على ما تقدم يقرر شيخ الإسلام أن الدليل الشرعى لا يجوز أن يعارضه دليل شرعى ويكون مقدما عليه .

والا فهل يعقل أن تقدم البدعة التى لم يشرعها الله تعالى على الشرعية التى أمر الله بها ؟ أو تقديم الكذب على الصدق ؟ أو تقديم خبر غير النبى على خبر النبى ؟ أو أعتبار ما نهى الله تعالى عنه خيرا مما أمر الله به ؟ .

ولاشك أن كل هذا ممتنع[٨٢] وستزداد الأمور وضوحا لو بحثنا علاقة العقل بعالم الغيب الذى يعجز العقل عن الاحاطة به :

---

(٨١) بيان موافقة صريح المعقول لصحيح المنقول ج١ ص١١٦ .

(٨٢) نفسه ص١١٥ .

العقـل وعـالم الغيـــب :

إن مناقشة أصحاب الاتجاه الاعتزالى تحتاج منا إلى مخاطبتهم بحجج العقل وبيان أن ما ينكرونه من حقائق وردت بالشرح لا تتنافى بتاتا مع أحكام العقل الإنسانى وموازينه :

١ – أمدنا الشرع بايضاحات كاملة عن عالم الغيب بتفاصيله الدقيقة حتى أصبح واضحا كالشمس .

إن الإنسان يحتاج إلى معرفته أشد من حاجته إلى معرفة عالم الشهادة . فهذا موقف مؤقت وذلك أبدى خالد . ونحن نعلم من تجاربنا أننا نحرص على تعلم علوم الدنيا للسعى فيها وتذليل الصعوبات التى أمامنا باكتساب علومالصناعات والطب والزراعة والاقتصاد والهندسة وغيرها . فإن العلم بحقائق الغيب – ومنها عالم الاخرة – أولى لأنها الأدوم والأخلد .

٢ – إن معرفة ماهية الحياة بعد الموت – ولا مصدر لنا إلا الشرع – سواء فى البرزخ أو فى الاخرة تمنع الإنسان وتردعه عن ارتكاب كثير من الخطايا والزلات ،وقد تصده أيضا عن الصغائر والهفوات ، كمعرفة عذاب القبر وسؤال الملكين واجتياز الصراط وهول المطلع وشدة الموقف يوم القيامة والحساب والعقاب .

٣ – اننا نعجب كيف يذهل العقل ويحتار أمام عالم المشاهدة – لا سيما فى العصر الذى نعيشه – ثم يجرؤ على استبعاد أو الشك بما أخبرنا به الرسول المعصوم ﷺ عن عالم الغيب ؟

إننا إذا فتحنا عيوننا على عالمنا فستأخذنا الدهشة والحيرة ، فحقائق العلم تذهل العقول والألباب وتفتح الباب أمام عالم أوسع اقاقا بكثير مما يقع عليه

تذهل العقول والألباب وتفتح الباب أمام عالم أوسع آفاقا بكثير مما يقع عليه الحس أو يحيط به العقل ، مع أن اكتشافات العلماء تمثل النذر اليسير من مخلوقات الله تعالى التى لا يحيط بها إلا هو سبحانه وتعالى !!

خذ مثلا الحقائق التى يكتشفها علماء الفلك كيف عرفوا أن هناك مليارات الكواكب المحيطة بنا . انه عالم لا نهائى بالنسبة للانسان وقدراته على الاحاطة بعالم المخلوقات ، فما بالنا بعالم الغيب ؟

٤ – إن ما ظنه البعض أحكاما عقلية هو فى الحقيقة خضوعا للمألوف المعتاد ، ولو تحررنا منه وفتحنا أعيننا على ما يحدث فى العالم حولنا من أعاجيب ، لذهلنا وتحيرنا واستبعدنا حدوثها .

يعدد العلامة الأستاذ المودودى رحمه الله تعالى تلك الأعاجيب فيما نراه ونلمسه من امور تحدث وهى غاية فى الغرابة ....

فإن البذرة تنشق فى بطن الأرض وتظهر بصورة شجرة ضخمة ، وتدخل قطرة من ماء الرحم وتخرج بصورة إنسان ، ويتولد الماء بإجتماع غازين ويتحول إلى بخار ويتحول البخار إليه بترتيب خاص مرة بعد اخرى ، وتجرى مئات الملايين من النجوم السيارة كالكرات فى فضاء العالم الواسع ويرتبط بعضها ببعض بدون ما علاقة مرئية .

وينبهنا أخيرا بقوله (انكم معتادون لرؤية كل هذه الأمور ولذا لا ترون فيها ما يدعو إلى العجب والحيرة ، وإنما ترونها أمورا عادية ، ولكن لو كنتم لا تشاهدونها ، وكنتم مستأنسين بنظام اخر غير نظامها ، لرأيتم أنها أبعد ما تكون عن العقل والقياس ، وأنكرتم إمكانها بكل شدة[٨٣] .

---

(٨٣) المودودى : الحضارة الإسلامية ص٢٤٨-٢٤٩ .

ثانيا : رد بعض الأحاديث النبوية وإنكارها :

نعتقد كما بينا انفا امتداد حركة التأويل الكلامية لدى المعتزلة إذ مازالت تعيش فى عقول البعض الذى يحاول إنكار الحديث النبوى أو الطعن فيه ، وإن اختلف بواعثهم عن بواعث أسلافهم من أئمة الاعتزال .

ولانجد من الحجج العقلية ما نواجه به هؤلاء إلا كلمات يسيرة ، خطها مفكر غربى ، نشأ فى بيئة ثقافية وحضارية غربية ولكنه عثر فى الإسلام على ضالته المنشودة فأعتنق الإسلام بعد دراسة طويلة متانية ، وفى تقويمه للسنة النبوية قال : (إن سنة الرسول صلوات الله عليه – تالية للقرآن – وهى المصدر الثانى للشرع الإسلامى والسلوك الشخصى والاجتماعى ، ومن ثم يجب على المسلمين جميعا اعتبار أن السنة هى التفسير الوحيد لتعاليم القران الكريم والوسيلة الوحيدة لاجتناب الخلاف فى تأويل تلك التعاليم وتطبيقها فى الحياةالعملية ، ولكن مع الأسف نسمع التعبير الذى يتردد على مسامعنا اليوم من البعض (لنرجع إلى القران الكريم ، ولكن يجب ألا نجعل من أنفسنا أتباعا مستعبدين للسنة) وهو يدل – على جهل للاسلام ، مثلهم فى ذلك مثل الذى يريد دخول قصر ، ولكنه لا يريد أن يستعمل المفتاح الأصلى الذى يستطيع به وحده أن يفتح الباب) .

أما عن المشكلة المفتعلة فى صحة المصادر ، فإن الطاعنين فيها لا يملكون أى مبرر لموقفهم ، ولا يمكن أن يأتوا بأدلة مقنعة تثبت مرة واحدة عدم الثقة بالأحاديث المنسوبة للرسول ﷺ ، إذ من الصعب عليهم تدعيم انتقادهم العاطفى الخالص بنتائج من البحث العلمى ، لأن الجامعين لكتب الحديث الأولى وخصوصا الامامين البخارى ومسلم ، وقد قاموا بكل ما فى طاقة البشر عند عرض صحة كل حديث على قواعد التحديث عرضا أشد كثيرا من ذلك الذى يلجأ إليه المؤرخون الأوروبيون عادة عند النظر فى مصادر التاريخ القديم .

ومن الثابت لكل دارس لعلم مصطلح الحديث أن هذا العلم استـــطاع الناحية التاريخية أن يوجد سلسلة متماسكة لتراجم مفصلة لجميع الأشخاص الذين ذكروا على أنهم رواة أو محدثون ، فقد خضعت تراجم هؤلاء الرجال والنساء لبحث دقيق من كل ناحية ، و لم يعد منهم فى الثقات إلا أولئك الذين كانت حياتهم وطريقة روايتهم للحديث تتفق تماما مع القواعد التى وضعها المحدثون ، تلك القواعد التى تعتبر على أشد ما يمكن أن يكون من الدقة ، فإذا اعترض أحد اليوم من أجل ذلك على صحة حديث بعينه أو على الحديث جملة ، فإن عليه هو وحده أن يثبت ذلك . وإذا لم تقم حجو معقولة أى علمية تبرهن على أن المصدر مقوص ، كان حتما حينذاك أن تقبل الحديث على أنه صحيح .

ودون الاستطراد فى الكلام عن كافة الاحتمالات الطاعنة فى الحديث ، إلا أنها تتهافت جميعا أمام الأسلوب العلمى للنقد ، وقد بدأ علم الحديث لما مست الضرورة إلى تمييز الحديث الصحيح من الحديث الموضوع ، وأن صحيحى الامامين البخارى ومسلم ليسا سوى نتيجة مباشرة لهذا التمييز .

وبقى السبب الوحيد الذى يحمل البعض على معارضة الحديث ، ويرجع إلى استحالة الجمع بين طريقة حياتنا وتفكيرنا الحاضر المتقهقرة وبين روح الإسلام الصحيح بسبب نفوذ المدنية الغربية فى البلاد الاسلامية ، فقد أصبح الجيل المسلم الحاضر مستعدا لأن يكبر كل شئ غربى وأن يتعبد لكل مدنية أجنبية ولأنها قوية وبراقة من الناحية المادية » .

ثم يحذرنا محمد أسد بقوله : « ولكى يستطيع نقدة الحديث المزيفون أن يبرزوا قصورهم وقصور بيانهم فإنهم يحاولون أن يزيلوا ضرورة اتباع السنة ، لأنهم إذا فعلوا ذلك كان بإمكانهم حينئذ أن يتأولوا تعاليم القران الكريم كما يشاؤون فى أوجه من التفكير السطحى ، أى حسب ميول كل واحد منهم

وحسب طريقة تفكيره هو . ولكن تلك المنزلة الممتازة التى للاسلام على أنه نظام خلقى وعملى ونظام شخصى واجتماعى - تنتهى بهذه الطريقة إلى التهافت والاندثار[٨٤] .

هذا هو موجز رأى هذا المفكر المسلم ربيب الحضارة الغربية ، وقد استهدفت بإيراد رأيه المدعم بالأدلة ، تدعيم وجهة النظر التى نراها صحيحة ، وتتلخص فى أن الاتجاه السلفى سيظل هو الموقف الصحيح بالنسبة للاسلام ، مهما تقدمت العصور ، فليست السلفية إذن قاصرة على تفسير تاريخى مضى واندثر ، ولكنها ستظل علما على النظر إلى الإسلام من واقع الأصلين العظيمين : كتاب الله وسنة رسوله ﷺ .

ونستخلص أيضا سبب معارضة ابن تيمية لعلم الكلام الأشعرى ، لأنه يبدأ من قواعد ليست مستنبطة من القران والحديث فيؤدى إلى نتائج مخالفة لعقائد الأوائل ، مهما ادعى أصحابه أنهم يسيرون على نهج السلف .

(٧) الأشـــــاعرة :

تبين لنا مما سبق أن السلف وقفوا طويلا أمام علم الكلام نابذين أصحابه مبتعدين عن الخوض فيه ، ثم دخلوا الميدان حينما قويت شوكة المعتزلة ، فاضطروا إلى مجابهتهم ، ولكن بمنهج مخالف إذ تظهر السمات البارزة للمنهج السلفى الخالص حينذاك فى العناية بالحديث النبوى وإتخاذ القران والحديث نقطة البداية كأصول بغير تأويل يخرج بهما عن مدلولات ألفاظهما ، والمحافظة على التفسير المأثور عن الصحابة وتابعيهم .

---

(٨٤) الإسلام على مفترق الطرق - ترجمة د. عمر فروخ ط دار العلم للملايين - بيروت .

أما التيار الكلامى المعتزلى الذى مر بنا آنفا فإن أبرز معالمه مخاصمة أهل الحديث والطعن فى الأحاديث النبوية ، فقد تحامل المعتزلة على المحدثين وأقروا الجدل واعتمدوا على أصول ظنوا أنها عقلية مستبعدين النقل ، وأوّلوا المتشابه من القرآن الكريم تأويلا لم يقرهم أهل السلف عليه ، وكانت مسألة الصفات الالهية من أهم مسائل النزاع بينهما حتى أصبحت علما مميزا بين الفريقين ، يقول الشهرستانى : أعلم أن جماعة كبيرة من السلف كانوا يثبتون لله تعالى صفات أزلية من العلم والقدرة والحياة والارادة والسمع والبصر والكلام والجلال والاكرام والجود والانعام والعزة والعظمة ، ولا يفرقون بين صفات الذات وصفات الفعل ، بل يسوقون الكلام سوقا واحدا ، وكذلك يثبتون صفات خبرية مثل اليدين والرجلين ،ولا يؤولون ذلك إلا أنهم يقولون بتسميتها صفات خبرية » . ولما كانت المعتزلة ينفون الصفات ،والسلف يثبتون ، سمى السلف صفاتية والمعتزلة معطلة .

وقد ظهرت الموجة العارضة للمعتزلة فى شكل اتجاهين ، أحدهما الاتجاه السلفى الذى مضى فى طريقه مستمسكا بنفس طريقة الأوائل ، ثم ظهر اتجاه جديد حاول الارتباط بالسلف أيضا ، ذلكم هو علم الكلام فى المدرسة الأشعرية الذى بدأ بابن كلاب ، وتابعه فيه أبو الحسن الأشعرى ، ومضى بعده شيوخ المذهب كالباقلانى والجوينى والغزالى والشهرستانى والرازى وغيرهم . وهما أهم اتجاهين فى الفكر الإسلامى مازالا يعيشان إلى اليوم ، بينما تضاءل تأثير مدرستى الطحاوى والماتريدى . كما لا نستطيع أن نغض الطرف عن اعتناق الشيعة المتأخرين لفسيرات المعتزلة الكلامية .

الأشاعرة وعلم الكلام :

لا شك أن الرغبة فى الدفاع عن عقيدة أهل السنة بخاصة والإسلام بعامة هى التى دفعت أئمة الأشاعرة إلى استخدام الكلام ظنا منهم أنه المنهج الصحيح

لهذا الغرض ، ثم تبين لهم بعد التجربة غير ذلك ، فتحولوا عنه ، ولعل أهم المتحولين إلى طريقة السلف هو الامام أبو الحسن الأشعرى نفسه ، وقصة تحوله من الاعتزال إلى عقيدة الامام أحمد بن حنبل تبرهن على ذلك كما أسلفنا .

ومن الثابت عن الذين ترجموا للأشعرى – وأبرزهم ابن عساكر فى كتاب (تبين كذب المفترى) أن كتاب (الابانة) من أواخر كتبه وهو دليل على استقرار على طريقة الامام أحمد ومنهجه وعقيدته متابعة لطريقة السلف .

لقد عانى الامام الأشعرى طويلا لنظريات المعتزلة ، وأخذ يكابد نفسيا هذا الاضطراب الذى يحسه رجل الفكر بين عقيدة تربى فى أحضانها وتشربها وظل يدرسها نحو أربعين عاما ، وبين ما راه حقا .

وبعد طول فكر وإمعان نظر ، تنصل من الفكر الاعتزالى وتبرأ من المعتزلة ، وأعلن ألا مفر من سلوك الطريق الصحيح : طريق السلف ، فهل تحول من النقيض إلى النقيض دفعة واحدة ؟ ان التفسير النفسى لهذه الظاهرة يبدو غير مقنع فالأقرب إلى الصحة أنه بعد لفظه للأفكار التى أعتادها بحث عن الحلول السليمة التى يراها بديلة لها ، فاهتدى إلى حل وسط – والمنهج الوسط لا يحل المسائل – ولا شك أنه أحس بالحيرة تتملكه لأن منهجه الوسط أوقعه فى مشاكل من نوع جديد ، وهى التى حاول الخروج منها أيام اعتزاله ، ثمتعدى هذه الحلقة الوسطى فى تفكيره ووجد الحل النهائى فى عقيدة السلف التى دونها بكتابه « الابانة... »[٨٥] هذه العقيدة المطابقة تماما لما أورده فى كتابه « مقالات الإسلاميين » .

---

(٨٥) أما مسألة أيهما أسبق : كتاب (اللمع) أم (الإبانة) ، وهى التى لم يسبق إثارتها – فيما نعلم – إلا بواسطة الشيخ الكوثرى بقوله أن السلفيين هم الذين انفردوا بالقول بأن آخر كتب الأشعرى هو (الإبانة) ، فإن أول ما يستحق الانتباه هنا أن استناد ابن تيمية فى هذه القضية يعود فيه إلى أصحاب الأشعرى أنفسهم فيقول : (وقد ذكر أصحابه أنه آخر كتاب صنفه وعليه يعتمدون فى الذب عنه عند من يطعن عليه) ابن تيمية – العقيدة الحموية ص١٤٩ ، وينظر كتاب (اللمعة فى تحقيق باحث الوجود والحدوث والقدر وأفعال العباد (للحلبى)

وجاء بعده الامام الباقلانى (٤٠٢هـ) فكان حريصا على الانتساب إلى الامام ابن حنبل أيضا حتى كان يكتب فى بعض أجوبته محمد بن الطيب الحنبلى[٨٦] .

وأئمة الأشعرية بعده اتخذوا مشابها أيضا يثير الانتباه ويدعو لبحث هذه الظاهرة التى – ان دلت على شئ – فإنها تدل على الاخلاص فى البحث عن الحقيقة من جهة ، كما يدل من جهة أخرى على أنه لا سبيل إلى معرفة أصول الدين إلا من مصادره فى الكتاب والسنة .

فها هو إمام الحرمين الجوينى (٤٧٨هـ) فى كتابه (الرسالة النظامية) يشير إلى اختلاف مسالك العلماء فى هذه الظواهر ، فرأى بعضهم تأويلها ، والتزم ذلك فى اى الكتاب وما يصح من السنن . وذهب أئمة السلف إلى الكف عن التأويل ، وإجراء الظواهر على مواردها ، وتفويض معانيها إلى الرب ، ثم يصرح بأن الذى يرتضيه رأيا ، ويدين لله عقدا ، اتباع سلف الأمة ، مبرهنا على ذلك بأن الدليل السمعى القاطع فى ذلك أن إجماع الأمة حجة متبعة ، وهو مستند الشريعة وقد درج صحب رسول ﷺ على ترك التعرض لمعانيها ودرك ما فيها وهم صفوة الإسلام ، والمستقلون بأعباء الشريعة وكانوا لا يألون جهدا فى ضبط قواعد الله ، والتواصى بحفظها ، وتعليم الناس ما يحتاجون إليه منها . فلو كان تأويل هذه الظواهر مشروعا أو محتوما لأوشك أن يكون اهتمامهم بها فوق اهتمامه بفروع الشريعة . ولذلك ثبت عنهم الاضراب عن التأويل كان ذلك هو الوجه المتبع فحق على كل ذى دين أن يعتقد تنزيه البارى عن صفات المحدثين . ولا يخوض فى تأويل المشكلات ، ويكل معناها إلى الرب فليجر اية الاستواء ، والمجئ ، وقوله ﴿ لما خلقت

١١٩٠عـ) يقول (كتاب الإبانة هو آخر تصنيفه كما ذكره الحافظ ابن تيمية الحنبلى وهو المعول عليه) .

(٨٦) ابن تيمية : موافقة ... ج٢ ص٩، ٥١ .

بيدى ﴾ ﴿ ويبقى وجه ربك ﴾ وقوله ﴿ تجرى بأعيننا ﴾ وما صح من أخبار الرسول ﷺ كخبر النزول وغيره على ما ذكرنا .

ويعضد ذلك ما ذهب إليه فى كتابه (غياث الأمم) فبالرغم من أن الكتاب مخصص لعرض الفقه السياسى الإسلامى وآرائه فى منصب الخلافة أو الامامة ، فقد حرص فى باب (تفصيل ما إلى الأئمة والولاة) على أن ينص على أحد مهام الخليفة على صرف المسلمين عن الخوض فى المشكلات الكلامية وتوجيهم إلى طريقة السلف فقال فى هذا الصدد (والذى أذكره الآن لا ئقا بمقصود هذا الكتاب ، أن الذى يحرص الامام فيه جمع عامة الخلق على مذاهب السلف السابقين ، قبل أن تبغت الاهواء وتزيغ الاراء ، وكانوا رضى الله عنهم ينهون عن التعرض للغوامض فى المشكلات ... إلى أن يقول وما كانوا ينكفون رضى الله عنهم عما تعرض له المتأخرون عن عى وحصر ، وتلبد فى القرائح هيهات ! قد كانوا أذكى الخلائق أذهانا وأرجحهم بيانا[٨٧] .

ورأى الغزالى (٥٠٥هـ) أيضا فى علم الكلام مدون فى كتبه معروف مشهور لاسيما (الأحياء) فقد قال فيه (وأما منفعته فقد يظن أن فائدته كشف الحقائق ومعرفتها على ما هى عليه ، وهيهات فليس فى الكلام وفاء بهذا المطلب الشريف ، ولعل التخبيط والتضليل فيه أكبر من الكشف والتعريف ...) وإلى نفس المعنى يذهب فى كتابه (المنقذ من الضلال) فذم علم الكلام أيضا وقال بأن أدلته لا تفيد اليقين . وفى كتابه (التفرقة بين الايمان والزندقة) . صرح بتحريم الخوض فيه فقال (لو تركنا المداهنة لصرحنا بأن الخوض فى هذا العلم حرام) .

---

(٨٧) الجوينى : غياث الأمم فى التياث الظلم ص١٤٠ - ١٤١ تحقيق د. مصطفى حلمى ود. فؤاد عبد المنعم ط دار الدعوة بالاسكندرية سنة ١٤٠٠هـ .

ومات الغزالى على خير أحواله ، مات على الصحيحين : صحيح البخارى وصحيح مسلم ، طالبا علم الحديث ، فتحول من علم الكلام إلى طلب السنة من مصادرها الصحيحة .

أما الرازى (٦٠٦هـ) وهو المعبر عن المذهب الأشعرى فى مرحلته الأخيرة حيث خلط الكلام بالفلسفة – فقد نبه فى أواخر عمره إلى ضرورة اتباع منهج السلف ، وأعلن أنه أسلم المناهج بعد أن دار دورته فى طرق علم الكلام والفلسفة ، فقال فى النهاية (لقد تأملت الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية فما رأيتها تشفى عليلا ولا تروى غليلا ، ورأيت أقرب الطرق القران ، أقرأ فى الاثبات ﴿ **الرحمن على العرش استوى** ﴾ ﴿ **إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه** ﴾ ثم قال (ومن جرب مثل تجربتى عرف مثل معرفتى ، وكان يتمثل كثيرا فى الابيات التالية :

نهاية أقدام العقول عقال ... وأكثر سعى العالمين ضلال
وأرواحنا فى وحشة من جسومنا ... وحاصل دنيانا أذى ووبال
ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا ... سوى أن جمعنا فيه قيل وقالوا[٨٨]

وقال فى وصيته (أحمد الله بالمحامد التى ذكره بها أفضل ملائكته فى أشرف أوقات معارجهم ، ونطق بها أعظم أنبيائه فى أكمل أوقات مشاهدتهم ، بل أقول ذلك من تاريخ الحدوث والامكان ، فأحمده بالمحامد التى يستحقها لالهيته ويستوجبها لكمال الالهيته ، عرفتها أو لم أعرفها ، لأنه لا مناسبة للتراث مع جلال الرب الارباب) .... إلى قوله (ولقد اختبرت الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية فما رأيت فيها فائدة تساوى الفائدة التى وجدتها فى القران العظيم ، لأنه يسعى فى تسليم العظمة والجلال بالكلية لله تعالى ويمنع من التعمق فى ايراد المعارضات والمناقشات والمتناقضات ، وما ذلك إلا للعلم بأن العقول البشرية

(٨٨) ابن الوزير اليمانى : الروض الباسم فى الذب عن سنة أبى القاسم ج٣ ص١٦٨ المطبعة السلفية بالقاهرة سنة ١٣٨٥هـ .

تتلاشى وتضمحل فى تلك المضايق العميقة والمناهج الخفية) وذكر فى وصيته أيضا أنه يدين لله تعالى محمد ﷺ ، وسأل الله تعالى أن يقبل منه هذه الجملة ولا يطالبه بالتفصيل[٨٩] .

ونكتفى بهذا القدر لبيان النتائج التى توصل إليها أكبر أئمة المتكلمين فى المدرسة الأشعرية ، إذ تأكدوا بعد رحل طويلة مع الكلام والخوض فى قضاياه إلى نتائج حاسمة حيث وجدوا – كما ذكر الرازى – أن طريقة القران كافية شافية ، وأن طريقة أهل الحديث موصلة إلى اليقين ، داعية إلى الاطمئنان وثبات الايمان .

ومهما يكن من أمر ، فإننا فى نظرنا إلى المدرستين الكبيرتين فى علم أصول الدين ، وهما المعتزلة والأشاعرة ، فإننا نقترب من الأساس الصحيح لتقويمها ولوجدنا الميزان الذى نستخدمه بإعتبارهما يتفقان فى استخدام منهج التأويل .

ونبدأ **بالمعتزلة** فنقول : لو نزعنا الاسم من مدلوله التاريخى ، وتقيدنا بالمعنى اصطلاحى لا تضح لنا أنه يطلق على من يحاول تجريد الإسلام من دليله النقلى وتفريغه فى مضمون عقلى فلسفى ، يتسم بالجفاف ، ولا يخلو من تعسف وغلو التأويل . فدعوى التوحيد أدت إلى تجريد الذات الالهية من الأسماء والصفات ، وتجرأوا على الكلام عن الله سبحانه وتعالى بكلام ينقصه الهيبه ويخلو من أصول واداب الحديث عن بمقام الألوهية ، ودعوى العدل ألغت العلم الالهى المسبق وكفى بهاتين النتيجتين سببا لمعارضة السلفيين للمعتزلة هذا إذا أغضينا الطرف عن باق أخطائهم .

(٨٩) ابن الوزير اليمانى : الروض الباسم – ج ص١٦٨ .

وقد أورد نصوصا كثيرة أخرى تثبت رجوع أئمة الكلام إلى طريقة السلف ، فنقل عن القرطبى فى (شرح مسلم) أيضا أن الجوينى كان يقول لأصحابه : يا أصحابنا لا تشغلوا بالكلام ، فلو عرفت أن الكلام يبلغ بى ما بلغ ماتشاغلت به ، وأوصى الكرابيسى قبل موته أتباعه بقوله : (عليكم بما عليه أهل الحديث ، فإنى رأيت الحق معهم) وأورد قول أبى الوفاء بن عقيل لأصحابه : (لقد بالغت فى الأصول طول عمرى ثم عدت القهقرى إلى مذهب المكتب

وكذلك **الأشاعرة** ، لو نزعنا عنهم ثوبهم التاريخى ، والظروف التى أدت إلى ظهور الكلام الأشعرى ، لأمكن وصفهم بأنهم أصحاب الاتجاه الوسط – مع الاختلافات الفردية الخاصة بين شيوخهم أنفسهم – وليس بمستغرب على كلا الاتجاهين أن تختلف اراء أفراده وتتعارض ، وهذا دليل على خطأ المنهجين القائمين على التأويل المخالف لطريقة السلف[٩٠] .

ويرجع سبب الجدل الذى خاضه معهم ابن تيمية إلى فهمه للصلة الوثيقة بين الأفكار وأثرها ، لأن المبالغة فى تقدير دور العقل الإنسانى وأحكامه أدت بهم إلى التزامات منحرفة عن الحقائق القرآنية ومخالفة تأويلاتهم للأصول الإسلامية الصحيحة .

ويذهب الدكتور محمد على الزغبى إلى أن مرض التأويل غير المشروط قد سرى إلى المسلمين من اليهود ،واشتهر به الفيلسوف اليهودى (فيلون) حتى أله (عزير) . وأن الانشغال بالتأويل والتحلل من التكاليف قديم لدى اليهود ، إذ أمرهم الله أن لا يصيدوا سمكا يوم سبت . فأخذوا يحفرون أخاديد إلى جانب الشاطئ يوم الجمعة حتى إذا سقط بها السمك أغلقوا طريق عودته وصادره يوم الأحد ، ثم تمادوا فى هذا التأويل حتى استقرت لديهم قاعدة (إذا تعذرت الحقيقة يصار إلى المجاز) . ثم كانت الصيحة الأخيرة لفيلسوفهم الهولندى (اسبينوزا) العائد إلى مبدأ « يجب أن نفسر التوراة بالتوراة »[٩١]

– يعنى الذين يكتبون الحديث ويشتغلون به) . وأيضا قال الشهرستانى (عليكم بدين العجائز – فإنه أسنى الجوائز) . المصدر السابق ص٩٦٨ ١٦٩ .

(الإمام فخر الدين الرازى – حياته وآثاره ص٧٥) ط المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بالقاهرة ١٣٨٨هـ ١٩٦٩م .

(٩٠) ينظر كتابنا (منهج علماء الحديث والسنة فى أصولالدين) ص١٥٧ وما بعدها ط دار الدعوة بالاسكندرية .

(٩١) الماسونية فى العراء ص٢٣٩ .

(٨)ابن تيمية والتصوف[٩٢]:

كان شيخ الإسلام ملتزما فى موقفه من التصوف والصوفية بالقواعد الأساسية فى اجتهاداته فمن ، حيث المنهج التاريخى ، يضع الأصل فى البحث الاقتداء بالصحابة فالتابعين فهما للحديث « خير القرون القرن الذى بعثت فيهم ، ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم » ومن استمسك بعدهم بالمنهج الإسلامى الصحيح عقيدة وعبادة وسلوكا وأخلاقا .

وكلما بعد الزمن ، كلما قل عدد الصحابة والتابعين ، فبدأت البدع فى الظهور تدريجيا ، لأن نور النبوة فى الأصل كان بمثابة الشمس الساطعة التى طمست الكواكب ، وعاش السلف فيها برهة طويلة ثم حجب بعض نور النبوة .

وعلى أثر أحداث الفتن برزت الخوارج والشيعة والقدرية والمرجئة - كما أسلفنا - فوقف فى وجهها بعض الصحابة لمجابهتها وبيان أخطائها - وهم على سبيل المثال - عبد الله ابن عباس ٨٦هـ وعبد الله بن عمر ٧٣هـ وأبو سعيد الخدرى ٩٤هـ .

وفيما يتعلق بالتصوف ،فإن ابن تيمية قرنه بالرأى وعلم الكلام كألوان من البدع لم تعرف لدى القرون الأولى - مرجعا ظهورها إلى عاملين : الأول ظهور سلطان الموالى من غير العرب لاسيما الفرس ، والعامل الثانى ترجمة كتب الفرس والروم والهند .

ومع هذه النظرة التاريخية ، فإنه له منهجه الموضوعى أيضا فى دراسة التصوف فإنه يضع علم النبوة فى قمة العلوم جميعا لأنه العلم بالايمان والقرآن ،

---

(٩٢) ينظر كتابنا (ابن تيمية والتصوف) ط دار الدعوة بالاسكندرية .

ثم حدث الانقسام بعد ذلك إلى دوائر الفقه والحديث وأعمال القلوب ، وأخذ علماء المسلمين يجتهدون كل فى مجاله ، وما من أحد من أسماهم إلا وله – فى رأيه – من الاراء والأفعال ما لا يتبع عليها مع أنه لا يذم عليها – أى أن ضرورة الاقتداء بالطريقة النبوية هو الأصل والأساس لأنه لا عصمة إلا لرسول الله ﷺ .

ويقول فى عبارة جامعة .

من بنى الارادة والعبادة والعمل والسماع المتعلق بأصول الأعمال وفروعها من الأحوال القلبية والأعمال البدنية على الايمان والسنة والهدى الذى كان محمد ﷺ وأصحابه عليه فقد أصاب طريق النبوة .

ومن الملاحظات الدقيقة المعبرة عن الحقيقة التى وجدناها عند المستشرق الفرنسى (لاووست) للصوفية بقوله :

وتمارس الصوفية على اختلاف أشكال تطرقها نشاطا هو بمثابة معول هدم للمذهب السنى ، فقد تسللت إلى الإسلام عن طريقها مؤثرات مسيحية ، وأمام انتشار نظام الرهبنة لم يعد الإسلام نظاما سياسيا ، وتحول مفهوم الدين عن حقيقته الاجتماعية ، وأصبح المثل الأعلى فى نظر المؤمن هو الانقطاع عن الدنيا لعبادة الله تأمل ومناجاة ، وبالتدريج تحولت الحركة السنية المجاهدة فى أوائل عصر المماليك إلى سنية هادئة هابطة متمسكة بالطقوس ، ازدهرت فى ظل حكم اخر أمراء المماليك البحريين ومع بداية عهد الشراكسة . وبعد أن كان « الجهاد » فى الأصل أعظم الأعمال الشرعية لأنه يقتضى من كل فرد أكبر جهد ومن الجماعة أكبر قدر من التضامن والترابط ، أصبحت أفضل الأعمال هى هروب الفرد من المجتمع وممارسته التوبة والندم عن طريق الصلاة والصوم والخلوة ، والحقبة التى تعنينا فى هذا البحث هى الفترة التى تحولت

فيها السنية إلى شكلها الثانى ، مما فرض على ابن تيمية واجب التوضيح والتحديد لمعنى « الورع » فى مفهوم الدين ، وهو ما يطلق عليه رجال الصوفية لفظ « العبادة »[٩٣] .

وقد أجاد لاووست فى وضع يده على أس البلاء بمشرط باحث دقيق . ولكن كنا نود منه أن يفسر لنا عنف ابن تيمية فى خصومة الطرق الصوفية التى اتخذت من الشعوذة سبيلا إلى قلوب الجماهير ، والحق أنه لا تفسير لشدة خصومة شيخ الإسلام إلا بسبب المؤثرات الأجنبية التى أشار إليها المؤلف هنا وكان شيخ الإسلام حريصا على تأكيد صيغة الجهاد الإسلامية فى معظم مؤلفاته ، كما عبر بسلوكه العملى عن إيمانه العميق بضرورة ارتباط الايمان بالعمل ودأبه على لفت النظر إلى شمولية الإسلام بإحتوائه على أدلة العقول وما يغذى أرباب القلوب وأهل الارادات .

وقد فهم المؤلف مكانة « الجهاد » فى الإسلام من اطلاعه على مؤلفات ابن تيمية .

ويرى شيخ الإسلام أن الجهاد مطلوب فى كل الأزمنة ، استنادا إلى قوله تعالى ﴿ **يا أيها الذين امنوا مالكم إذا قيل لكم انفروا فى سبيل الله اثاقلتم إلى الأرض أرضيتم بالحياة الدنيا من الاخرة ؟ فما متاع الحياة الدنيا فى الاخرة إلا قليل . إلا تنفروا يعذبكم عذابا أليما ويستبدل قوما غيركم ولا تضروه شيئا والله على كل شيء قدير** ﴾ .

وفى تفسيره لهذه الايات القرانية ، يرى أن الخطاب موجه لكل الأزمنة وليس مخصوصا بزمن الرسول ﷺ ، كما أخبر الله تعالى فى ايات أخرى أنه

---

(٩٣) لاووست : النظريات السياسية والاجتماعية لشيخ الإسلام ابن تيمية ج١ ص١٥٣ دار الأنصار ١٣٩٧هـ - ١٩٧٦م .

من نكث عن الجهاد المأمور به عذبه واستبدل به من يقوم بالجهاد . ففى اية أخرى ﴿ **ها أنتم هؤلاء تدعون لتنفقوا فى سبيل الله ، فمنكم من يبخل ومن يبخل فإنما يبخل عن نفسه ، والله الغنى وأنتم الفقراء ، وإن تتولوا يستبدل قوما غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم** ﴾ ، فقد أخبر الله تعالى أنه من يتول عن الجهاد بنفسه أو عن الانفاق فى سبيل الله يستبدل به[94] .

ويصف ابن تيمية حال المتولى عن الجهاد بالجبان البخيل ، يستبدل الله به من ينصر الإسلام وينفق فيه .وان حياة الشيخ وجهاده المتواصل لتثبت أنه من علماء المسلمين الذين التقى عندهم العلم بالعمل .

بهذه النظرة استطاع أن يميز بين الأصول الإسلامية والطارئ على المسلمين من أثر الديانات والثقافات الأخرى ، فنراه يسمى بعض المتصوفة (موسوية المحمدية) أو (عيسوية المحمدية) لبيان صور التشابه مع اليهودية أو النصرانية ، كما يرى أيضا فى العباد الذين يتكلفون المشقة والتعب تشابها مع زهاد الصابئة والهنود وغيرهم بصفة عامة .

وأصبح الانتقال بعد ذلك ضروريا لبيان مدى الاختلاف مع نظريات الأوائل إذا بحثنا التصوف فى صوره المختلفة – أى الحلول عن الحلاج – ووحدة الوجود عند ابن عربى ، ثم بيان أوجه النقد الذى وجهه الشيخ السلفى للامام أبى حامد الغزال وذلك وفقا للترتيب الاتى :

(ا) الحـــــلاج :

لم يكن الحلاج أول من نادى بفكرة الحلول ، إذ سبقه إليها فرقة السبئية التى قالت بأن عليا صار إلها بحلول روح الاله فيه .

ويتضح مذهب الحلاج إذا رجعنا إلى كتاب (الطواسين) من تأليفه ، حيث يذكر فيه بالنص أفكار الحلول التى يلبسها أثوابا من الرموز ، فيقول

(٩٤) ينظر الفتاوى ج١٨ ص٣٠١ – ٣٠٢ ط الرياض .

مثلا : « يا أيها الظان ، لا تجب أنى (أنا) الان ، أو تكون ، إن كنت تفهم فافهم ما صحت هذه المعانى لأحد سوى أحمد » .

ويفصح عن نواياه فى نص اخر يذكر فيه أن (الحقيقة خليقة ، دع الحقيقة لتكون أنت هو ، أو أنت من حيث الحقيقة) .

وخطى خطوة أخرى أبعد من ذلك ، وكانت من أسباب حتفه ، إذ هدم أحد أركان الإسلام - أى الحج - فزعم أن من بنى بيتا وصام أياما ، ثم طاف حوله عريانا أغناه عن الحج !! .

ثم إنه كان من دعاة الباطنية القرامطة ، كما تشير إلى ذلك المراجع التاريخية ، فضلا عن محاولته تفنيد القران وتصريحه إمكانه الاتيان بمثله ، كما نقل عن الملكى أحد المعاصرين له .

ولذا فقد قتل بإجتهاد فقهى - كما يرى ابن تيمية - بسبب ثبوت تعطيله للحج أحد أركان الإسلام الأساسية .

(ب) ابن عـــربى :

قام مذهب وحدة الوجود عند ابن عربى على أساس أن العالم كله بمثابة المراة القابلة للصور ، فالخلق عنده عبارة عن فيض دائم ، ولكن لا يفسر الاثنينية فى الخلق فإنه جعل العالم يفتقر إلى الحق فى وجوده لأنه يسرى فى الموجودات بالصورة ، وبالمثل فإن الحق مفتقر إلى الأعيان الثابتة ، وهى أشبه بالمثل الأفلاطونية فيقول :

الـرب حـق والعبـد حـــق ياليت شعرى من المكلـف ؟
إن قـلت عبـد فـذاك مـــيت أو قلت رب ، أنى يكلف ؟

ويلزم من فكرة ابن عربى ، أن عبادة قوم موسى للعجل هى عبادة الله أيضا !! كما يساوى بين عبادة الأصنام وعبادة الله !!

ومضى فى هذا التسلسل ، فأعلن أن فرعون مات طاهرا متطهرا ليس فيه شئ من الخبث ، وهو قول لم يسبقه إليه أحد من أهل القبلة كما يذكر شيخ الإسلام .

ومن شطحات ابن عربى المنحرفة أيضا – تعريفة للولاية بأنها الفلك المحيط العام ، ولذا لم تنقطع ، ولها الانباء العام ، بينما انقطعت نبوة التشريع والرسالة . أى أنه يفضل الولى على النبى صلى الله عليه وسلم ، ولكنه لم يشأ التصريح بهذا الاعتقاد ، فأخذ يغلفه فى رداء التأويل لمعرفته بوقع هذا الادعاء على نفوس المسلمين ، ولذا فإن أتباعه يصارحون العامة أولا بأن ولاية النبى أفضل من نبوته ، ثم يتدرجون بعدها للقول بأن الولاية باقية حتى قيام الساعة وتلك الولاية بعينها هى التى كانت للرسول ﷺ هى باقية فى أمته ، فتارة يقولون فى كل زمان لشخص ، وتارة يقولون هى لخاتم الأولياء .

ويتصدى ابن تيمية لهذا التأويل المنحرف ، فيوضح أن كلمة (خاتم الأولياء) لا حقيقة لها وكل ما هناك أن الحكيم الترمذى أخطأ فى ترديدها ، فاستغلها هؤلاء وحرفوها ، كما يؤكد أن الولاية القائمة بالرسول ﷺ خاصة به لم تنتقل إلى أحد بعده .

وترتب على تصور الوجود فى مذهب ابن عربى نتائج هادمة للدين والأخلاق ، إذ نشأت عنه جبرية صارمة ، فامتنعت التفرقة بين الخير والشر ، والتمييز بين الثواب والعقاب ، وسقطت قيمة الالزام الخلقى .

أنعجب بعد ذلك من استهداف المذهب لأعنف نقد وجهه إليه شيخ الإسلام ؟ إنه يرى أن هذه الجبرية التى اعتنقها الصوفية من أصحاب وحدة الوجود ، وتلونت بها أغلب مذاهب الصوفية ، أدت إلى اندحار الشريعة وظهور التتار .

ولا شك أن هذا الرأى ينم عن ثاقب نظر الشيخ ، أثبت فيه ضرورة النظرة إلى الأفكار والنظريات بما تسفر عنه من نتائج واثار أيضا ، لأن تمسك الصوفية

بالنظرية الجبرية – وهى مخالفة فى جوهرها للحقيقة القرانية – أدت إلى إنحسار الموجة الحضارية للمسلمين ، وقعدوا عن الجهاد ، فتكالبت الأمم عليهم .

(ج) الغــــزالى :

ويختلف موقف ابن تيمية من الغزالى من حيث شدة النقد واختلاف معايره ذلك لأن أفكار الغزالى فى مجال نقده الفلسفة وعلم الكلام حظيت ببعض الموافقة عندما يرى شيخ الإسلام توافقها مع العقيدة الصحيحة ، ونحن نعلم أن الغزالى تنبه إلى انحرافات الفلسفة اليونانية وأثرها على بعض الفلاسفة فى الإسلام ، لاسيما عندما تأولوا مسائل قدم العالم وإنكار علم الله تعالى بالجزئيات ، وإنكار حشر الأجساد ، وقد خالفوا فيها الحقائق التى أوردتها الايات القرانية والأحاديث النبوية ، كما أن الغزالى رأى خطورة الأفكار الباطنية من غلاة الشيعة ، إذ عانى العالم الإسلامى من اثار حركاتهم الخبيثة المعادية للعقيدة الإسلامية فهى ليست مجرد تفسير أو تأويل عن صدق وإخلاص فى محاولة البحث عن الحقيقة ولكنها حركة تضمر الكراهية والحقد ، وتدفعها مؤامرات خفية ، وربما حركتها الأصابع اليهودية التى حركت عبد الله بن سبأ ، وظلت تعمل فى الخفاء إلى يومنا هذا ، أما نقده للمتكلمين ، فبالرغم من نشأة الغزالى فى بيئة كلامية وتلمذته على إمام الحرمين الجوينى ، فإنه كان محقا فى شجب محاولات المتكلمين التى هدمت أكثر ما أقامت ، وزعزعت العقائد أكثر مما رسختها .

وكان الغزالى مخلصا فى اختياره لطريق التصوف ، لأنه نشأ كما قلنا فى بيئة لم تعرف الحديث ، وغاب عنه فى تقسيمه الفرق إلى ذكر أهل السنة والجماعة دليل إخلاصه أنه وجه سهام نقده إلى المنحرفين من الصوفية كالحلاج وأصحاب دعوى سقوط التكاليف الشرعية .

أما عن أفكاره الفلسفية التى تأثر فيها بأفلاطون وغيره من فلاسفة الاشراق فقد ظهرت رغما عنه فى بعض التصورات التى رأى فيها ابن تيمية أفكارا لفلاسفة ألبسها الغزالى ثوبا إسلاميا بسبب عكوف الغزالى طويلا على رسائل إخوان الصفا فوصفه القاضى ابن العربى بأنه « دخل جوف الفلاسفة فلم يخرج منه » وهى كلمة حق .

وفصل ابن تيمية فى مؤلفاته تفصيلا طويلا التفسيرات الخاطئة التى ذهب إليها الغزالى عندما أقحم على الإسلام أفكار بعض فلاسفة اليونان ، ويرتفع الشيخ السلفى بتفسيراته ، ويعلو بالفكر الإسلامى الخالص بمستوى القران والسنة منكرا الانتاج الفلسفى لكافة الفلاسفة كالكندى والفارابى وابن سينا وغيرهم معلنا فشلهم فى عملية التوفيق أو التلفيق بين القران وبين العناصر الفلسفية التى استمدوا من الأغريق ، مؤكدا أن القران الحكيم نسيج وحده ، فلا ينبغى السير فى ركاب الزاعمين القدرة على تفسيره تفسيرا عقليا – كالمعتزلة الذين يقدمون العقل فى الشرع – أو محاولة إقحام الفلسفة على القران ، لأنه كلام الله عز وجل ، بينما الفلسفة ما هى إلا موقف عقلى لمحاولة تفسير الوجود ، أو نظرية المعرفة أو غير ذلك من محاولات التفسير العقلية التى يحاولها الفلاسفة منذ أقدم العصور فيخالفون حقائق الوحى .

ومع هذا ، فإن ابن تيمية كان رقيقا فى نقده للغزالى ، وكثيرا ما نراه يدافع عنه لاخلاصه ، كما أعجبته بعض فصول كتاب (إحياء علوم الدين) التى عنها بها الغزالى بقواعد السلوك الأخلاق فى الإسلام كفصول (المهلكات والمنجيات) مثلا ويجد له المبررات لأنه لم ينشأ بين محدثين ، ولم يتلق الحديث عن أصحابه – كما سنرى فى تقييمه لارائه ومؤلفاته .

وأخيرا – يستخلص من تشوق الغزالى للحديث وطلبه إياه فى نهاية حياته دليلا ثانيا يدعم إخلاصه فى طلب الحقيقة إذ أنه لم يقنع – أى الغزالى – فيما

يبدو لنا من اثار ومؤلفاته ، أن المناهج الكلامية والفلسفية والصوفية كلها ليست صالحة لاصابة الهدف ومعرفة الحق – إذا افتقدت السنة الصحيحة – وهى الدعامة الثانية للاسلام المفسرة للكتاب والدالة على الطريق القويم فى العقائد والعبادات والأخلاق ومعرفة الحقائق الغيبية التى أعيت كافة مذاهب الفكر الإنسانى عن التوصل إليها بطريق العقل وحده ، وهو أعجز من أن يصل إليها بلا سند من الشرع .

تقيم ابن تيمية لآراء الغزالى ومؤلفاته :

يرى شيخ الإسلام أن الامام الغزالى استخدم العبارات الإسلامية النبوية فى التعبير عن مقاصد الفلاسفة .

وبمنهج تحليلى لمضمون كتبه يؤصل نظرياته وينقدها ، فيرجع علم المعاملة والأمر والنهى إلى الصوفية والفقهاء ، وعلم المكاشفة تتعدد مصادرة ، فتارة يسلك مسلك الفلاسفة ، وتارة المتكلمين الجهمية وتارة أهل الحديث وتارة يطعن على هؤلاء ويذكر أقوالا مغايرة .

ثم يفصل ذلك فيقول « وأبو حامد مادته الكلامية من كلام شيخه – يقصد الجوينى إمام الحرمين – فى الارشاد والشامل ونحوها مضموما إلى ما تلقاه من القاضى أبى بكر الباقلانى لكنه فى أصول الفقه سلك فى الغالب مذهب ابن الباقلانى مذهب الواقفة ونصويب المجتهدين ، وأما فى الكلام فطريقته طريقة شيخه القاضى أبى بكر ، وشيخه فى أصول الفقه يميل إلى مذهب الشافعى وطريقة الفقهاء .

ومادة أبى حامد فى الفلسفة من كلام ابن سينا ، ولهذا يقال أبو حامد أمرضه « الشفاء » ، ومن كلام أصحاب رسائل الصفا ورسائل أبى حيان التوحيدى ونحو ذلك ....

وأما فى التصوف وهو أجل علومه وبه نبل ، فأكثر مادته من كلام الشيخ أبى طالب المكى الذى يذكره فى المنجيات فى الصبر والشكر والرجاء والخوف والمحبة والاخلاص ، فإن عامته مأخوذة من كلام أبى طالب . لكن أبا طالب أسد وأعلى ، وما يذكره فى ربع المهلكات فأخذ غالبه من كلام الحارث المحاسبى فى الرعاية كالذى يذكره فى ذم الحسد والعجب والفخر والرياء والكبر ونحو ذلك .

وله موقفه أيضا عند مناقشته بمضمون الكتب المشكوك فى نسبتها للغزالى مثـل (مشكاة الأنوار) لأنه على طريق الفلاسفة ، وحرص ابن تيمية على نقدها بسبب مخالفة مضمونها للكتاب والسنة ، ويرى أن الغزالى مات على خير أحواله طالبا الحديث فى الصحيحين .

وعندما سئل عن « إحياء علوم الدين » فأجاب بأنه تبع كتاب « قوت القلوب » فيما يذكره من أعمال القلوب : مثل الصبر والشكر والحب والتوكل والتوحيد ونحو ذلك . ولكن أبا طالب صاحب كتاب « قوت القلوب » أعلم بالحديث والأثر وكلام علوم القلوب من الصوفية وغيرهممن أبى حامد الغزالى ، وكلامه أسد وأجود تحقيقا ، وأبعد عن البدعة ، على أن فى (قوت القلوب) أحاديث موضوعة وضعيفة وأشياء كثيرة مردودة .

وأما ما فى « الاحياء » من الكلام فى المهلكات مثل الكلام على الكبر والعجب والرياء والحسد ونحو ذلك فغالبه منقول من كلام الحارث المحاسبى فى الرعاية ، ومنه ما هو مقبول ومنه ما هو مردود ومنه ما هو متنازع فيه .

و« الإحياء » فيه فوائد كثيرة لكن فيه مواد مذمومة ، فإنه فيه مواد فاسدة من كلام الفلاسفة تتعلق بالتوحيد والنبوة . فإذا ذكر معارف الصوفية كان بمنزلة من أخذ عدوا للمسلمين ألبسه ثياب المسلمين . وقد أنكر أئمة الدين على « أبى حامد » هذا فى كتبه وقالوا : أمرضه الشفاء ، يعنى شفاء ابن سينا فى الفلسفة . وفيه أحاديث واثار ضعيفة بل موضوعة كثيرة ، وفيه أشيَاء من أغاليط الصوفية وترهاتهم .

وفيه مع ذلك من كلام المشايخ الصوفية العارفين المستقيمين فى أعمال القلوب الموافق للكتاب والسنة ومن غير ذلك من العبادات والأدب ما هو موافق للكتاب والسنة ما هو أكثر مما يرد منه : فلهذا اختلف فيه اجتهاد الناس وتنازعوا فيه .

وفى موضع اخر يزيد الأمر إيضاحا فيذكر أن فى الاحياء أحاديث كثيره صحيحة وأحاديث كثيرة ضعيفة أو موضوعة ، فإن مادة مصنفه فى الحديث والاثار وكلام السلف وتفسيرهم للقران مادة ضعيفة ، وأجود ما له من المواد المادة الصوفية ، ولو سلك فيها مسلك الصوفية أهل العلم بالاثار النبوية واحترز عن تصوف المتفلسفة الصابئين لحصل مطلوبه ونال مقصوده ، لكنه فى آخر عمره سلك هذا السبيل ، وأحسن ما فى كتابه ، أو من أحسن ما فيه ما يأخذه من كتاب أبى طالب فى مقامات العارفين ونحو ذلك ، فإن أبا طالب أخبر بذوق الصوفية حالا وأعلم بكلامهم واثارهم سماعا وأكثر مباشرة لشيوخهم الأكابر[٩٥] .

---

(٩٥) انظر : بغية المرتاد ص١٠ و١٩ و١٠٤ و١٤ ، مجموع فتاوى شيخ الإسلام ج١٠ ص٥٥١ — ٥٥٢ط الرياض ، شرح العقيدة الأصفهانية ص١٢٨ ط الكردى ١٣٢٩هـ .

ومن الميسور أن نلاحظ أيضا أن القواعد والأصول التى وضعها شيخ الإسلام لم تجعله ينحنى أمام أحد - علميا أو أخلاقيا أو مذهبيا - لأن معرفة الحق هى الأولى ، وبيان الخطأ بميزان الحق والعدل ينبغى أن يكون هو المقياس كائنا من كان صاحبه . فلا عصمة لأحد بعد رسول الله ﷺ . وفى هذا الصدد يقول ابن تيمية : « فالسالك طريق الفقر والتصوف والزهد والعبادة إن لم يسلك بعلم يوافق الشريعة وإلا كان ضالاً عن الطريق ، وكان ما يفسده أكثر مما يصلحه . والسالك من الفقه والعلم والنظر والكلام إن لم يتابع الشريعة ويعمل بعلمه وإلا كان فاجرا ، ضالا عن الطريق . فهذا هو الأصل الذى يجب اعتماده على كل مسلم » . بهذه القاعدة وقف ابن تيمية لينقد ألمع الأسماء المنتمية لأهل السنة من الصوفية كالامام الغزالى[٩٦] .

وبعد ، فإننا نخشى أن يطول بنا الحديث ويخرج عن العرض ، إذ أننا هنا نجمل مكتفين بالاشارات العامة مرجئين ذلك إلى كتبنا التالية[٩٧] .

ولذا فإننا لن نتابع الاتجاه السلفى منذ ابن تيمية إلى العصر الحديث ، فمن المعروف أنه كان معارضا للتصوف وما زال إلى الان ، وإذا كان موقف شيخ الإسلام يتسم بالوسطية - ونعنى بذلك موافقته على جانب من التصوف دون اخر ، أى المتفق مع الكتاب والسنة دون المخالف لهما فإننا فى العصر الحديث نجابه تغييرا حاسما لدى علماء السلف ، بإنكارهم التام للتصوف فى شتى أشكاله وصوره فما هذا الرفض والانكار ؟

فبالرغم من حرص السلفيين المعاصرين على متابعة ابن تيمية فى منهجه واجتهاداته ، فقد أخذوا موقفا مستقلا تمليه عليهم العوامل الطارئة على المجتمعات

(٩٦) مجموعة الرسائل والمسائل ج١ ص٢١٩ - ٢١٠ ط رشيد رضا ١٣٤١هـ .
(٩٧) ينظر كتابنا : ابن تيمية والتصوف - دار الدعوة بالاسكندرية - والتصوف والاتجاه السلفى فى العصر الحديث .

الإسلامية ، حيث ازدادت مظاهر البدع ، واستغل التصوف كوسيل لمجابه الحركات السلفية المعاصرة ، وهنا عدة أسئلة ، تشكل الاجابة عليها عوامل جديدة ينبغى أخذها فى الاعتبار ، ولم تكن موجودة فى عصر شيخ الإسلام .

أول هذه الأسئلة : ما سر اهتمام دوائر الاستشراق فى المجال العلمى الأكاديمى بالتصوف فى الإسلام بعامة والاتجاهات المتحرفة بخاصة ؟ **وثانيهما : ما سبب التعايش السلمى – لو صح التعبير – بين مشايخ الطرق الصوفية والأنظمة الاستعمارية إلا فيما ندر ؟ ولا بد من التوقف برهة لنستخلص مغزى تحذير ما سينيون عند تقويمه للحركات الإسلامية فى الجزائر وشمال أفريقيا من التيار السلفى .**

وثالث الأسئلة : لم انصب جام غضب الغرب على شيوخ السلف ؟ وبالعكس نلاحظ معاملتهم الرقيقة للشخصيات القلقةفى الإسلام، ونكاد نقول المادحة المغرقة فى المدح لأمثال الحلاج ، وابن عربى ، وابن سينا ، وغيرهم فى مجال الفلسفة وعلم الكلام والتصوف ؟

وتشكل الاجابة على هذه الأسئلة جميعا العامل الجديد الذى أضافه نقاد المدرسة السلفية فى العصر الحديث للتصوف ، وينصب على سلبيته وجبرية أتباعه وترويجهم للبدع ، وحسن ظن شيوخه بالقوى المعادية ، ولا نقول علاقات بعضهم المريبة بالاستعمار الغربى وسلطاته ، بينما يظن أغلب أتباعهم وهم عادة أبرياء ويحسنون الظن ، أنهم استأثروا بالجانب العاطفى من الإسلام الذى يغذى الروح والوجدان فى الإنسان ، للوقوف فى وجه الحضارة المادية الطاغية الواردة من الغرب ، ويكفى القول لهؤلاء : هل يحتاج الأمر إلى اتخاذ طريق التصوف ؟ إن معنى ذلك أن الإسلام جاء – والعياذ بالله – ناقصا لهذا

الجانب فجاؤا فأتموا ، وكل مسلم مخلص يعرف خطأ هذا الزعم ، فالإسلام يعالج الإنسان كوحدة نفسية جسمية ، مقرا لجانبيه المادى والروحى معا ، وأى تشخيص وعلاج لجانب دون اخر ، يخل بالنظرية والتطبيق جميعا .

وبتجرد تام ، نفترض جدلا – مخالفين بذلك كافة الأدلة والبراهين التى قدمها المعارضون – نفترض جدلا خلو التصوف من أية عناصر أجنبية .

ونمضى فنقول : إنه يعبر عن الجانب الوجدانى العاطفى ، أو السلوكى الأخلاق ، فإنه بهذا المفهوم يقتطع جانبا واحدا من الإسلام ، والإسلام يتصف بالشمول والتكامل ، ولذا إذا دخل فى حلبة النزاع مع الفكر الفلسفى الغربى ، أو النظريات والاجتماعية والسياسية والاقتصادية التى تطالعنا ليل نهار ، وتغزونا فى عقر دارنا ، فسرعان ما سينسحب عاجزا عن المقاومة مهما ادعى أصحابه أنهم إيجابيون وأهل جهاد ، لأن سياق المذهب الصوفى يؤدى حتما إلى العجز عن مواجهة أفكار واراء تدعى أنها تقدم حلولا لمشاكل الإنسان الحالية والمستقبلة .

فهل يستطيع التصوف – حتى ولو خلا من روافد البدع – أن يجابه التيار العاتى لفلسفات منتشرة بأجنحتها على العالم كله ، كالماركسية والوجودية والبرجماتية مثلا ؟

أما النزاع الناشب بين هذه الأنظمة والمسيحية فيرجع لأسباب يعرفها المؤرخون ، ولا ننسى العبارة المشهورة التى أطلقها كارل ماركس بقوله : « إن الدين أفيون الشعوب » ، وفى مخيلته صكوك الغفران ، ووعود رجال الكنيسة لاتباعهم بالاخرة مقابل إهمال هذه الدنيا ، وهذا التصور مطابق تماما للنظرة الصوفية أيا كان دين صاحبها ، فلليهودية تصوف ، وللمسيحية تصوف وللبوذية تصوف !!

ولكن الإسلام من واقع النظرة الصحيحة المستمدة من مصادره ومساره التاريخى الذى أقام حضارة وأنار الإنسانية طوال قرون طويلة ، هو الخصم . القوى فى الميدان ، فإنه لا يدعو إلى الفرار من الحياة ليلتقى مع الإنسان فى النعيم الأخروى ، ولكنه يتسم بالواقعية ، فلا يفر ولا يجعل الإنسان رافضا لواجباته ومسئولياته فى هذه الحياة الأولى ، بل يتدخل فى وضع أنظمة حياته فى فروع الحياة كلها ، كبيرها وصغيرها - ويجابه - بل ويتحدى - أية أنظمة بشرية تدعى أنها فرغت من وضع الخطة الكاملة لاسعاد البشرية ، لأن أى دارس محايد يحترم عقله ، ويستخدم موازين العلم فى البحث والدراسة يرى أن العالم يعانى من أزمات تلو الأزمات ، لا لسبب ، إلا لانه حاد عن الطريق الصحيح لاسعاده ، وهو الطريق الذى رسمه له خالقه عز وجل .

● تفسير ابن تيمية للتاريخ وتحذيره للمسلمين :

كثيرا ما يتوقف الباحث عند النظريات العميقة لابن تيمية فى تاريخ الأمم السالفة ، وفى نظرة نابعة من مقارنة بين الأمم أصحاب الرسالات وغيرها التى لم يبعث فيها أنبياء ، وبلغتنا المعاصرة ، وفى ضوء دراستنا لفلسفة التاريخ ، قد لا يصبح من قبيل التسرع فى الحكم ، القول بأنه صاحب نظرة تفيد أن التاريخ سجل لأعمال الأنبياء والرسل ، وأن الحضارات من صنعهم ، وبقدر الاقتراب أو الابتعاد من تنفيذ الرسالات السماوية التى نيطت بهم ، تنهض الحضارات الإنسانية أو تندثر ، بل تتحقق سعادة البشر أو تشقى (والله سبحانه يثبت وجود جنس الأنبياء ابتداء فى السور المكية حتى يثبت وجود هذا الجنس وسعادة من اتبعه وشقاوة من خالقه)[٩٨] . وتوجه الله عز وجل للمكذبين بالرسل بمثل قوله ﴿ **أفلم يسيروا فى الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها ،**

(٩٨) النبوات ص٢٧ .

أو اذان يسمعون بها فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور ﴾ .

والأمم – حسب تقسيمه – نوعان . نوع لهم كتاب منزل من عند الله تعالى كاليهود والنصارى ، ونوع لا كتاب لهم كالهند واليونان والترك ، وكالعرب قبل مبعث محمد ﷺ . وقد بعث ابراهيم عليه السلام إلى الروم الصابئة الذين عاشوا بمقدونيا وغيرها ، فإن من اثار الصابئة بحران الهياكل التى للعلة الأولى والعقل والنفس والكواكب ، فإن هذا ليس من دين اليهود والنصارى ولا فارس والروم المتنصرة(٩٩) وكثيرا ما يرى أن هناك علاقة بين فلاسفة اليونان وبين عبدة الكواكب لأنهم يعظمون الأفلاك ، كما سمحت له قراءاته فى التاريخ بتصحيح الخطأ الذى كان شائعا عن اسكندر ذى القرنين الوارد بالقران الحكيم ، إذ ظن البعض أنه اسكندر المقدونى تلميذ أرسطوطاليس .

إن مسار التاريخ يمضى على أقدام الأنبياء والرسل ، فهم رسل الله إلى البشرية خصهم بايات ودلائل ومعجزات ، ويسر معرفتهم على خلقه ، بل إن طريق معرفة الأنبياء كطريق معرفة نوع من الأديان خصهم الله بخصائص يعرف ذلك من اخبارهم واستقراء أحوالهم كما يعرف الأطباء والفقهاء ، مثال ذلك من رأى نحو سيبوية ، وطب أبقراط ، وفقه الأئمة الأربعة ونحوهم كان إقراره بذلك من أبين الأمور ، ومن هنا قرب الله تعالى فى القران أمر النبوة وإثبات جنسها بما وقع فى العالم من قصة نوح وقومه ، وهود وقومه ، وصالح وقومه ، وشعيب ولوط وابراهيم وموسى وغيرهم(١٠٠) .

---

(٩٩) الجواب الصحيح : ليدن ج٤ ص٩٩ والاستغاثة ج٢ ص٢٠٤ – ٣٠٥ .
(١٠٠) النبوات ص٢٦ – ٢٧ .

كما يحدثنا القران أن كل أمة جاءها رسول ، قال تعالى ﴿ **ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت ، فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة ، فسيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين** ﴾ ١٩٩ البقرة ، ﴿ **إنا أرسلناك بالحق بشيرا ونذيرا** ﴾ ٢٤ فاطر ﴿ **وإن من أمة إلا خلا فيها نذير** ﴾ والانبياء وسائط بين الله وعباده فى تبليغ أمره ونهيه ووعده ووعيده[١٠٢] ، وقد بعثوا صلوات الله عليهم بتحصيل المصالح وتكميلها ، وتعطيل المفاسد وتقليلها ، فأصبح أتباع الرسل أكمل الناس ، وعلى العكس من ذلك ، فإن المكذبين للرسل يتبعون المفاسد ويعطلون المصالح .

ويقرر ابن تيمية أن السعادة إذن فى اتباع الأنبياء والرسل ومناهجهم أدعى. إلى الاقناع ومخاطبة الكافة ، ودليله على ذلك أن البشرية لم تنقطع صلتها بالأنبياء على طول تاريخها ، مع تواتر أخبارها ، فصار ظهور الأنبياء مما تؤرخ به الحوادث فى العالم لظهور أمرهم عند الخاصة والعامة ، فإن التاريخ يكون الحادث المشهور الذى يشترك الناس فيه ليعرفوا به كم مضى قبله وبعده[١٠٣] .

أما إذا قارن بين الأنبياء والفلاسفة فإنه يرى أن منهج الأنبياء قائم على أمرالبشر بما فيه صلاحهم ونهيهم عما فيه فسادهم ، سالكين فى ذلك أقرب الطرق فلا يشغلونهم بالكلام فى أسباب الكائنات كما تفعل الفلاسفة ، فإن منهج هؤلاء كثير التعب قليل الفائدة ، أو موجب الضرر ، ويضرب مثلا على ذلك فيذكر ان مثل النبى ﷺ مثل طبيب زار مريضا فرأى مرضه فدله على

---

(١٠١) النبوات ص٣٥ .
(١٠٢) طريق الوصول ص١٤٠ .
(١٠٣) نقض المنطق : ص١٥/١٤٦٤ .

شرب دواء معين وأمره بنظام خاص فى الطعام والشراب فإطاع المريض فشفى ، ولكن الفيلسوف يسلك طرقا طويلة ، إذ يتكلم فى سبب المرض وصفته ، وذمه ، ما أوجبه ولو سأله المريض عما يشفيه ، عجز عن الاجابة .

وبمثل هذه القاعدة ، ينتقل إلى النظر إلى تاريخ المسلمين خاصة ، فيبرهن ابن تيمية على أن اتباع محمد ﷺ أدعى للعلم والتوحيد والسعادة . ويعنى بذلك المقارنة بين الصحابة والتابعين لهم ، وبين المتكلمين وفلاسفة المسلمين ، ويقف أمام الأحداث التاريخية فيعلّلها بسبب مخالفة الأصول الإسلامية فى القران والحديث ، فيرى أن إنقراض دولة بنى أمية كانت بسبب الجعد بن درهم والجهم بن صفوان ، إلى جانب أسباب أخرى أوجبت إدبارها[١٠٤] .

وربما يعنى بذلك أن العقيدة عندما خمدت فى النفوس وفقدت فاعليتها عما كانت لدى المسلمين الأوائل ، ظهر الضعف فى الأمة ، إذ تحولت العقيدة الراسخة من قوة محركة ناجمة عن إقناع عقلى ويقين قلبى ، إلى مجرد أفكار جلية تتطاول إلى الحديث عن الذات الالهية ، ففقدت القلوب الهيبة . ولما تضاءلت العقيدة فى النفوس وأصابها الوهن ، وتحولت إلى مناقشات وجدل كلامى وفلسفى ، وظهر النفاق والبدع والفجور ، هان المسلمون على أعدائهم فغزى الصليبيون أراضى الإسلام واستولوا على بيت المقدس فى أواخر المائة الرابعة[١٠٥] وكذلك بالنسبة لحروب التتار ، حتى رأى البعض أن هولاكو ملك التتار بمثابة بختنصر لبنى اسرائيل ، مستندين إلى تفسير سورة بنى اسرائيل التى توعدهم الله تعالى إذا أفسدوا فى الأرض[١٠٦] .

---

(١٠٤) الفرقان بين الحق والباطل ص١٢٢ .
(١٠٥) نفس المصدر ص١٢٠ .
(١٠٦) نفس المصدر ص١٢٠ - ١٢١ .

ويمضى شيخ الإسلام فى تفسير الأحداث التاريخية وفقا لهذه القاعدة . فيذكر أن محنة القران كانت بداية لتشجيع القرامطة الباطنية فى إظهار ارائهم بعد ترجمة كتب الفلاسفة ، ولما رأت الفلاسفة أن القول المنسوب إلى الرسول ﷺ وأهل بيته هو هذا القول الذى يقوله المتكلمون الجهمية ومن اتبعهم ، ورأوا أن هذا القول الذى يقولونه فاسد من جهة العقل ، طمعوا فى تغيير الملة ، فمنهم من أظهر إنكار الصانع ، وأظهر الكفر الصريح ، وقاتلوا المسلمين ، وأخذ قرامطة البحرين الحجر الأسود[١٠٧] ، ولم يقتصر الأمر على انتصار الخصوم فى مجال الحروب فحسب ، بل اشتد الخطب إلى مجال الفكر والعقيدة لأن فتح باب القياس الفاسد فى العقليات بواسطة المتكلمين ، شجع الزنادقة على المضى فى تنفيذ مخططاتهم ، فانتهى بالقرامطة إلى إبطال الشرائع المعلومة كلها ، كما قال لهم رئيسهم بالشام ، لقد أسقطنا عنكم العبادات فلا صوم ولا صلاة ولا حج ولا زكاة[١٠٨] .

وقبل الانتهاء من هذه اللمحة لموقف ابن تيمية من التاريخ ، فإننا نعجب من تفاؤله بينما كان فى وسط ظروف حالكة الظلام ، ومع هذا فإنه يقدم تفسيرا للحديث (إن الله يبعث لهذه الأمة فى رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها) . فالتجديد إنما يكون بعد الدروس ، وذلك هو غربة الإسلام ، ثم يحاول إدخال الطمأنينة فى القلوب (وهذا الحديث يفيد المسلم أنه لا يغتم بقلة من يعرف حقيقة الإسلام ، ولا يضيق صدره بذلك ، ولا يكون من دين الإسلام ، كما كان الأمر حين بدأ ، قال تعالى ﴿ فإن كنت فى شك مما أنزلنا إليك فاسأل الذين يقرأون الكتاب من قبلك ﴾[١٠٩] (ولكنه فى

---

(١٠٧) شرح حديث النزول ص١٧٣ – منشورات المكتب الإسلامى ١٣٨٩هـ – ١٩٦٩م .
(١٠٨) نفس المصدر ص١٦٩ (وينظر ص١٦٣و ١٦٥) .
(١٠٩) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ج١٨ ص٢٩٨ – ٢٩٩ ط الرياض .

الوقت نفسه يحذر من مخالفة الأوامر الالهية ، لأن الذنوب تورث الهزائم والكوارث للمسلمين كالهزيمة التى أصابتهم يوم أحد ، ويعلل المقصود بقصص بنى إسرائيل فى القران اتخاذهم عبرة لنا ، مستشهدا ببعض السلف القائلين (إن بنى إسرائيل ذهبوا ، وإنما يعنى أنتم) . ومن الأمثال السائرة (إياك أعنى واسمعى يا جارة) . وهكذا يعود بنا إلى نفس الأصل الذى يفسر به التاريخ .

حاجتنا إلى معرفة العقيدة الإسلامية

يبدو العنوان لأول وهلة لافتا للنظر ، فربما سأل سائل : وهل نحن فى حاجة كمسلمين لمعرفة العقيدة على صفحات الكتب ونحن نشهد شهادة التوحيد ونلتزم بأداء العبادات ؟

وإجابتى على هذا السؤال أننا حقا نعرف عقيدتنا كأصول وقواعد عامة متفرقة بحسب ما تلقيناه من دروس فى (الدين) أو ما استمعنا إليه من خطب ومحاضرات أو قرأناه فى كتب ومقالات .

كل هذا حسن ، ولكن قارنوا بين هذه المعلومات المتفرقة التى نحصلها باجتهاداتنا الخاصة ، وبين (كم) معلوماتنا الثقافية فى العلوم والاداب والفنون والصناعات .

لقد برعنا فى تحصيل العلوم والمعارف بكفاءة واقتدار ، وظهر منا النابغون فى المهن والصناعات والفنون .

ولكن الظاهرة العامة هى ضعف التحصيل فى علوم الدين – لاسيما العقيدة والفقه – بينما تشكل العقيدة قلب الأمة وتحدد ملامحها وتبرز معالمها حضارتها .

وربما كان للبعض العذر لأنه ليس مجال تخصصه أى معرفة أركان العقيدة الإسلامية وأصولها ، وهى نقطة ضعف خطيرة يترتب عليها اهتزاز تصورنا للحياة والوجود والمصير وما ينجم عنه من آثار فى أعمالنا وقيمنا وعلاقتنا مع بعضنا البعض كمجتمعات إسلامية أو علاقتنا بغيرنا من دول العالم .

إننـــا فى حاجة إلى بناء الإنسان على أساس (عقائدى) إسلامى لا على أساس وطنى أو قومى مبنى على تقليد ومحاكاة لحضارة أخرى (١١٠) .

وإذا أردتم الدليل فادرسوا تاريخنا وضعوا أعينكم على العلاقة المضطردة بين معرفة أجدادنا واستمساكهم بعقيدتهم وبين أزدهار حضارتهم ، ثم تتبعوا سبل الاستعمار الغربى العسكرى والثقافى كيف حقق أهدافه مستفيدا من دروس حروبه الصليبية فى العصور الوسطى ، وجاءنا فى العصر الحديث مزودا بحصيلة تجاربه ، حيث نجح فى (هدم) و (تخريب) نسيج الإنسان المسلم وأحل محله إنسانا غريبا عن والإسلام غريب عليه

وما لم نعالج التخريب الذى أحدثه الاستعمار داخل نفوسنا بأن نصحح عقيدتنا ونجعلها أساسا للحركة والبناء الحضارى ، ما لم نفعل ذلك فأننا كمن يحرث فى البحر .

دور العقيدة فى تاريخنا الفكرى :

ويزداد الأمر وضوحا ويصبح أكثر إقناعا إذا تزودنا برؤية أحد عمالقة الفكر فى العصر الحديث بافاقه الواسعة الجامعة بين ثقافة العصر الفلسفية والحضارة الإنسانية بادابها وفنونها وتواريخ الأمم .

---

(١١٠) ويجدر أيضا التنويه بفكرة (توجيه الطاقات) لمالك بن نبي المشار إليها بالمقدمة .

لقد انتقل إلينا من الغرب رافضا له ولحضارته مقبلا على الإسلام فإقتناع وشوق ذلكم هو الفيلسوف المسلم (رجاء جارودى) . إنه فى بحثه عن عوامل الانتشار العاصف للاسلام استبعد جارودى إرجاع انتصار المسلمين إلى عوامل خارجة كضعف أو انحلال الامبراطوريات المهزومة (الرومانية والفرس الساسانية والفيزيغوت الاسبانية(١١١) ، ولكنه أرجع هذا الانتشار العاصف إلى أسباب عميقة تتصل بجوهر الإسلام وروحه (وفى رأس هذه الأسباب الالحاح على إعلاء كلمة الله تعالى) إلى جانب أسباب أخرى منها تحرير المضطهدين فى ظل مظالم الامبراطوريات الانفة سياسيا واقتصاديا ودينيا .

وفى أسبانيا بالذات ، كان مثيرا للعجب أن تنتصر فئة من سكان الحجاز وتنجح حفنة من البدو من أقاصى الجزيرة العربية فى فرض لغتهم وعقيدتهم الإسلامية على خمسة عشر مليونا فى شبه قارة مساحتها ستمائة ألف كيلو متر !!

وسرعان ما يزول العجب إذا أخذنا فى الحسبان قوة العقيدة الإسلامية ووصول بعض القادة العرب واخرهم عبد الرحمن .

ثم يأتى بعد ذلك التسامح مع أهل الكتاب من اليهود والنصارى وأتباع زرادشت والهندوس أيضا .

ودام الأمر كذلك يستبعد جاوردى (القوة) ويصحح مفهوم المستشرق (ماكدونالد) عن (الجهاد) لأنه لا يعنى (الحرب) فالحرب لفظة أخرى مستقلة ، فالجهاد (جهد) مبذول فى سبيل الله[١١٢] .

---

(١١١) جارودى : ما يعد به الإسلام ص٦٠ ترجمة قصى أتاسى - ميشيل واكيم دار الوثبة - دمشق سنة ١٩٨٢م .
(١١٢) نفسه ص٦٥ - ٦٦ .

والآن نلخص العقيدة كما فصلها شيخ الإسلام ابن تيمية[113] ، وكان ملتزما بمصطلحات عصره ، وما جرت عليه الأقلام والألسنة بالمقارنة مع عقائد الفرق المنشقة من عقيدة أهل السنة والجماعة .

وبعد أن عرفنا أسماء هذه الفرق وعقائدها ، سهل علينا الوقوف على العقيدة الصحيحة كما عرضها بالمنهج المقارن ، وبعقلية تركيبية فذة بحيث عرض فى بيان العقيدة بين التوحيد ومعرفة الله تعالى بصفاته وأفعاله وأسمائه الحسنى والايمان بالآخرة وتفاصيل أحداثها وتعريف المسلم بما ينتظره منذ لحظات موته فى قبره من نعيم أو عذاب .

إلى النظر إلى الصحابة وتقديرهم والدفاع عنهم .

ويختم العقيدة ببيان مكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال :

قال فى المقـــدمة :

« الحمد لله الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيدا ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له قرارا به وتوحيدا وأشهد أن محمدا عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى اله وسلم تسليما مزيدا ، أما بعد :

فهذا اعتقاد الفرقة الناجية المنصورة إلى قيام الساعة أهل السنة والجماعة وهو الايمان بالله وملائكته وكتبه ورسله والبعث بعد الموت وبالقدر خيره وشره . ومن الايمان بالله الايمان بما وصف به نفسه ووصفه به رسوله محمد

(١١٣) وهى المسماة بالعقيدة الواسطية .

ﷺ – من غير تحريف ولا تعطيل ولا تكييف ولا تمثيل بلى يؤمنون بأن الله ليس كمثله شئ وهو السميع البصير فلا ينفون عنه ما وصف به نفسه ولا يحرفون الكلم عن مواضعه ولا يلحدون فى أسماء الله واياته ولا يكيفون ولا يمثلون صفاته بصفات خلقه ، لأنه سبحانه لا سمى له ولا كفؤ له فإنه سبحانه أعلم بنفسه ، وأصدق قيلا ، وأحسن حديثا من خلقه . ثم رسله صادقون مصدقون بخلاف الذين يقولون على الله ما لا يعلمون . ولهذا قال سبحانه ﴿ **سبحان ربك العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين** ﴾ ، فسبح نفسه عما وصفه به المخالفون للرسل وسلم على المرسلين لسلامة ما قالوه من النقص والعيب ، وهو سبحانه قد جمع فيما وصف وسمى به نفسه بين النفى والاثبات ، فلا عدول لأهل السنة والجماعة عما جاء به المرسلون فإنه الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين) .

وبعد الاستشهاد بالايات القرانية والأحاديث النبوية الدالة على صفات الله تعالى وأفعاله يقرر أن الفرقة الناجية أهل السنة والجماعة يؤمنون بذلك كما يؤمنون بما أخبر الله به فى كتابه من غير تحريف ولا تعطيل ، ومن غير تكييف ولا تمثيل ، بل هم الوسط فى فرق الأمة ، كما إن هذه الأمة هى الوسط فى الأمم فهم وسط فى صفات الله سبحانه وتعالى بين أهل التعطيل الجهمية وأهل التمثيل المشبهة ، وهم وسط فى أفعال الله بين الجبرية والقدرية وفى باب وعيد الله بين المرجئة والوعيدية من القدرية وغيرهم .

وفى باب أسماء الايمان والدين بين الحرورية المعتزلة وبين المرجئة الجهمية وفى أصحاب رسول الله ﷺ بين الرافضة والخوارج ... إلى أن يقول :

ومن الايمان بالله وكتبه الايمان بأن القران كلام الله منزل غير مخلوق ، منه بدأ وإليه يعود . وأن الله تكلم به حقيقة . وأن هذا القران الذى أنزله على محمد ﷺ هو كلام الله حقيقة لا كلام غيره .

وفى فصل آخر يذكر أن من الايمان باليوم الآخر الايمان بكل ما أخبره به النبى ﷺ مما يكون بعد الموت ، فيؤمنون بفتنة القبر وبعذاب القبر ونعيمه .

فأما الفتنة : فإن الناس يفتنون فى قبورهم فيقال للرجل : من ربك وما القول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ، فيقول المؤمن : ربى الله والإسلام دينى ومحمد ﷺ نبيى .

وأما المرتاب فيقول : هاه هاه لا أدرى سمعت الناس يقولون شيئا فقلته ، فيضرب بمرزبة من حديد فيصيح صيحة يسمعها كل شئ إلا الإنسان ولو سمعها الإنسان لصعق ثم بعد هذه الفتنة - إما نعيم وإما عذاب .

إلى أن تقوم القيامة الكبرى فتعاد الأرواح إلى الأجساد ، وتقوم الساعة التى أخبر الله بها فى كتابه وعلى لسان رسوله وأجمع عليها المسلمون فيقوم الناس من قبورهم لرب العالمين حفاة عراة غرلا ، وتدنو منهم الشمس وتنصب الموازين فتوزن فيها أعمال العباد ، فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون ، ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم فى جهنم خالدون ويبين تفاصيل حساب الله تعالى للخلائق ، والصراط المنصوب على متن جهنم وهو الجسر الذى بين الجنة والنار - يمر الناس عليه على قدر أعمالهم ، ثم يذكر شفاعات الرسول ﷺ ، لأهل الموقف وأهل الجنة وفيمن استحق النار ... إلى غير ذلك وتفاصيلها مذكورة فى الكتب المنزلة من السماء والآثار من العلم المأثور عن الأنبياء عليهم السلام ، وفى العلم الموروث عن محمد ﷺ من ذاك ما يشفى وما يكفى ، فمن ابتغاه وجده .

وتؤمن الفرقة الناجية أهل السنة والجماعة بالقدر خيره وشره .

وفى فصل اخر يوضح أن من أصول أهل السنة أن الدين والايمان قول وعمل . قول القلب واللسان ، وعمل القلب واللسان والجوارح ، وأن الايمان يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية ، وهم مع ذلك لا يكفرون أهل القبلة بمطلق المعاصى والكبائر .

أما موقفهم من أصحاب رسول الله ﷺ فانهم يقبلون ما جاء به الكتاب والسنة والاجماع من فضائلهم ومراتبهم ... مع اقرارهم بأن خير هذه الأمة بعد نبيها - ﷺ - أبو بكر ثم عمر ثم عثمان ثم على رضى الله عنهم .

إلى أن يقرر امساكهم عما شجر بين الصحابة ويقولون أن هذه الاثار المروية فى مساويهم منها ما هو كذب ومنها ما هو زيد فيها ونقص وغير عن وجهه ، والصحيح منه هم فيه معذورون - إما مجتهدون مصيبون وإما مجتهدون مخطئون ، ولهم من السوابق والفضائل ما يوجب مغفرة ما يصدر منه إن صدر ، وفى فصل اخر يقول (ثم من طريقة أهل السنة والجماعة اتباع اثار رسول الله ﷺ - باطنا وظاهرا واتباع سبل الأولين من المهاجرين والأنصار) .

كما يبين أيضا أنهم سموا أهل الكتاب والسنة لاتباعهم هذين المصدرين . وسموا أهل الجماعة لأن الجماعة هى الاجتماع وضدها الفرقة ، والاجماع ، وهو[١١٤] ، وهم يزنون بهذه الأصول الثلاثة جميع ما عليه الناس من أعمال وأفعال باطنة أو ظاهرة مما له تعلق بالدين .

---

(١١٤) ويقول ابن كثير : وقد ضمنت لهم العصمة - عند اتفاقهم - من الخطأ كما وردت بذلك الأحاديث المتعددة أيضا ، وخيف عليهم الافتراق والاختلاف ، تفسير ابن كثير ج٢ ص٧٤ ط الشعب .

ثم يذكر فى النهاية قيامهم بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، ويدينون بالنصيحة للأمة ... ويأمرون بالصبر عند البلاء والشكر عند الرخاء والرضا بمر القضاء ، ويدعون إلى مكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال ، ويعتقدون معنى قوله ﷺ أكمل المؤمنين إيمانا أحسنهم أخلاقا ، ويندبون إلى أن تصل من قطعك وتعطى من حرمك وتعفو عمن ظلمك ، ويأمرون ببر الوالدين وصلة الأرحام وحسن الجوار والاحسان إلى اليتامى والمساكين وابن السبيل . ويأمرون بمعالى الأخلاق وينهون عن سفسافها أ . هـ .

المبحث الثالث

قواعد المنهج السلفى فى الفكر الإسلامى

● **معنى مصطلح « السلف » :**

* القاعدة الأولى : تقديم الشرع على العقل .
* القاعدة الثانية : رفض التأويل الكلامى .
* القاعدة الثالثه : الاستدلال بالآيات القرانية .

● **السلفية فى العصر الحديث :**

- الشمول
- التقدم لا الرجوع إلى الوراء
- الأصالة لا التقليد .



معنى مصطلح السلف

لا بأس من إعادة التعريف بالسلف مرة أخرى توطئة لتوضيح قواعد المنهج عندهم ، فالمراد تارخيا بالسلف الصحابة والتابعين من أهل القرون الثلاثة الأولى ، فأصبح مذهب السلف علما على ما كان عليه هؤلاء ، ومن تبعهم من الأئمة ، كالأئمة الأربعة وسفيان الثورى وسفيان بن عيينة والليث بن سعد وعبد الله بن المبارك والبخارى ومسلم وسائر أصحابها السنن ، الذين اتبعوا طريق الأوائل جيلا بعد جيل ، دون من وصف بالبدعة كالخوارج والشيعة والمرجئة والقدرية والمعتزلة وغيرهم[1] .

وظهر مصطلح « السلف » حيث دار النزاع حول أصول الدين بين الفرق الكلامية ، ومحاولة الجميع الانتساب إلى السلف الصالح ، فكان ينبغى ظهور قواعد واضحة للاتجاه السلفى تميزه عن مدعى الانتساب للسلفية ، ويسترشد بها أيضا للفهم الصحيح للعقيدة الإسلامية :

● **القاعدة الأولى : تقديم الشرع على العقل :**

أول هذه القواعد اتباع السلف الصالح فى الفهم والتفسير ، ففى الصفات الالهية إثباتها بلا كيف ، وفى المسائل الكلامية الأخرى ، اتخاذ الأوائل قدوة فى النظر والعمل ، فالقران والحديث أولا ، ثم الاقتداء بالصحابة (لأن الوحى كان ينزل بين أظهرهم فكانوا أعلم بتأويله من أهل العصور التالية ، وكانوا مؤتلفين فى أصول الدين ، لم يفترقوا فيه ، ولم يظهر فيه البدع والأهواء[2] .

---

(١) أحمد بن حجر آل بو طامى آل بن على (قاضى المحكمة الشرعية بقطر) : العقائد السلفية بأدلتها النقلية والعقلية ص١ .

(٢) عقائد السلف ص٣٠٩ .

ومنها نظهر السمة الغالية على أصحاب المنهج السلفى ، فهم أهل الحديث وحفاظه ورواته وعلماؤه المتبعون للاثار لأنها سبيل المؤمنين مستشهدين بقوله ﴿ **ومن يتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيرا** ﴾ النساء ٥١١ ، فيتميزون عن المتكلمين بأنهم يبدأون بالشرع ثم يخضعون العقل له ، ومن ثم فإنهم يقدمون الرواية على الدراية ، والنظر العقلى ولكنهم يدافعون عن أنفسهم بالقول أن العقل يتفق مع الشرع ، وأن الأوائل كانوا أكثر فهما ودراية للشرع عن غيرهم (فالمعقول عندنا ما وافق هديهم والمجهول ما خالفهم ولا سبيل إلى معرفة هديهم وطريقتهم إلى هذه الاثار[٣] .

وتظهر أصول العقيدة لديهم فى الايمان بصفات الله تعالى وأسمائه من غير زيادة عليها ولا نقص منها ولا تأويل لها بما يخالف ظاهرها ، ولا تشبيه لها بصفات المخلوقين ، بل أمروها كما جاءت فى كتاب الله أو على لسان رسوله ﷺ ، وردوا علمها إلى قائلها[٤] .

ولا بد أن نفهم من هذا السياق طريقتهم فى إخضاع العقل للنص ، لا العكس مخالفين بذلك منهج المتكلمين من المعتزلة والأشاعرة الذين قدموا العقل وأولوا النصوص تبعا له ، مستدلين بما سبق أن استدل به شيخ الإسلام من قوله تعالى ﴿ **ائتونى بكتاب من قبل هذا أو أثارة من علم** ﴾ وقوله عز وجل ﴿ **وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول ، رأيت المنافقين يصدون عنك صدودا** ﴾ .

ففى تفسيره للايه الأولى يرى ابن تيمية أن الأثارة هى الرواية أو الاسناد .

---

(٣) نقض المنطق ص٣٠٩ .

(٤) ابن تيمية : نقض المنطق ص٢ .

وقد استدل بمثل هاتين الايتين لأن بهما من أنواع العبر ومن الدلالة على من يحاكم إلى غير الكتاب والسنة ، وعلى نفاقه ، وإن زعم أنه يريد التوفيق بين الأدلة الشرعية وبين ما يسميه هو عقليات من الأمور المأخوذة من بعض الطواغيت المشركين وأهل الكتاب[٥] .

أليس هذا التأويل الذى يشكو منه ابن تيمية هو نفسه الذى يتخذه أرباب النظر العقلى المعاصرون ، الذين يحاولون إخضاع الشريعة لمتطلبات العصر المتجددة .

« وقد تأثر تفسير الأستاذ الامام (محمد عبده) لجزء « عم » بهذه النظرة تأثيرا واضحا ، وتفسير تلميذه الشيخ رشيد رضا وتفسير تلميذه الأستاذ الشيخ المغربى لجزء « تبارك » حتى صرح مرات بوجوب تأويل النص ليوافق مفهوم العقل ! وهو مبدأ خطر . فإطلاق كلمة « العقل » يراد الأمر إلى شئ غير واقعى ! . فهناك عقلى وعقلك وعقل فلان وعقل علان . وليس هناك عقل مطلق لا يتناوبه النقص والهوى والشهوة والجهل يحاكم النص القرانى إلى « مقرراته » . وإذا أوجبنا التأويل ليوافق النص هذه العقول الكثيرة ، فإننا ننتهى إلى فوضى ! »[٦] .

إن الاجتهاد الصحيح لا يضع أمام عينيه رأيا أو نظاما يلوى رقاب النصوص الإسلامية حتى يسوقها إليه . ولكنه يستوحى النصوص الإسلامية حكمها فى هذه الاراء والنظم .

---

(٥) فتاوى ابن تيمية ج١ ص٣٨٣ .

(٦) سيد قطب : خصائص التصور الإسلامى ومقوماته - دار الشروق ص٢٢ ، وننصح بمراجعة هذا الكتاب القيم بتوسع .

والفرق شاسع بينهما إذ أن أحداهما يسيطر على النصوص والثانى يخضع للنصوص : أحدهما يبرر بالنصوص الإسلامية عوج الحياة ، والاخر يقوم بنصوص الشريعة عوج الحياة .

وأصحاب الاتجاه التغريبى بالذات ، يحكمون بهذه الوسيلة المعوجة اراء دخيلة فى الدين ، فيفسرونه فى ضوء ما يذهب إليه مفكرو الغرب وفلاسفته[٧] .

وهناك أيضا دليل منطقى للبرهنة على ضرورة تقديم الشرع على العقل يستخلصه ابن تيمية بعد ضرب الأمثال ، فيذكر أنه إذا حدث نزاع بين أصحاب المهن المختلفة كالحراثة والبناء والخياطة والسباحة وغير ذلك من الصناعات ، احتكم المتنازعون إلى الأعلم منهم .

ومن المعلوم أن تفوق الرسول ﷺ على ذوى العقول[٨] ، أعظم من تفوق أهل العلم المتخصصين بالمهن العلمية والعملية والعلوم العقلية الاجتهادية كالطب مثلا لسائر الناس ، لأن من الناس من يمكنه تعلم تلك المهن العملية والعلمية كعلم المتخصصين فيها ، ولكن لا يمكن من لم يجعله الله رسولا إلى الناس أن يصير بمنزلة من جعله الله رسولا إلى الناس .

فإذا تقرر أن النبوة لا تنال بالاجتهاد - كما هو مذهب أهل الملل - أو تنال عند ملاحدة الفلاسفة بالاكتساب وهى أصعب الأمور بالمقارنة بتعلم الصناعات والعلوم العقلية ، ففى كلا الحالتين إذا علم الرجل بالعقل أن هذا رسول الله ،وعلم أنه أخبر بشئ ، ووجد فى عقله ما يعارضه فى خبره كان

---

(٧) د. محمد حسين : اتجاهات هدامة فى الفكر العربى المعاصر ص٣٠ - ٣١ .

(٨) ويلاحظ أن هذا ما دفع الأستاذ العقاد إلى كتابه (عبقرية محمد ﷺ) ولكن ينبغى التمييز بين (العبقرية) و(النبوة والرسالة) .

عقله يوجب عليه التسليم إلى من هو أعلم منه وأن لا يقدم على قوله لعلمه إن عقله قاصر بالمقارنة به ، وأنه أعلم بالله تعالى ولأسمائه وصفاته واليوم الاخر منه ، وأن التفاوت بينهما فى العلم بذلك أعظم من التفاوت الذى بين العامة والأطباء .

ثم يمضى ابن تيمية فى ضرب المثال بالذهاب إلى طبيب – حتى لو كان يهوديا – لأن عقل المريض يوجب الانقياد له لبراعته فى مهنته ، فيطيعه فيما يأمره به من تناول الأطعمة والأدوية أو الامتناع عن بعض الطعام والشراب ، ويطيعه فى تناول الدواء أو عملية جراحية مع ما فى ذلك من الالام والمكابدة ، لعلمه بأن الطبيب أعلم منه ، وأنه إذا صدقه ونفذ أوامره كان أقرب إلى الشفاء ومع علمه أيضا بأن الأطباء يخطئون كثيرا ، وإن كثيرا من الناس لا يشفى بما يصفه الأطباء ، بل قد يموت البعض بسبب الأخطاء فى التشخيص والعلاج ومع هذا تقبل أقوالهم وإن كان ظن المرضى واجتهادهم يخالف وصفهم للمرض وطرق علاجه .

ويتساءل ابن تيمية فى النهاية (فكيف حال الخلق مع الرسل عليهم الصلاة والتسليم ؟ والرسل صادقون لا يجوز أن يكون خبرهم على خلاف ما أخبروا به قط ، وأن الذين يعارضون أقوالهم بعقولهم عندهم من الجهل والضلال مالا يحصيه إلا ذو الجلال ، فكيف يجوز أن يعارض ما لم يخطئ قط بما لم يصب فى معارضة له قط؟)[٩] .

---

(٩) موافقة صحيح المنقول لصريح المعقول ج١ ص٨٢ .

● القاعدة الثانية : رفض التأويل الكلامي :

فالتأويل عند المتكلمين بعامة يقتضى إتخاذ العقل أصلا فى التفسير مقدما على الشرع فإذا ظهر تعارض بينهما فينبغى تأويل النصوص إلى ما يوافق مقتضى العقل . ولكن السلف على العكس - كما يذكر شيخ الإسلام - احتكموا إلى الايات القرانية ، والأحاديث النبوية مكتفين بها ، فطوعوا المفاهيم العقلية لها ، لأن العقل فى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ هو أمر يقوم بالعاقل سواء سمى عرضا أو صفة ، ليس هو عينا قائمة بنفسها كما يعتبره الفلاسفة[10] ، والعقل كما يرى الدكتور الغمراوى يعجز عن الاحاطة بالحقائق التى أوردها الدين « لأن الدين الصادر عن خالق الخلق وقد تناول جميع الفطرة : ماضيها ، وحاضرها ، ومستقبلها بالاجمال فيما اقتضت الحكمة الالهية إجماله ، وبالتفصيل فيما إقتضت تفصيله والعقل الذى يمكن أن يحيط بالفطرة لم يخلقه الله بعد ، وإذا عنينا به عقل المجموع ، لا عقل الفرد ، فإن العلم الإنسانى الذى يحيط بكل شئ لم يوجد أبدا ، ومازالت الاكتشافات العلمية تمضى فى طريقها لتبرهن على أنه مهما إزداد الإنسان علما ، فإنه لن يصل إلى نهاية العلم أبدا »[11] .

وقد وقع اختيارنا على النص الأول الوارد عن ابن تيمية الذى حام حول الفكرة وظهر لنا من النص الثانى الحامل لرأى الدكتور الغمراوى ، إتفاقهما التام رغم بعد الزمن بينهما .

فالأول من أهل القرن السابع / الثامن الهجرى ، والثانى معاصر ، ونستطيع أن نستشهد بمواقف متشابهة لبعض مفكرى السلف ، كابن حنبل والدارمى

(١٠) ابن تيمية : فتاوى ج٩ ص٢٧٩ .
(١١) الغمراوى : الإسلام فى عصر العلم ص١٠٩ .

والبخارى وغيرهم فندرك الاتجاه الواحد الذى يربط بينهم جميعا بالرغم من تغاير ظروف البيئة الثقافية والحضارية وتباين العصور والأزمنة ، واختلاف الأدوار العقلية التى مرت بكلٍ منهما وإذا شئنا التفصيل ، فإن هناك عبارة ينبغى التوقف عندها لأنها تعبر لنا عن أحد قواعد المنهج . يقول ابن تيمية (.... وكان من أعظم ما أنعم الله به عليهم إعتصامهم بالكتاب والسنة ، فكان من الأصول المتفق عليها بين الصحابة والتابعين لهم بإحسان ، أنه لا يقبل من أحد قط أن يعارض القران لا برأيه ، ولا ذوقه ، ولا معقوله ولا قياسه ، ولا وجده ، فإنهم ثبت عنهم بالبراهين القطعيات والايات البينات أن الرسول جاء بالهدى ودين الحق ، وأن القران يهدى للتى هى أقوم ...)[١٢] .

وها نحن إزاء مواقف متشابهة تتصل بحلقات علماء السلف قديما وحديثا فمنذ اضطروا لمجابهة المتكلمين ، رأينا إماما فى الحديث والفقه ، وهو الامام أحمد بن حنبل ، يكتب للرد على الجهمية والمعتزلة المعاصرين له ، وسمى كتابه (الرد على الجهمية والزنادقة) ، قال فى مقدمته « الحمد لله الذى جعل فى كل زمان ، فترة من الرسل بقايا من أهل العلم يدعون من ضل إلى الهدى » ويشرح موقف السلف من حيث اتخاذ القران ميزانا لفهم الأصول الإسلامية فيستطرد قائلا فى وصفهم (ينفون عن كتاب الله تحريف الغالين ، وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين) ويعنى بالمبطلين والجاهلين الذين أطلقوا عقال الفتنة لأنهم تكلموا بالمتشابه من الكلام فخدعوا جهال الناس بما يشبهون عليهم[١٣] .

كذلك اضطر البخارى إمام الحديث أيضا لاستخدام نفس السلاح فى مواجهة علماء الكلام ، فأخرج لنا كتابه (خلق أفعال العباد) ، لكى يصحح

(١٢) ابن تيمية : رسالة الفرقان بين الحق والباطل ص٢٣ .
(١٣) ابن حنبل : الرد على الجهمية ص٥٢ .

المفاهيم الخاطئة للجهمية والقدرية الذين أولوا القران وفسروه طبقا لأهوائهم فانبرى لبيان أسباب وقوعهم فى الخطأ ، لأن (أكثر مغاليط الناس من هذه الأوجه الذين لم يعرفوا المجاز فى التحقيق ، ولا الفعل من المفعول ولا الوصف من الصفة)[١٤] .

ونكتفى بإيراد هذه الشواهد الدالة على صدوع المفكرين فى دائرة السلف لأمر الله تعالى (يا أيها الذين امنوا لا تقدموا بين يدى الله ورسوله ، واتقوا الله إن الله سميع عليم) ، ولهذا لم يعارض أحد منهم النصوص بمعقوله ، فإن أراد معرفة شئ من الدين نظر فيما قاله الله والرسول ، فمنه يتعلم وبه يتكلم وفيه ينظر ويتفكر ، وبه يستدل ، وعلى العكس من ذلك المنهج يقف على الطرف الاخر أصحاب المنهج الكلامى الذين اعتمدوا على ما رأوه ، ثم نظروا فى الكتاب والسنة فإن وجدوا النصوص توافقه أخذوا بها ، وإذا وجدوها تخالفه أعرضوا عنها تفويضا أو حرفوها تأويلا[١٥] .

● القاعدة الثالثة : الاستدلال بالايات والبراهين القرانية :

(١) الآيـــات :

للقران الحكيم طريقة فى الاستدلال منها حث الإنسان على النظر فى ملكوت السموات والأرض ، وحضه على كشف أسرار مخلوقات الله سبحانه وتعالى ، وأشاد بالعلم والعلماء .

ولا يسع الدارس لتاريخ الفكر لدى المسلمين فى العصور الأولى إلا الاقرار بأنهم اكتفوا بالقران الكريم ، إلى جانب السنة ، فى إتخاذه دليلا هاديا فى

(١٤) البخارى (خلق أفعال العباد) .

(١٥) ابن تيمية : رسالة الفرقان بين الحق والباطل ص ٤٧ .

كافة أمورهم ، فاستغرقوا فيه تلاوة وحفظا ، وعكفوا على تفسيره ونفذوا أحكامه واستنبطوا من اياته قواعد النظر العقلى ، واستمدوا منه حقائق عالم الغيب .

وما من مسألة من المسائل الكلامية والفلسفية التى خاض فيها الخائضون فى العصور التالية – كما يرى شيخ الإسلام – إلا وكانت قد أوضحت فى القرآن ، فقد أمد المسلمين بتقريرات وبينات عن الذات الالهية وصفاتها ، ومسائل التوحيد والنبوات واليوم الآخر ، الإنسان وبدء خلقه ومصيره وموقفه من الكون ، الأمم السابقة ومواقفهم من أنبيائهم ، الماضى السحيق وتاريخ الأمم ، وعن حقائق عالم الغيب كالملائكة والجن ، إلى غير ذلك من الموضوعات التى كانت – وستظل – مثار التساؤل والبحث فى ميدان الفكر الإنسانى .

والآيات القرانية : كثيرة تجل عن الحصر ، ولكننا نجتزئ الأمثلة هنا للاشارة إلى بعضها ، مثل قوله تعالى ﴿ **إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس وماأنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لايات لقوم يعقلون** ﴾ البقرة ٤٦١

﴿ **وفى الأرض ايات للموقنين ، وفى أنفسكم أفلا تبصرون** ﴾ (الذاريات ١٢/٠٢) .

﴿ **أم خلقوا من غير شئ أم هم الخالقون ، أم خلقوا السموات والأرض بل لا يوقنون** ﴾ (الطور ٦٣/٥٣) .

﴿ **قالت رسلهم : أفى الله شك فاطر السموات والأرض** ﴾ إبراهيم ١١ وجاء الرسول ﷺ مؤيدا بالحجج العقلية كما قال تعالى ﴿ **ولا يأتونك بمثل**

إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيرا ﴾ . فأخبر سبحانه أن الكفار لا يأتونه بقياس عقلي لباطلهم إلا جاء الله بالحق وجاءه من البيان والدليل ، وضرب المثل بما هو أحسن تفسيرا وكشفا وإيضاحا للحق من قياسهم[١٦] .

وتتعدد طرق القران العظيم فى دعوة الإنسان إلى الايمان بالله ، فهو تارة يخاطب عقله ويقنعه بالمنطق ، ويقدم له الدليل كقوله تعالى ﴿ **نحن خلقناكم فلولا تصدقون ، أفرأيتم ما تمنون ، أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون ، نحن قدرنا بينكم الموت وما نحن بمسبوقين** ﴾ .

وتتسم هذه الايات كما يرى المتدبر إياها أنها تخاطب الإنسان بأسلوب باهر لا يقتصر على جفاف المنطق وقوانينه ، ولكنه متدفق بالحيوية وضرب الأمثلة المستمدة من حياة الإنسان ، وما يحيط به مهما اختلف جنسه أو بيئته أو عصره ، بل إن جميع الأدلة المطروقة فى علم الكلام وفى فلسفة ما وراء الطبيعة مبثوثة فى القران ، ولكن بأسلوب يصلح لمخاطبة الخاصة والعامة كل بقدر طاقته كما يذكر الشاطبى[١٧] .

وأيضا فإن الايات القرانية تتضمن الأدلة والبراهين على ما يبين الحق ، فهى ايات من وجوه متعددة ، قال تعالى ﴿ **وما تغنى الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون** ﴾ يونس ١٠١ .

وقال تعالى ﴿ **واتخذوا آياتى وما أنذروا هزوا** ﴾ الكهف ٥٦ ، ففرق بين الايات الدالة على أنها دلائل الرب وتعلم بالعقل وبين النذر أى الأخبار عن استحقاق العصاة من العذاب أى أن الايات تعلم دلالتها بالعقل ، والأنبياء

---

(١٦) ابن تيمية : نقض المنطق ص٨٩ .
(١٧) محمد المبارك : العقيدة فى القرآن ص٢٢ .

جاءوا بالايات ، ولهذا قال تعالى ﴿ **وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا** ﴾[18] .

وفى معنى الآية كما يذكر شيخ الاسلام ثلاثة أقوال أحداها أنها العلامة ، قال تعالى ﴿ **تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق** ﴾ فهى آية من ايات الله أى علامة من علامات ودلالة من أدلة الله سبحانه وتعالى وبيان من بيانه ، وقيل لأنها جماعة حروف من القران ، والقول الثالث أنها سميت آية لأنها عجب ، قال تعالى ﴿ **كانوا من آياتنا عجباً** ﴾ فإن كانت الايات علامات فمنها المألوف المعتاد ومنها الخارج عن المألوف المعتاد[19] .

وتدل ايات الله على أنها علامات ودلالات على الله عز وجل وعلى ما أراد ، قال تعالى ﴿ **تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق** ﴾ ، وتدل أيضا على أن الرسول ﷺ صادق لأنها مما لا يستطيع الانس والجن أن يأتوا بمثلها ، فقد عجزوا أمام التحدى الاتيان بمثلها[20] ، وقال تعالى ﴿ **إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس فى الكتاب أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون** ﴾ ، فالبينات فى الآية جمع بينة وهى الأدلة والبراهين والهدى هو بيان ما ينتفع به الناس ، فبين سبحانه ما يهدى الناس فعرفهم أن الله هوالمقصود المعبود[21] .

وإذا كان الدليل لا بد أن ينتهى إلى مقدمات بينة بنفسها وتسمى بديهيات أو ضروريات أو أوليات إذ أنها معلومة بأنفسها ، مثال ذلك ، أنه إذا خاطب الله جنس الانس ذكر جنس الأنبياء وأثبت جنس ما جاءوا به ، وإذا خاطب أهل الكتاب المقرين بنبوة موسى عليه السلام ، خاطبهم بإثبات نبى بعده .

(١٨) ابن تيمية : النبوات ص١٧٣ .
(١٩) ابن تيمية : نقض المنطق ص١٩ .
(٢٠) ابن تيمية : نقض المنطق ص١٧٣ .
(٢١) نفس المصدر ص١٦٢ .

ومن الأدلة القرآنية الاستدلال على الخالق عز وجل بخلق الإنسان ، لأن كون الإنسان حادثا بعد أن لم يكن ومولودا ومخلوقا من علقة ، ومعلوم أن من رأى العلقة قطعة من دم ، فقيل له هذه العلقة يصير منها إنسان ، فقد يتعجب ولكنه دليل عقلى مشاهد ملموس يعلمه البشر كافة بعقولهم ، سواء أخبر به الرسول أو لم يخبر ، فهو إذن دليل عقلى ،لأن بالعقل تعلم صحته ، وبالاضافة إلى كونه عقليا فإنه دليل شرعى أيضا لأن الشارع استدل به وأمر أن يستدل به(٢٢) ، ومن هذا القبيل أيضا الاستدلال على البعث وإعادة الخلق بقدرة الله عز وجل على الخلق ابتداء(٢٣) .

بهذه القاعدة وقف السلف فى وجه المتكلمين والفلاسفة - واستعاضوا بالأدلة القرآنية عن التأويلات الكلامية لدى شيوخ المعتزلة والأشاعرة ، وكان ابن تيمية من أدق المستخدمين لهذه القاعدة ، ثم امتدت طريقته السلفية حتى وقتنا هذا - والقران كما نعلم لا تنقضى عجائبه ، فإذا نظرنا إلى اياته بمنظار العلماء المعاصرين أيضا إذ الاعجاز البيانى و البلاغى لا يكفيان فى عصرنا لمخاطبة أهله ، فإننا نجد الاعجاز العلمى فى القران طريقا مناسبا لأننا نعيش مبهورين من رؤية الاكتشافات العلمية المتوالية ، ولو عدنا إلى ايات الله القرانية نتدبرها لدلتنا على توافقها مع اياته الكونية ، وتحتاج منا إلى إعمال فكرة ونظر ، فقد اقتضت الرحمة الالهية أن يدل القران بنفسه ، فى سهولة ويسر على أنه من عند الله ، فيجتمع داعى الفطرة مع الدليل النظرى ، لكل من طلب الحق بالقدر المشترك بين الناس من العقل والاخلاص .

وعلى سبيل المثال ، لا الحصر ، تفسير قوله تعالى ﴿ وأغطش ليلها ﴾ النازعات ٢٩ ، أن المفسرين فى الأزمنة الماضية فسروا الليل بهذا الذى يعرفون

---

(٢٢) النبوات ص٥٢ .

(٢٣) نقض المنطق ص١٧٤ .

فى الأرض مع أن الضمير فى (ليلها) راجع إلى السماء المذكورة فى قوله ﴿ **أأنتم أشد خلقا أم السماء بناها** ﴾ ، ثم جاء العلم فإستنبط أن السماء إذا جاوزنا جو الأرض هى سواء حالكة بالنهار والشمس طالعة ، لأن الضوء ذاته لا يرى وإنما يرى أثره منعكسا عن المرئيات ، ثم شاهد رواد الفضاء السماء حالكة السواد فعلا ، وصوروا الأرض مرئية من القمر فإذا بالقمر والأرض منيرات بأشعة الشمس المنعكسة عنهما ولكن فى سواد حالك عم الصورة[٢٤]!!

كما كشف العلم الحديث عن تفسير قوله تعالى ﴿ **أو لم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما ؟** ﴾ أن الكون كله كان شيئا واحدا قبل أن توجد فيه أرض أو نجم أو سديم ، فأصبح لدينا على الأقل ثلاث معجزات يقينية يستيقنها العلم الان ، أولها تعدد العوالم فلكيا ، والثانية دخانية السماء فى البدء ، وتظهر المعجزة الثالثة فى انفصال الأرض عن السماء بعد أن كانت متصلة بها إتصالا فى الأول[٢٥] .

وبالاضافة إلى الآيات ، فهناك طرق براهين أخرى يستخدمها القران الحكيم :

(٢) طرق البراهين القرانية

١ - الميزان القرانى :

ويرى ابن تيمية أن القياس الصحيح هو الميزان المنزل من الله تعالى الذى يستدل به العقل ، فإن من أعظم صفات العقل معرفة التماثل والاختلاف ،

(٢٤) د. الغمراوى : الإسلام فى عصر العلم ص١٧٥ - ١٧٦ .

(٢٥) د. محمد جمال الدين الفندى : الكون بين الدين والعلم ص٢٢٩ ط المجلس الأعلى للشئون الإسلامية سنة ١٩٧١م .

فإذا رأى الشيئين المتماثلين علم أن هذا فجعل حكمهما واحدا ، قال الله تعالى **﴿ الله الذى أنزل الكتاب بالحق والميزان ﴾** الشورى ١٧ وقال سبحانه **﴿ لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط ﴾** الحديد ٢٥ وفسر السلف الميزان بالعدل وفسره بعضهم بما يوزن به وهما متلازمام وقد أخبر أنه أنزل ذلك مع رسله كما أنزل معهم الكتاب ليقوم الناس بالقسط ، ويبين أيضا فى موضع اخر أن القياس الصحيح هو من العدل الذى انزله الله تعالى ، وأنه لا يجوز أن يختلف الكتاب والميزان ، فلا يختلف نص ثابت عن الرسل وقياس صحيح – لا قياس شرعى ولا عقلى ، ولا يجوز قط أن الأدلة الصحيحة النقلية تخالف الأدلة الصحيحة العقلية ، وليس فى الشريعة شئ على خلاف القياس الصحيح على خلاف القياس الفاسد[٢٦] .

وبعد عرض مسهب مقارن للأقيسة المنطقية والميزان القرانى ، يقر ابن تيمية أن الله تعالى يبين الحقائق بالمقاييس العقلية والأمثال المضروبة ، ويبين طريق التسوية بين المتماثلين والفرق بين المختلفين[٢٧] . وينكر على من يخرج عن ذلك كقوله تعالى **﴿ أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين امنوا وعلموا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون ﴾** الجاثية ٤٥ وقوله سبحانه **﴿ أفنجعل المسلمين كالمجرمين مالكم كيف تحكمون ﴾** القلم ٦٨ – أى هذا حكم جائر ، لا عادل فإن فيه تسوية بين مختلفين . وقال عز وجل **﴿ أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين فى الأرض أم نجعل المتقين كالفجار ﴾** ص ٤٨ وقوله سبحانه **﴿ أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا ﴾** البقرة ٢١٤

(٢٦) الرد على المنطقيين ص٢٧١ .
(٢٧) نفس المصدر ص ٣٨٣ .

وإذا سأل سائل ، إذا مما يعرف بالعقل فكيف جعله الله تعالى مما أرسلت به الرسل ؟ وهذا السؤال فى غير موضعه لأن صاحبه يفترض أن العقل مباين للشرع ، وأن ما يعلم قسيما – أو مقابلا – للعلوم النبوية وبعبارة أخرى يجعل الأحكام منفصلة عن العلوم النبوية ، فهذه نقلية سمعية وتلك برهانية .

والاجابة على هذا السؤال سهلة يسيرة إذا قرأنا القرآن ، حيث يتبين منه أن الرسل ضربت للناس الأمثال العقلية التى يعرفون بها التماثل والاختلاف ، فإن الرسل خاطبت الناس بما يعرفونه ، ودلت على ما يفهمونه بفطرتهم التى خلقهم الله بها ، فليست العلوم النبوية إذن مقصورة على مجرد الخبر كما يظنه أهل الكلام ، بل الرسل – صلوات الله عليهم – بينت العلوم العقلية التى بها يتم دين الناس علما وعملا ، وضربت الأمثال ، وذلك بظهور دور الرسل الذين جاءوا بتكميل الفطرة وإصلاحها ، فكملت الفطرة بما نبهتها وأرشدتها عليه مما كانت الفطرة معرضة عنه لأسباب الغفلة ، وكذلك تصلح الفطرة وتعيدها إلى طبيعتها إذا قيست الاراء والأهواء الفاسدة ، ويكون دور الرسل أيضا إزالة الفساد وتذكير البشر لما كانت فطرتهم معرضه عنه[٢٨] .

وكانت طريقة السلف الصالح تتلخص فى الاستدلال بالأدلة العقلية التى يحتاج إليها فى العالم بما لا يقدر عليه المتكلمون بإتيانه ، بل ان غاية ما يذكرونه قد جاء القران بخلاصته على أحسن وجه ، وذلك كالأمثال المضروبة التى يذكرها الله تعالى فى كتابه التى وصفها بقوله ﴿ **ولقد ضربنا للناس فى هذا القرآن من كل مثل** ﴾ .

ولا يمل ابن تيمية من تكرار وإعادة القول بأن الأمثال المضروبة فى القران الكريم هى الأقيسة العقلية ، ويضيف إلى ذلك أنه يدخل فيها ما يسمية المناطقة

---

(٢٨) ابن تيمية : الرد علقيين ص٢٨٢ .

براهين ، وهو القياس المؤلف من المقدمات اليقينية ، بل ان لفظ البرهان فى اللغة أعم من ذلك كما سمى الله تعالى ايتى موسى عليه السلام برهانين فقال سبحانه (**فذانك برهانان من ربك**)[29] .

٢ – قياس الأولى (على وزن الأعلى) :

ولعل أهم نقد لشيخ الإسلام ابن تيمية للقياس الارسطوطاليسى أن هذا القياس إذا استخدم فى الاستدلال على (واجب الوجود) تبارك وتعالى لا يدل على ما يختص به ، وإنما يدل على أمر مشترك ، بينه وبين غيره ، لأن قياس الشمول تستوى أفراده ، والله تعالى ليس كمثله شئ .

ولا يجتمع سبحانه هو وغيره تحت كل تستوى أفراده ، وقد جعلوا الوجود المطلق موضوع الفلسفة الأولى .

فان وصفهم (للوجود) – الذى هو موضوع العلم الالهى عندهم – إما أن يكون (كل موجود) أو بعضه ، هو (الواجب) أو (العكس) . ولكن كون وجود الواجب أكمل من وجود الممكن من اتفاق الاثنتين فى مسمى الوجود ، فالوجود معنى كل مشترك ولكن هذا (الوجود الكلى) إنما يكون كليا فى الذهن ، لا فى الخارج .

---

(٢٩) ابن تيمية : موافقة صحيح المنقول ج١ ص١٤ .

وجاء فى (تفسير الجلالين) « أدخل يدك اليمنى بمعنى الكف فى جيبك – وهو طوق القميص وأخرجها (تخرج) خلاف ماكانت عليه من الأدمة (بيضاء من غير سوء) أى برص ، فأدخلها وأخرجها تضيء كشعاع الشمس تغشى البصر (.. فذانك) بالتشديد والتخفيف أى العصا واليد ... والآية كاملة (اسلك يدك فى جيبك تخرج بيضاء من غير سوء واضمم إليك جناحك من الرهب فذانك برهانان من ربك إلى فرعون وملائه إنهم كانوا قوما فاسقين) .

ويقول الأصفهانى : (فالبرهان أوكد الأدلة ، وهو الذى يقتضى الصدق أبدا ، لا محالة .. قال تعالى (قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين) (قل هاتوا برهانكم هذا ذكر من معى) (قد جاءكم برهان من ربكم) المفردات فى غريب القرآن ص٤٥ .

فإذا كان هذا هو (العلم الأعلى) عندهم ، لم يكن (الأعلى) عندهم علما بشئ موجود فى الخارج ، بل علما بأمر مشترك بين جميع الموجودات ، وهو مسمى (الوجود) ، وذلك كمسمى (الشئ) ، و (الذات) و (الحقيقة) و(النفس) و (العين) و (الماهية) ونحوها من المعانى العامة .

ويرى ابن تيمية أن العلم بهذا ليس هو علما بموجود فى الخارج ، لا بالخالق ولا بالمخلوق ، وإنما هو علم بأمر مشترك كلى تشترك فيه الموجودات ، لا يوجد إلا فى الذهن(٣٠) .

وهذا بخلاف (العلم الأعلى) عند المسلمين ، فإنه العلم بالله تعالى الذى هو فى نفسه أعلى من غيره من كل وجه ، والعلم به أعلى العلوم من كل وجه ، والعلم به أصل لكل علم وموضوع هذا العلم هو (الوجود المطلق الكلى) المنقسم إلى واجب وممكن وقديم ومحدث وجوهر وعرض(٣١).

ولاختصاص الله بصفات الكمال بالاطلاق ، فقد استعمل الأنبياء عليهم السلام فى الاستدلال عليه تعالى قياس الأولى (على وزن الأحرى) ، لاثبات أن كل ما يثبت لغيره من كمال فثبوته له بطريق الأولى وما تنزه عنه عيره من النقائص فتنزهه عنه بطريق الأولى .

والايات الكثيرة فى القران فى هذا الصدد تستند إلى قياس الأولى قال تعالى **﴿ ضرب لكم مثلا من أنفسكم هل لكم من ما ملكت أيمانكم من شركاء فى ما رزقناكم فأنتم فيه سواء تخافونهم كخيفتكم أنفسكم ﴾** الروم ٣٠

وقال تعالى **﴿ ويجعلون لله البنات سبحانه ولهم ما يشتهون . وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم . يتوارى من القوم من سوء**

---

(٣٠) ابن تيمية : الرد على المنطقيين ص١٣٠ – ١٣١ .
(٣١) الرد على المنطقيين ص١٢٦ .

ما بشر به أيمسكه على هون أم يدسه فى التراب ألا ساء ما يحكمون . للذين لا يؤمنون بالآخرة مثل السوء ولله المثل الأعلى وهو العزيز الحكيم ﴾ النحل ٥٦/٦٠[٣٢] .

ويستخدم القران الكريم أيضا قياس الأولى فى بيان امكان المعاد (ا) فتارة يخبر عمن أماتهم ثم أحياهم ، كما أخبر عن قوم موسى بقوله ﴿ **وإذ قلتم يا موسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة فأخذتكم الصاعقة وأنتم تنظرون . ثم بعثناكم من بعد موتكم لعلكم تشكرون ﴾** البقرة ٥٥ ، ٥٦ .

وكما أخبر عن المسيح عليه السلام أنه كان يحيى الموتى بإذن الله .

وبنفس الطريقة أخبر عن أصحاب الكهف أنهم لبثوا نياما فى كهفهم ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعا – الكهف ٨١ وقال تعالى ﴿ وكذلك أعثرنا عليهم ليعلموا أن وعد الله حق وأن الساعة لا ريب فيها إذ يتنازعون بينهم أمرهم ﴾ الكهف ٢١ .

وقد ورد تفسير هذه الاية عن غير واحد من العلماء أن قضية البعث أثيرت فى ذلك الزمان أيضا فتنازع الناس حول حقيقته ، هل هو بالأرواح فقط أم بالأرواح والأجساد ؟ ولذلك أعثر الله تعالى هؤلاء على أهل الكهف ، وعلموا أنهم بقوا نياما لا يأكلون ولا يشربون ثلاثمائة سنة شمسية وهى ثلاثمائة وتسع هلالية ، فأعلمهم الله بذلك امكان اعادة الأبدان[٣٣] .

(ب) وتارة يستدل القران الحكيم على البعث بالنشأة الأولى ، وأن الاعادة أهون من الابتداء ، كقوله تعالى ﴿ **وضرب لنا مثلا ونسى خلقه قال من يحيى العظام وهى رميم قل يحيها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم ﴾** يس ٢٧ .

---

(٣٢) ابن تيمية : الرد على المنطقيين ص١٥٠ – ٢٥٠ .

(٣٣) ابن تيمية : الرد على المنطقيين ص٣١٨ – ٣٢٠ .

(ج) وتارة يستدل على امكان ذلك بخلق السموات والأرض ، فان خلقها أعظم من اعادة الإنسان ، كقوله تعالى ﴿ **أو ليس الذى خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم بلى وهو الخلاق العظيم** ﴾ يس ٨١ وقوله سبحانه ﴿ **أو لم يروا ان الله الذى خلق السموات والأرض ولم يعى بخلقهن بقادر على أن يحيى الموتى بلى إنه على كل شئ قدير** ﴾ الأحقاف ٣٣ .

(د) وتارة يستدل على امكانه بخلق النبات ، كقوله تعالى ﴿ **وهو الذى يرسل الرياح بشرا بين يدى رحمته حتى إذا أقلت سحابا ثقالا سقناه لبلد ميت فأنزلنا به الماء فأخرجنا به من كل الثمرات كذلك نخرج الموتى لعلكم تذكرون** ﴾ الأعراف ٥٧ .

وقوله سبحانه ﴿ **والله الذى أرسل الرياح فتثير سحابا فسقناه إلى بلد فأحيينا به الأرض بعد موتها كذلك النشور** ﴾ فاطر ٩ .

٣ - الاعتبـار واللــزوم :

استخدم ابن تيمية ما تقدم من نقد للقياس المنطقى الأرسططاليسى للوصول إلى إثبات أنه يفيد العلم ، ولا يدعى شيخ الإسلام أن النقد نقده ، ولكن يرجعه إلى نظار المسلمين مع كثرة التعب ليس فائدة علمية بل كل ما يمكن علمه بدونه ففيه تطويل كثير متعب فأنه متعب للأذهان مضيع للزمان ويضرب مثالا على ذلك بمن يريد مثلا الوصول إلى مكة أو غيرها من البلاد فإذا سلك الطريق المستقيم المعروف وصل فى مدة قريبة بسعى معتدل ، ولكن إذا قيض له من يدور به طرقا دائرة – ويسلك به مسالك منحرفة يتعب تعبا كثيرا حتى يصل إلى الطريق المستقيم إن وصل . وإلا فقد يصل إلى غير المطلوب ، فيعتقد اعتقادات فاسدة ، وقد يعجز بسبب ما يحصل له من التعب والاعياء ، فلا هو نال مطلوبه ولا هو استراح .

ويرى ويشارك ابن تيمية نظار المسلمين فى وصف هذا القياس بأنه استعمال لطرق غير فطرية ويعذب النفوس بلا منفعة ، كما أن القياس الأرسطى لا يفيد إلا بأمور كلية ، لا يفيد العلم بشئ معين من الموجودات ، بل الأيسر والأبين العلم بالمعينات لا الكليات(٣٤) .

هذا القياس الذى لا يتضمن إلا شكل الدليل وصورته أن الكليات تقع فى النفوس بعد معرفة الجزئيات المعينة ، أى أن النظريات العلمية العامة لا يتوصل إليها إلا بعد معرفة الجزئيات فى العلوم المختلفة والتوصل منها إلى استنباط القانون العام الذى ينتظمها جميعا (ومن تدبر جميع ما يتكلم فيه الناس من الكليات المعلومة فى الطب والحساب والطبيعيات والتجارات وغير ذلك وجد الأمر كذلك)(٣٥) .

ويستنتج من ذلك أن قياس التمثيل أقوى وأكثر يقينا من قياس الشمول لأنه بالأول يصل إلى المفردات المعينة للقضية الكلية ، ومن أعظم صفات العقل معرفة التماثل والاختلاف ، أى قياس الطرد وقياس العقل ، وهو ما استخدمه القران الكريم بهدف الاعتبار .

(أ) الأعتبــار :

ويمضى ابن تيمية فى الاستشهاد بالايات القرانية الدالة على ذلك فإن ما أمر الله به من الاعتبار فى كتابه يتناول قياس الطرد وقياس العكس ، قال تعالى ﴿ كذبت قوم نوح المرسلين ﴾ وقال سبحانه **﴿ كذبت عاد المرسلين ﴾** ، فأنه لما أهلك المكذبين للرسل بتكذيبهم ، كان من الاعتبار أن يعلم أن من فعل مثل ما فعلوا أصابه مثل ما أصابهم فيبقى تكذيب الرسل

(٣٤) ابن تيمية : الرد على المنطقيين ص٢٤٨ – ٢٥٢ .
(٣٥) السيوطى : صون المنطق ج ص٥٥ ظ .

حدا من العقوبة وهذا قياس الطرد . كما يعلم أن من لم يكذب الرسل لا يصيبه ذلك ، وهذا قياس العكس ، وهو المقصود من الاعتبار بالمكذبين ، والاعتبار يكون بهذا وبهذا ، قال تعالى ﴿ **لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب** ﴾ يوسف ١١١ وقال ﴿ **لقد كان لكم اية فى فئتين التقتا ... إلى قوله :إن فى ذلك لعبرة لأولى الأبصار** ﴾ آل عمران ٣٦ .

ولهذا المدلول يرى ابن تيمية أن كثرة الاشارة إلى قصة موسى عليه السلام وفرعون فى القران الكريم يرجع إلى الاعتبار فى كل مرة يذكر فيها إنه ينكر فكرة (التكرار) فى القرآن . لأن المقصود من إعادة القصة فى سور وآيات متعددة هو توضيح عبرة جديدة لم يشر إليها فى موضع اخر من الكتاب . ومن هنا فليس فى القران تكرار أصلا .

أما أهمية قصة موسى وفرعون فترجع إلى أنهما فى طرفى نقيض فى الحق والباطل ، فإن موسى عليه السلام بلغ الغاية القصوى من الايمان وكلمه الله سبحانه تكليما بلا حجاب ، بينما كفر فرعون بالربوبية وبالرسالة ، وكان موقفه أشد إنكارا من باق المخالفين للرسل لأن أكثرهم لا يجحدون وجود الله (وربما يقصد هنا أنهم مشركون) كذلك لم يكن للرسل من التكلم لرب العالمين

فصارت قصة موسى وفرعون أعظم القصص وأعظمها اعتبارا لأصل الايمان ولأصل الكفر ، ولهذا كان النبى ﷺ يقص على أمته عامة عن بنى إسرائيل ، وكان يتأسى بموسى فى أمور كثيرة ، ولما بشر بقتل أبى جهل يوم بدر قال : هذا فرعون هذه الأمة)[٣٧] .

---

(٣٦) صون المنطق ج٢ ص١٥٦

(٣٧) فتاوى ابن تيمية ج١٢ ص٩ .

(ب) **اللزوم** : ويرى ابن تيمية أن الحقيقة المعتبرة فى كل دليل هو (اللزوم) ، فمن عرف أن هذا لازم لهذا استدل بالملزوم على اللازم بغير ذكر لفظ اللزوم ولا تصور معنى هذا اللفظ لأن الإنسان بفطرته السوية يعرف أن كل شئ مصنوع لابد له من صانع ، وكثيرا ما يستخدم الناس أمثال هذه القضية بقولهم (إن كذا لابد له من كذا أو انه إن كان كذا كان كذا) وبغير استخدم لفظ (اللزوم) فإن الصياغة نفسها تتضمن العلم باللزوم باعتباره حقيقة معتبرة . كذلك الأمر فى المخلوقات ، فإن كل ما فى الوجود فهو اية لله تعالى ، مفتقر إليه محتاج إليه ، لابد له منه ، فيلزم من وجوده وجود الصانع[٣٨] ، والاية القرانية الاتية واضحة الدلالة على معنى اللزوم (قال تعالى : **أم خلقوا من غير شئ أم هو الخالقون) ؟ - الطور ٥٢ - ٥٣ وفى الصحيحين عن جبير بن مطعم أنه لما قدم فى فداء الأسرى عام بدر سمع النبى ﷺ يقرأ فى المغرب بسورة (الطور) قال فلما سمعت قوله تعالى ﴿ أم خلقوا من غير شئ أم هم الخالقون ﴾** ؟ أحسست بفؤادى يتصدع .

ولا شك أن فى الآية تقسيما حاصرا بين أمرين لا ثالث لهما ، فهل خلقوا من غير خالق خلقهم ؟ فهذا ممتنع بالبداهة ، أم خلقوا أنفسهم ؟ فهذا أشد امتناعا . فعلموا أن لهم خالقا خلقهم ، وهو سبحانه وتعالى . ويمضى ابن تيمية فى شرح الاستدلال العقلى فى هذه الآية بقوله (ذكر الدليل بصيغة استفهام الانكار ليبين أن هذه القضية التى استدل بها فطرية ، بديهية ، مستقرة

(٣٨) فتاوى ج٩ ص١٨٩ كالمخلوقات الدالة على الخالق سبحانه وتعالى .

مفهوم السلفية فى العصر الحديث
أو المفهوم الصحيح للعقيدة الإسلامية

اتضح لنا مما تقدم أن مدلول السلفية أصبح اصطلاحا جامعا يطلق على طريقة السلف فى تلقى الإسلام وفهمه وتطبيقه ، ولذا فلم يعد محصورا فى دور تاريخى معين ، ولكنه ممتد إلى العصر الحاضر ، وبواسطته نصل إلى الفهم الصحيح للعقيدة الإسلامية .

وبعد أن تكلمنا على قواعد المنهج السلفى ، أصبح من السهل الاستدلال على أصحاب هذا المنهج على طول المراحل التاريخية ، بما فى ذلك العصر الحديث أيضا ، واستخلاص السمات البارزة لاجتهاداتهم فنذكر منها :

● **الشمــــول** :

لقد أثرت المناهج الجزئية التى اصطنعها المسلمون فى العصور المتأخرة على النظرة الصحيحة الشاملة التى عرفها الأوائل ، وكانت نتيجة دراسة جوانب الإسلام المتعددة – التى كانت تؤلف فى عهد الرسالة وحدة متماسكة لا تنفصل – منعزلا بعضها عن بعض – فدراسة الجانب الاعتقادى تولاه المتكلمون وعلماء العقيدة ، ودراسة الجانب العملى – سواء أكان فى مجال العبادة أم العلاقات الاجتماعية (المعاملات) – تولاه الفقهاء ، وتولى أهل التصوف والأخلاق الجانب النفسى الأخلاق ، وكل فئة من هذه الفئات أعطت من الإسلام صورة الجانب الذى تولت دراسته فضاع بذلك الارتباط الحيوى والتأثير المتبادل بين هذه الجوانب ، مما أدى إلى تمزق وتشتت النفسية ، والعقلية المسلمة . الأمر الذى ترتب عليه الجهل بالإسلام الحقيقى وإساءة الظن به ،

إلى نفور كثيرين من أبناء العصر الحديث وابتعادهم عنه وإطلاق أحكام خاطئة عليه واتخاذ مذاهب ومناهج نكدة عن أمم الغرب يظنون أنها تحل مشكلات مجتمعاتهم !!

لذلك نشأت الحاجة إلى عرض الإسلام فى صورة مبرأة من الشوائب والتشويه شاملة لجميع جوانبه وأجزائه مع ترابطها وحفظ نسبها ومواقعها ... هذه الصورة ليست جديدة ولا مبتدعة ، فالقران الكريم كثيرا ما يعرض رسالة الإسلام عرضا مجملا شاملا فى الكثير من اياته كقوله تعالى : (يا أيها الذين امنوا اركعوا واسجدوا واعبدوا ربكم وافعلوا الخير لعلكم تفلحون) .

وكذلك كان فهم الصف الأول من الصحابة المجاهدين فى سبيل رسالة الإسلام . لقد كان فهمهم عميقا شاملا . فإذا حللنا مقالة ربعى بن عامر حين دخل على قائد الفرس رستم فى القادسية للمفاوضة قبل بدء القتال لتأكد لنا كيف كان فهمهم لرسالة الإسلام فى شمولها وتكاملها ... فبعد أن أراد القائد الفارسى أن يثنى القائد المسلم وأصحابه عن القتال باغرائهم بالمال ، كان جواب هذا الصحابى : ما لهذا جئنا ، الله أبتعثنا لنخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده ، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والاخرة ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام ، فقد شملت الفقرة الأولى تحرير الإنسان من جميع ألوان العبودية لغير الله . ويدخل فى ذلك التحرر السياسى والاجتماعى وتخليص عبودية الإنسان لله وحده . ويدخل فى مضمون الفقرة الثانية الجانب النفسى والأخلاقى يجعل أهداف الإنسان أبعد مدى وأعلى من الأهداف المادية القريبة ذات الاطار الضيق ، وتشمل الفقرة الثالثة تقويض الأنظمة الاجتماعية الجائرة وإقامة نظام اجتماعى عادل ، ويشمل ذلك أحكام الإسلام فى التشريع المالى والسياسى والاجتماعى[٤٠] .

---

(٤٠) محمد المبارك : نظام الإسلام - العقيدة والعبادة ، دار الفكر ١٩٧٣ ص١٩-٢١ (بتصرف) .

وقد أدرك هذا المعنى علماء الصدر الأول من الإسلام وكبار الأئمة المجتهدين المشهورين . وكان فى كل عصر من علماء الإسلام من يسير على هذا النهج ، ومنهم ابن تيمية الذى يقرر أن الشريعة التى بعث الله بها محمدا ﷺ جامعة لمصالح الدنيا والاخرة فيقول :

والشريعة جامعة لكل ولاية وعمل فيه صلاح الدين والدنيا ، والشريعة إنما هى كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم وما كان عليه سلف الأمة فى العقائد والأحوال والعبادات والأعمال والسياسات والأحكام والولايات والعطيات ...) .وبعد ذلك يصرح مبينا إنه ليس للانسان أن يخرج عن الشريعة فى شئ من أموره ، بل كلما يصلح له فهو فى الشرع من اصوله وفروعه وأحواله وأعماله وسياسته ومعاملته وغير ذلك[41] .

وفى العصر الحديث يعمل السلفيون على استئناف الحياة الإسلامية على أساس هذا الفهم وطبقا لهذه النظرة الرحبة الفسيحة لكل جوانب الإسلام كمنهج ربانى لا يعتوره نقص .

ولكى ندرك سلامة هذا المنهج فى صورته المعاصرة ، يكفينا الوقوف على دور مفكرى الإسلام وأئمته المتخذين طريقة السلف سبيلا للارتقاء بالأمة الإسلامية ، بالمقارنة بفلاسفة الغرب ، فقد انقسم هؤلاء بوجه عام فى تعليل اضطرابات ومفاسد مجتمعاتهم إما إلى عامل سياسى – وهم المعتنقون للديمقراطية أو العامل الاقتصادى وهم أتباع كارل ماركس ، أو بسبب الفقر الروحى الذى يقول به توينبى ، وكان فرويد يعتقد أن المشكلة ترجع إلى كبت الغرائز وهكذا فإنهم جميعا نظروا للمشكلة من جانب واحد بينما النظرية الجزئية تكون دائما عقبة فى سبيل الاصلاح .

---

(٤١) مجموع فتاوى الإسلام أحمد بن تيمية ط الرياض ١٣٨٣ هـ المجلد ١٩ ص ٣٠٦ – ٣٠٩ .

أما المسلمون السلفيون فقد اتفقوا على قاعدة اضطراد العلاقة بين تقدم المسلمين واستمساكهم بالإسلام . وعلى العكس تدهورهم وضعفهم عند الانسلاخ منه ، فالعلاقة بينهما علاقة المد والجذر مع الإسلام والايمان(٤٢) .

وظهر اجماعهم أيضا فى صورة نبذ مظاهر البدع والانحرافات وسمات الكهنوت وصور الخرافات كلها ، فهذا هو السبيل الكفيل بالنهوض استجابة للحقيقة القرانية المتكاملة التى تشمل – فضلا عن العقيدة الصحيحة – مبادئ السلوك والأخلاق ، وتنظم حياة الفرد والأسرة ، وإقامة أركان الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية لأن السلف الصالح كانوا يفهمون الإسلام ويعملون به وفقا لهذه القاعدة وقامت حضارة المسلمين فى ذروتها على فهم هذا الأصل الجامع ورفض تجزئة الإسلام إلى دوائر الفقه والكلام والفلسفة والتصوف ، وليس بدعا اتفاقهم فى استهداف الارتقاء بالمسلمين عن طريق الإسلام – فهما وتطبيقا – فى عصر ظن البعض – مخطئا – أن دور الدين قد انقضى زمنه ومن أقوى دواعى شجب هذا الزعم ، تعليل سيد المؤرخين الأوروبيين المعاصرين – أرنولد توينبى – الذى حلل أسباب تدهور حضارة الغرب بارجاعها إلى الانسلاخ عن المسيحية وظل يرفع صوته محذرا منذرا بنى قومه إلى أن مات ملحا على إحياء الايمان المسيحى إذا أريد لهذه الحضارة الاستمرار(*)

---

(٤٢) أبو الحسن الندوى : المد والجذر فى تاريخ المسلمين ص٩٢ .

(*) أثبتت الأحداث الأخيرة – خاصة بعد سقوط الماركسية – عودة الدين ليؤدى دوره من جديد .

(ينظر كتابنا : الصحوة الإسلامية – عودة إلى الذات) ط دار الدعوة – الاسكندرية .

● « التقـــدم » لا الرجوع إلى الـــوراء[٤٣] :

يزعم خصوم الإسلام بعامة ، والسلفية بخاصة إنها دعوة رجعية وهو زعم خاطئ من جذوره فلا تتعارض السلفية مع التقدم ، وهنا يجب التوقف عند مصطلح التقدم الشائع الان لتفسيره وبيان مدلوله :

أ – ينبغى التمييز بين التقدم فى أبحاث العلوم التجريبية وتسخير نتائجها فى سبيل إتاحة حياة إنسانية أفضل – وبين الهبوط الروحى الذى تردت إليه الحضارة الأوروبية الحديثة لأننا نرى أن الإنسان وحدة نفسية جسمية لن تتحقق له سعادته ، بالفصل بين جانب المادة وجانب الروح فى شخصه كما فعل فلاسفة الغرب ، بينما الإسلام يعالج الإنسان ككيان متكامل .

ب – ينبغى ألا نغفل أحداث التاريخ – لا القديم فحسب – بل المعاصر أيضا ، الماثل أمام عيوننا ، ومازلنا نعانى من آثاره المدمرة من جراء استعمار الغرب لنا وهتكه لمبادئ الإنسانية واستنزافه لثرواتنا ، وما مصانعه وجيوشه ومدنه ومدارسه وجامعاته إلا نتاج أموالنا المنهوبة من عرق شعوبنا التى رأت على يد الغرب صنوف الهوان ، ومازلنا نعانى من آثار تصرفات الغرب المتحضر على أرض فلسطين .

وهنا نلاحظ كما يلاحظ كل ذى عينين – الفرق الهائل بين المبادئ الأخلاقية والنزعات الإنسانية التى يتعامل بها الغربيون مع بعضهم البعض وبين قسوتهم فى التعامل مع الشعوب المقهورة ، وما أمثلة فيتنام وكمبوديا

---

(٤٣) ورد فى (بروتوكولات حكماء صهيون) تفسير كلمة (التقدم) كما يلى :

ولا يوجد عقل واحد من الأميين يستطيع أن يلاحظ أنه فى كل حالة وراء كلمة (التقدم) يختفى ضلال وزيغ عن الحق ، ماعدا الحالات التى تشير فيها الكلمة إلى كشوف مادية أو علمية . ص١٨٣ ترجمة محمد خليفة التونسى .

وفلسطين وجنوب أفريقية ببعيدة عنا ، فأين التقدم الذى يدعيه أهل الغرب عند تعاملهم معنا ؟

التقدم فى الإسلام تقدم أخلاق والمضى قدما فى تحقيق الرسالة التى نيطت بهذه الأمة ، مع الأخذ بأسباب العمران المادى فى النواحى الحياة كلها .

(ج) إن القديم فى تاريخ أوروبا تعبير يطلق على العصور المظلمة فى القرون الوسطى السابقة لعصر النهضة لذلك فإن رفض أوروبا لتاريخها القديم موقف يتلاءم مع رغبتها فى التقدم لأن الماضى يعد سببا لتخلفها(٤٤) .

والعكس بالنسبة لنا تماما : فإن تاريخنا يعبر عن تقدم حضارى فى كافة المجالات ، وإذا طالبنا (بالترقى) إلى مستويات السلف ، فإننا نعنى بذلك اتخاذ العقيدة الإسلامية بمفهومها الشامل من توحيد لله عز وجل وخضوع له ، وتحكيم شريعته لأنه خالق الإنسان وهو سبحانه أعلم به من نفسه ، وتنفيذ شريعته فى الحياة الإنسانية كلها ، وما الحقل العلمى إلا أحد ألوان الأنشطة الإنسانية . وقد حققه المسلمون ألوانا زاهية من الحضارة عندما اتخذوا من الإسلام عقيدة ومنهاجا لأنه يحضهم على طلب العلم من المهد إلى اللحد ، ويرفع من شأن العلماء فيجعلهم فى مرتبة ورثة الأنبياء ، ويبين لهم أنه سخر لهم ما فى السموات والأرض جميعا ، إلى غير ذلك من الأدلة التى يشهد بها المعاندون قبل المؤيدين .

ولكننا فى الوقت نفسه لا نزعم - ولا نظن أن عاقلا يخطر له على بال - أن نضع الأمة الإسلامية فى متحف للتاريخ !! بمعنى أن نطالب بارجاعها للأخذ بوسائل العصور السابقة فى الحياة العمرانية بأساليبها فى الانتاج والنقل

---

(٤٤) ينظر كتابنا (السلفية بين العقيدة الإسلامية والفلسفة الغربية) دار الدعوة بالاسكندرية .

والتعليم والتطبيب وتشييد المدن . وتجهيز الجيوش ، وبناء المدارس والجامعات والمستشفيات الخ ...

ويتضح لكل دارس للاسلام أن المفهوم الإسلامى للحضارة أرق بكثير من التصور الغربى فلا نحن نرضى بتخلف المسلمين الحالى عن تحقيق النموذج الإسلامى ، ولا نرضى فى الوقت نفسه بتقليد الغرب فى فلسفته ومضامينه الفكرية الشاملة .

وللانصاف ، نقول ان هذا التقدم فى ناحيته المادية الماثلة أمامنا ، ما هو إلا جزء من التصور الحضارى للاسلام فبينما يعلن القران الحكيم : (وسخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض) يعلن أيضا (وما خلقت الجن والانس إلا ليعبدون) ، فانتماؤنا للمجتمع الإنسانى كله ، يدفعنا إلى الحرص على تحقيق السعادة له . فلا ننادى بالإسلام بغية السيطرة والاستعمار وامتصاص دماء الشعوب كما يفعلون ، ولكننا ننادى به لانقاذ أنفسنا من مظاهر التخلف وأسباب التأخر ، لأن الناظر إلينا يستخلص فهمه للاسلام من تصرفاتنا وسلوكنا وأحوالنا ، وقد صدق الدكتور سارطون الامريكى بقوله (لقد حجب المسلمون الإسلام) ، ولكى نوجه أنظار العالم إلى أن أحوالنا الحاضرة لا يرتضيها الإسلام ، ونعلن أيضا أن سعادة البشر وطمأنينته فى هذه العقيدة الفطرية .

إن أصحاب المنهج السلفى لا يمنعون إطلاقا فتح النوافذ على العلوم التجريبية والاستفادة من النتائج العلمية والاكتشافات الباهرة فى حقل الاختراعات التى تجمل الحياة وتذلل الصعوبات ، بل إننا مأمورون بأن نسعى فى الأرض لأن الله عز وجل سخر لنا ما فى السموات وما فى الأرض جميعا كما قدمنا ، وأن النتاج العلمى لعلماء الإسلام يشهد بتنفيذهم لأوامر القرآن الكريم .

ولكن الأمر الذى نرى التوقف فيه ودراسته هو إعادة النظر وفحص الانتاج الثقافى فى العلوم الإنسانية لأنه يرتبط بتصورات للحياة تختلف عن تصوراتنا . هناك مادية وإنكار للرسالات السماوية أو انحراف عن الوحى الالهى ، نجم عنه شرور وآثام مما دفع بمفكريهم وفلاسفتهم إلى رفع أصواتهم لحماية مجتمعاتهم من شرورها ، ولا شك أن احصائيات الشرطة ونزلاء المستشفيات العقلية والنفسية وسجلاتها والجرائم المستمرة الآخذ رسمها البيانى فى الارتفاع كلها تشير إلى أزمة طاحنة .

فإذا حاولنا تقليد الأفكار والنظريات ، فنحن هنا أمام أصول تخالف عقائدنا ومثلنا اختلافا تاما ، وقد قامت حضارة اليابان الصناعية على نقل العلوم التجريبية ، ولكن مع احتفاظها بعقيدتها ومقومات شخصيتها ، فماذا يمنع من قيام نفس الظاهرة ونحن أصحاب العقيدة والمبادئ التى أنارت العالم عدة قرون ؟

أما نبذ السلفية بحجة التسابق مع الزمن ، واللحاق بكل ما هو جديد فمنهج خاطئ قائم على مفاهيم غربية متصلة بفلسفتها فإن ما نراه اليوم جديدا سيصبح غدا - وحتما - قديما ، وقد كشفت النظرية النسبية عن خطأ تصور الزمن كإمتداد لدى اليونان ، فليست الموازنة إذن بين قديم وجديد موازنة صحيحة ، ولكن ينبغى أن تتم بالمقارنة بين الحق والباطل أيا كان العصر والزمن لأن القيم لا تتغير ولا تتبدل ، ونحن نفهم القصص القرانية كعبرة لما حدث بالأمم الغابرة ، وتجلية حقيقة الدفع بين أصحاب الحق وأهل الباطل ، فليس الجديد مقدما بالضرورة عن سلفه .

● **الاصالة لا التقليد[٤٥] :**

وهنا نطرح سؤالا لابد منه وهو : كيف يراد بنا تقليد الغرب الآن ، فى هذه المرحلة الحاسمة من تاريخنا ؟

بينما يجأر فلاسفته بالشكوى ، باحثين عن خروج من مازق حضارتهم ؟ولكننا سنجد من يحاول إيجاد العذر لهذه الحضارة والدفاع عنها بالرغم من أزماتها المتعددة ، بدعوى أن مشاكلها مشاكل تقدم ، وأزماتها ناجمة عن تطلعات وطموح فى تنفيذ نتائج أفضل ، وحتى مع افتراض صحة هذا الزعم ، فإننا نرفض التقليد باحثين عن الأصالة ، ولا تأتى الأصالة بترقيع الشخصية ، بل بالارتباط بالعقيدة التى كانت حجر الزاوية فى كيان هذه الأمة ، وإلا فهل المطلوب منا نبذ نموذج حضارى تحقق لمئات السنين والالتفات إلى أمم الغرب نقلدها ؟

وفى الاجابة على هذا السؤال نميز أولا كما قلنا بين تقليد مقومات الشخصية والعقائد والتصورات ، وبين النتائج العلمية ، فلا وطن للعلم ، ولا جنسية للاكتشافات والأبحاث الإنسانية فى الميادين المختلفة ، لأنها نتاج جهود البشرية

---

(٤٥) ويلفت نظرنا ظاهرة انتصار الأصالة فى تحول الباحثين عن الحقيقة بإخلاص وتجرد (كالدكتور مصطفى محمود والأستاذ محمد جلال كشك) وأنهما ليعبران عن ظاهرة ذات مغزى ، إذ ينتميان إلى الجيل الذى بهرته الكلمات البراقة فى خلايا الشيوعية السرية عن التقدم المنتظر وتحقيق العدالة الاجتماعية على أوسع نطاق ولكن عندما تحولت الكلمات البراقة إلى العنف طارت خفافيش لأفكار التى لا تعيش إلا فى الأوهام وانقشت سحب الظلام عن حقائق مذهلة أصابتنا بكوارث نعرفها جميعا .

ربما نجد العذر للبعض عند المرور بفترات المخاض لمن يحس بالأمل أن يبحث عن حلول جاهزة مستوردة بأى ثمن ، ولكن بعد طول المعاناة ، وبعد التأكد مع تكرار التجارب أن الغرب مازال ينظر إلينا نظرة العداء ، وهاهى الحروب مع إسرائيل تدعم رأينا فى شدة عداء الغرب لنا ، وتحذرنا من البحث عن أنفسنا فى مرآة أعدائنا .

على إختلاف جنسياتها وأوطانها ، فليس هناك طب أوروبى أو هندسة أمريكية أو فلك روسى أو جيولوجيا يابانية ، وقد ساهمنا فيها كلها يوما بجهود لا تنكر[٤٦] .

المشكلة هى اختلافنا الأساسى معهم توحيد والايمان بالله سبحانه وتعالى وإفراده بالألوهية والربوبية ، وماهية الإنسان ، والغرض من خلقه وبيان ماله فى اليوم الآخر ، وما هى وسائله لسلوك أحسن السبل الممكنة فى الحياة والارتقاء بها ؟ولعلنا نصدم أصحاب دعوى التجديد المتغربين النابذين للسلفية عندما نضع أمامهم الحديث النبوى (إن الله يبعث لهذه الأمة فى رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها) ، ويرى ابن تيمية أن التجديد بعد الدروس ، فالتجديد ارتقاء وتقدم بالأمة لتسلك طريقها مرة أخرى ، كلما بعدت عن الصحيح الأصيل المتوارث .

وتأتى افة التقليد عندما ننسى أصالتنا ، ولذا ينبغى التنبيه إلى الحكمة النبوية فى الحديث الذى رواه البخارى « لا تقوم الساعة حتى تأخذ أمتى بأخذ القرون (الأمم) قبلها شبرا بشبر وذراعا بذراع . فقيل يارسول الله : كفارس والروم ؟ فقال : ومن الناس إلا أولئك ؟ ! » . وفى حديث أبى سعيد الخدرى وعن رسول الله ﷺ أنه قال : « لتتبعن سنن من قبلكم شبرا بشبر وذراعا حتى ولو دخلوا جحر ضب خرب ، لتبعتموهم ، قلنا يارسول الله : اليهود والنصارى ؟ قال : فمن غيرهم ؟! » وجحر الضب كناية عن العادات المخربة لسعادات الشعوب والأفراد ، وقد اختلف الجواب والروم) كان هناك قرينة تدل على أن الأمر يتعلق بنظم الحكم والسياسة والاجتماع . وحيث قيل (اليهود والنصارى) كان هناك قرينة على تعلق الأمر بما هو من قبيل الديانات والعبادات[٤٧] .

---

(٤٦) ينظر كتابنا (مناهج البحث فى العلوم الإسلامية) مكتبة الزهراء بالقاهرة .

(٤٧) عبد المتعال الجبرى : المرأة فى التصور الإسلامى - مكتبة وهبة ص١٧٦ - ١٧٧ .

وقد استقرأ ابن تيمية الايات القرانية والأحاديث النبوية الامرة بترك التشبه

بالأمم السابقة والمحافظة على أصالة الأمة الإسلامية ، ثم استخلص فى النهاية أن مخالفتهم فى عامة أمورهم أصلح للمسلمين لأن جميع الآيات دالة على ذلك ، كذلك هناك من الآيات ما يدل على أن مخالفتهم واجبة .

وبصرف النظر عن دلالة الوجوب عن غيرها فإن مخالفتهم مشروعة فى الجملة[48] وسيأتى تعليله وبيانه للحكمة من المخالفة إبقاء على ذاتية الأمة الإسلامية ومحافظة على كيانها المتميز عن الأمم السابقة التى انحرفت عن الصراط المستقيم .

أدلة الكتاب والسنة :

يرى شيخ الإسلام أن دلالة الكتاب على خصوص الأعمال وتفاصيلها إنما تقع بطريق الاجمال والعموم أو الاستلزام ، وتأتى السنة لتفسر الكتاب وتبينه ، وتدل عليه وتعبر عنه

والتزاما بهذا الأصل يدكر ايات من الكتاب الحكيم ويتبعها بالأحاديث المفسرة لمعانى ومقاصد الايات .

قال تعالى ﴿ **يا أيها الذين امنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء .** ﴾ المائدة ٥١ .

وقال سبحانه :﴿ **لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو اخوانهم أو عشيرتهم أولئك**

(٤٨) ابن تيمية : اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم ص١٧ ، بتحقيق محمد حامد الفقى – مطبعة السنة المحمدية ١٣٦٩هـ – ١٩٥٠م .

كتب فى قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه ـ إلى قوله ـ أولئك حزب الله ألا ان حزب الله هم المفلحون ﴾ ٢٢ المجادلة .

وكذلك ما ورد فى السنة ، فقد كان النبى ﷺ يكره مشابهة أهل الكتابين فى الاصار والاغلال - حيث كان من صفته ﷺ كما قال تعالى ﴿ ويضع عنهم اصرهم والاغلال التى كانت عليهم ﴾ الاعراف ٧٥١ .

لهذا فانه زجر أصحابه عن التبتل وقال (لا رهبانية فى الإسلام) وأمر بالسحور . ونهى عن المواصلة ، وقال فيما يعيب به أهل الكتابين ويحذرنا عن موافقتهم (فتلك بقاياهم فى الصوامع)[٤٩] .

وإننا نعتقد أن كتاب شيخ الإسلام (اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم) يحمل بين طياته أبلغ الدلالات وأقواها فى تحذير الأمة الإسلامية من تقليد غيرها ، ذلك لأن الأمة الإسلامية تميزت بخصائص تميزها عن غيرها من الأمم وتجعل من التزامها بعقائدها وشريعتها أمة متقدمة بالمعنى الحضارى الصحيح حيث تتميز الحضارات كما قلنا بالعقائد والقيم والسلوك فى المقام الأول ثم تأتى فى المرتبة التالية المنتجات المادية .

وقد نهى النبى ﷺ عن التشبه بالأمم الأخرى ، فى الحديث المشار إليه انفا ، وعندما عاصر شيخ الإسلام ابن تيمية ألوانا من تقليد فارس والروم ، أخذ يحذر منه وينبه إليه (فقد دخل منه فى هذه الأمة من الاثار الرومية قولا وعملا ، والآثار الفارسية قولا وعملا : مالا خفاء فيه على مؤمن عليم بدين الإسلام ، وبما حدث فيه)[٥٠] .

---

(٤٩) المصدر نفسه ص٤٨ .

(٥٠) ص٥ اقتضاء الصراط المستقيم المصدر نفسه ص١٠

ولا ندرى لو عاش معنا الشيخ عصرنا الحاضر ماذا عساه أن يقول !! وعلى أية حال فانه يوضح المعالم الخاصة بهذه الأمة استنادا إلى فهمه لآيات القران وأحاديث النبى ﷺ ، ويحلل الاثار الناجمة عن التشبه بالأمم الأخرى .

وكطريقة ابن تيمية فى عرض أفكاره يبدأ بشرح المقصود بالصراط المستقيم بأنه يتضمن أمورا باطنة وأخرى ظاهرة . والباطنة مقرها القلب : كالاعتقادات والارادات وغيرها . والظاهرة : كالأقوال والأفعال .

وهذه الأعمال الظاهرة قد تكون أيضا عادات : فى الطعام واللباس والزواج والمسكن والاجتماع والافتراق والسفر والاقامة والركوب وما شابهها .

والقاعدة الكلية التى ينبنى عليها الحكم هى أن الأمر بموافقة قوم أو بمخالفتهم : قد يكون لأن نفس قصد موافقتهم أو نفس موافقتهم : مصلحة وكذلك نفس قصد مخالفتهم أو نفس مخالفتهم مصلحة تقع بنفس متابعتنا لرسول الله ﷺ والسابقين من السلف الصالح من المهاجرين الأنصار فى أعمال لولا أنهم فعلوها لربما لا يكون لنا فيها مصلحة ، لأن متابعتهم يورث محبتهم وائتلاف قلوبنا بقلوبهم ويدعونا أيضا إلى موافقتهم فى أمور أخرى[٥١] .

وهكذا ينبهنا ابن تيمية إلى أصل جوهرى من أصول استمرار الحضارة الإسلامية وفقا لارتباطها بجذورها التى ازدهرت فى العصور الأولى بفضل ما حققه الأوائل من أعمال ، بحيث أننا نضمن عند متابعتنا لها ، من استمرار هذه الحضارة ، فان أية حضارة ما هى إلا ثمرة العقائد والأعمال ، وقد عبروا بهما عن القمة وبلغوا فيهما الذروة .

ويشرح ابن تيمية منافع الأعمال الصالحة فى ذاتها ويعلل الحكمة من المتابعة أو المخالفة وأثرها على النفوس البشرية .

(٥١) ابن تيمية : اقتضاء الصراء المستقيم ص١٣ .

ويستدل على ذلك بما هو مجرب ومحسوس فان اللابس لثياب أهل العلم – مثلا – يجد فى نفسه نوع انضمام إليهم ، واللابس لثياب الجند المقاتلة مثلا ، يجد فى نفسه نوع تخلق بأخلاقهم ، ويصير طبعه مقتضيا لذلك (لا أن يمنعه من ذلك مانع[٥٢] .

وعلى العكس من ذلك فان المخالفة فى الهدى الظاهر ، توجب مباينة ومفارقة توجب الانقطاع عن موجبات الغضب ، وأسباب الضلال والانعطاف إلى أهل الهدى والرضوان ، موالاة بين جنده المفلحين وأعدائه الخاسرين . وكلما كان القلب أتم حياة وأعرف بالإسلام (ويستطرد ابن تيمية : لست أعنى مجرد التوسم به ظاهرا ، أو باطنا بمجرد الاعتقادات التقليدية ، من حيث الجملة كان احساسه بمفارقة اليهود والنصارى باطنا أو ظاهرا أتم ، وبعده عن أخلاقهم الموجودة فى بعض المسلمين : أشد)[٥٣] .

ويبلغ شيخ الإسلام فى تعليله لسبب المنع حيث يرجعه إلى التأثير المتبادل بين الروح والجسم ، أو الانفعالات النفسية وأعمال الجوارح الظاهرة ، إذ أن الأمور الباطنة من اعتقادات واردات كالأقوال والأفعال من عبادات وعادات وغيرها ، هذه الأمور الباطنة والظاهرة لابد بينهما من ارتباط ومناسبة (فان ما يقوم بالقلب من الشعور والحال يوجب أمورا ظاهرة ، وما يقوم بالظاهر من سائر الأعمال : يوجب للقلب شعورا وأحوالا)[٥٤] .

---

(٥٢) المصدر نفسه ص١١ .

(٥٣) المصدر نفسه ص١٠٢ .

وابن تيمية هنا فى تحليله للصلة بين الملابس والنفس البشرية أسبق من كارليل صاحب كتاب (فلسفة الملابس) . يقول كارليل (من ذا الذى رأى منكم أحدا من اللوردات يحييه الناس بتحيته وهو فى أسمال رثة وأطمار بالية ... إلخ) ص١٩٦ ترجمة طه السباعى – مطبعة البشلاوى بمصر سنة ١٩٢٧م .

(٥٤) المصدر نفسه ص١١ .

وتفسير ذلك أن طاعة الله تعالى وعبادته والخضوع لأوامره والانتهاء عن نواهيه تورث انشراحا فى الصدر وسعادة فى النفس ونورا فى القلب ، وبالضد من ذلك فان المعاصى تورث كآبة وظلمة القلب وتسبب الغم والحزن والضيق .

وأصل ذلك فى وصف الفريق الأول قوله تعالى (**أولئك سيرحمهم الله**) ، والفريق الثانى قوله تعالى ﴿ **ولهم عذاب مقيم** ﴾ ، إشارة إلى ما هو لازم لهم فى الدنيا والآخرة من الآلام النفسية غما وحزنا ، وقسوة وظلمة قلب وجهلا ، أن للكفر والمعاصى من الآلام العاجلة الدائمة ما الله به عليم . ولهذا تجد غالب هؤلاء لا يطيبون عيشهم إلا بما يزيل عقولهم ويلهى قلوبهم ، من تناول مسكر أو رؤيه مله - أى ملاهى - أو سماع معازف ونحو ذلك[٥٥]) .

---

(٥٥) المصدر نفسه ص٢١ .

المبحـث الـــرابع

ما السبيـل إلى حيـاة أفضـل ؟

« توجيهات شيخ الإسلام ابن تيمية فى تزكية النفس وتحسين الأخلاق وإصلاح المجتمع »



تمهيــــد :

بعد الانتهاء من شرح العقيدة الإسلامية وبيان معالمها ومشتملاتها ، يحسن بنا سلوك الطريق العملى نحو الحياة الإسلامية الجديرة بأن نحياها كمسلمين ، نتحرى فيها الصدق مع النفس التزاما بأوامر الله تعالى ونواهيه ، باذلين الوسع ما استطعنا إلى ذلك سبيلا سعيا وراء الحياة الأفضل فالأفضل ، لأنفسنا ولمجتمعاتنا ، ولأمتنا .

وكنا قد أشرنا فى مقدمة الطبعة الأولى إلى علة اهتمامنا بشيخ الإسلام حيث يتميز بسلامة المنهج ووضوح الأفكار والاستناد إلى الحجج والأدلة ، فضلا عن احاطته العميقة بتفسير القرآن الكريم ودرايته الواسعة الدقيقة بالأحاديث النبوية والاستناد فى اجتهاداته وآرائه ومواقفه إلى النصوص الشرعية .

وما الاستفادة بتراث علمائنا إلا باذاعتها ونشرها على نطاق واسع ووضعها موضع التنفيذ – لا فرق بي السابق والمعاصر – لاننا نود الاستفادة من ارائهم فى حل مشكلاتنا المعاصرة لان البعث الحضارى الإسلامى يأتى أولا بتغيير النفس وتزكيتها ومعرفة ذاتية الامة ودورها . وما حيلتنا إذا كان القاسم المشترك الأعظم فى حضارتنا الإسلامية انها نشأت وترعرعت بين يدى الدين بعقيدته وشريعته وقيمه ؟ وهى فى إحيائها واستمرارها لن تقوم إلا وفق هذا القانون . اما العناية بالخطط والمناهج والاهداف بغير تربية الإنسان وتعديل السلوك فانها جهود ضائعة تذروها الرياح ...!! فهل نطمع فى اقناع القادة والساسة وأصحاب الرأى والقلم بضرورة الاهتمام بفرعى هذا الطريق معا ، وبنفس القدر من العناية والاهتمام ؟

ولا يصدر رأينا هذا من استهانة بقدر الخطط والبرامج – بل نرى أننا أشد ما نكون حاجة إلى التخطيط العلمى ومتابعة التنفيذ العملى بدقة وحزم ، ونأمل

أن نرى أمتنا وفقا لهذا التخطيط المحكم تتسابق مع غيرها فى عصر الفضاء والكمبيوتر .

ولكن الاعداد النفسى والعلمى ومخاطبة عقول الناس بالاقناع وحثهم على المنافسة فى تحقيق الأهداف ، كل هذه الوسائل لابد أن تكون ملازمة ومصاحبة للخطط النظرية إذ ما جدواها بغير رجال مقتنعين بجدواها ومؤمنين بأهدافها بحيث تجمعهم عقيدة راسخة وإيمان قوى ؟

وكانت كتابات الشيخ فى أغلبها فتاوى واجتهادات للرد على أسئلة واستفسارات المسلمين حينذاك ، ومن ثم فإن اجاباته تعكس مشكلات عصره مقترنة بالتجارب التى خاضها ، وربما تشبه فى ملامحها العامة ما نعانى منه الان إذ قام بتنقية الدين مما شابه من البدع الاعتقادية والعبادية ، وحارب مظاهر الفساد والظلم المتفشية فى المجتمع ، وجاهد فى سبيل الله لصد الهجمات (الاستعمارية) التخريبية للتتار ، وبرهن على عجز الفكر الفلسفى — فى منابذته لحقائق الوحى الالهى — لتحقيق الحياة السعيدة للانسان — فإن شرع الله تعالى هو الكفيل وحده بتحقيق هذه الحياة لأن الله تعالى هو خالق الإنسان ، وهو الأعلم به .

ونعتقد أننا إزاء الاتجاهات الفلسفية وآثار القوانين الوضعية على الفرد والمجتمع ، ومشكلات الحضارة المادية ، والتنافس على حياة الرفاهية ونسيان الغرض الأصلى الذى خلقنا من أجله ، نعتقد أن استنباطاته للنصوص تكفل لنا الرؤية وسط هذا الضباب القاتم .

وعملا باستنباطاته للقرآن والحديث ، فإنه يوجهنا — نحن المعاصرين لبداية القرن الخامس عشر الهجرى أيضا — لكى نستمد منهما تصوراتنا الصحيحة ، فتسلم عقيدتنا ، ونأمل فى حُسن المصير من جهة ، كما ترفعنا إلى قمم قلاع

المقاومة فنقف فى وجه الطوفان المدمر للغزو الذى بدأ منذ نحو قرن مضى ، وما زال مستمرا .

انه فعلا طوفان مدمر بلا أدنى مبالغة . وإذا طالبنا القارئ بالدليل ، فإليه رأى الفيلسوف المسلم رجاء جارودى الذى يشفق على الشخصية الإنسانية أمام طغيان الأجهزة الحديثة التى حولت الإنسان إلى مجرد ألعوبة فى يدها تشكله كيف تشاء ، إذ يقول (ان القوة المخيفة ليس فقط للوسائل الجماهيرية فى نشر الثقافة من صحافة واعلان واذاعة وتليفزيون وسينما ، بل قة الأجهزة التى تدير تلك الوسائل بهدف اخضاع سلوك الأفراد لأغراض اقتصادية وأخلاقية وسياسية ، خلقت وضعا واقعيا أصبح فيه أكثر جوانب سلوك الأفراد ظهورا هو خضوعهم لمخططات بنيانية ، وذلك ابتداء من المونتاج الاعلانى لردود الفعل المشروطة ، حتى كليشيهات المناظر العاطفية مارين بردود الفعل السياسية عند الجماهير . تلك الردود المتبلورة فى صيغ أعدت إعدادا مسبقا[1] .

الوحى الالهى هو المنقذ وليس الفكر الإنسانى :

كان نقد ابن تيمية يشكل أحد الأسلحة لحماية ذاتية الأمة فى مواجهة الثقافة اليونانية وصدها ومنع تسربها للمسلمين ، وكان هذا دأب علماء السنة ، وينبغى أن يستمر كدور أساسى لعلمائنا فى معركة الصراع بين الغرب الأوروبى والشرق الإسلامى ، استمساكا بمنبع الإسلام : الكتاب والسنة .

والمنهج لا يحتاج إلى اعادة شرح ، فإن استدلال الشيخ بالكتاب والسنة من الوضوح بحيث يكاد يختفى هو نفسه وراء الآيات القرانية والأحاديث

(١) جارودى : نظرات حول الإنسان ص٢٩٩ ترجمة د. يحيى هويدى – المجلس الأعلى للثقافة ١٩٨٣م .

النبوية التى يستنبطها . كل ما فعله هو أنه يذكرنا بها إذ قدمها لنا فى شكل نسق متكامل ، يتناول الإنسان : نفسه وارادته ومصيره وما يسعده وما يشقيه ، ولا يكتفى بالتفسير بل يحرك الإنسان بتذكيره بالوعد والوعيد ويحذر من المهالك على طريق الحياة ، مبينا صلة الاعتقادات بالاعمال ودور العبادات فى اصلاح النفس وكيف تحقق السعادة والطمأنينة النفسية ، واصلاح المجتمع بتطبيق شريعة الله . يظهر الصبغة العملية الواضحة فى الإسلام : انه دين (حركى ارتقائى) يصعد بالإنسان قدما ليصل إلى مرتبة النبيين والصديقين والشهداء والصالحين .

نقده للفكر الفلسفى (*)

تنبه شيخ الإسلام إلى عجز الفكر الفلسفى عن تحقيق السعادة للانسان فى حياته الراهنة فضلا عن الحياة الآخرة ، واظهر ما يتضمنه الكتاب والسنة من نصوص عن الإنسان وماهيته وسعيه الحثيث إلى تحقيق المنافع والملذات واجتنابه ما يجلب الاضرار والآلام .

وكان ابن تيمية معارضا لاراء الفلاسفة العملية الاخلاقية أيضا ، وخلاصة الماخذ التى وجهها إلى الفلاسفة اليونان - ومن تبعهم من المسلمين - ان ما ذكروه من العمل لا يخضع لقواعد ملزمة ، وانما متعلق بالندب ، اى اختيارا لا إلزاما ، كما أنهم لم يثبتوا خاصية للنفس ، وهى محبة الله تعالى وتوحيده ، بل لم يعرفوا كما تلك النفس . اضف إلى ذلك ان علمهم بالله تعالى قليل مشتمل على كثير من الباطل ، بينما يتحقق كمال النفس فى العلم والارادة معا - العلم بالله تعالى وارادة مرضاته وابتغاء وجهه عز وجل .

إنه بهذا التحليل لا يوجه نقده للفكر الفلسفى اليونانى فحسب بل للفكر الفلسفى عامة ، لأن ظواهر القصور فى هذا الفكر مازالت قائمة ويسجلها الباحثون والكتاب ، ويلحظها الفلاسفة الغربيون انفسهم .

(*) أو الأيديولوجى بلغة عصرنا

يصف كولن ولسن النقطة التى وصل إليها تفكير القرن العشرين بقوله : « من المتوقع أن تصف الأجيال الاتيه النصف الأول من هذا القرن بأنه « عصر اللامعنى » ، ففقدان المعنى والهدف يجثم على أدبنا وفننا وفلسفتنا ، هذا الشعور العام بأن التأكيدات التى يمنحها الدين قد ضاعت ولا يمكننا استبدالها ، فتحليل العلم للمشكلات العلمية يزيد فى اتساع هوة الفراغ المؤلم ، ومن خلال هذا تبدو الثقافة الغربية تعانى الانهيار والانتكاس لما لا يقل عن مائة سنة ، إذ إن الأمر ليس إلا مسألة تفكير فى معرفة المدة التى تستمر فيها قبل أن يلتهمها الافلاس الماحق »[٢] .

ولنعد لنقد شيخ الإسلام التفصيلى لفلاسفة اليونان ومن تبعهم :

إن القصور يرجع إلى ثلاثة أسباب :

الأول : إن الحكمة النظرية – أو الفلسفة عندهم – وهى أصل العمل لا تتضمن الايمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الاخر ، وهو العلم الذى تهتدى به النفوس .

الثانى : ان الحكمة العملية التى لا تتضمن الأعمال التى تسعد بها النفوس الأنسانية وتنجو من عذاب الله تعالى . **الثالث** : ان غاية الحد الاوسط – عند ارسطو ومن سار على دربه – هو تعديل الشهوة والغضب بالعفة والحلم ، اى أن مقصودهم ترك الاسراف فيهما ، اضف إلى ذلك ان الفلاسفة لم يضعوا حدا فاصلا قاطعا بين ما تحصل به النجاة والسعادة وما يسبب الشقاء والعذاب ، بينما فعل ذلك الرسل والأنبياء حيث بينوه وأوضحوه ، وقد قال تعالى **﴿ قل إنما حرم ربى الفواحش ما ظهر منها وما بطن والاثم والبغى بغير**

---

(٢) كولن ولسن : مابعد اللامنتمى ص١٥ (فلسفة المستقبل) ترجمة يوسف شرورو وعمر يمق – دار الآداب – بيروت سنة ١٩٨١ .

الحق وان تشركوا بالله مالم ينزل به سلطانا وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون ﴾ الأعراف ٣٣ .

ويظهر من هذه الآية التحريم المطلق بلا اباحة لاحد من الخلق بأى حال من الأحوال ، بخلاف الميتة والدم ولحم الخنزير وغير ذلك فانه يحرم فى حال ويباح فى حال .

ولكى يتبين التفسير الصحيح لهذه الاية **﴿ وما خلقت الجن والانس إلا ليعبدون ﴾** يقارن ابن تيمية بينها وبين ايات أخرى تتضمن لام التعليل - كقوله تعالى **﴿ ولتكملوا العدة ولتكبروا الله على ماهداكم ﴾** وقوله **﴿ كذلك سخرها لكم لتكبروا الله على ماهداكم ﴾** وقوله **﴿ ذلك لتعلموا أن الله يعلم ما فى السموات وما فى والأرض وأن الله بكل شئ عليم ﴾** وقوله **﴿ وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بإذن الله ﴾** فهو سبحانه لم يرسله إلا ليطاع ، ثم قد يطاع وقد يعصى . وكذلك ما خلقهم إلا للعبادة ، ثم قد يعبدون وقد لا يعبدون ، فلم يذكر سبحانه وتعالى أنه خلقهم ليجعلهم هم عابدين ، ولكن ذكرانه فعل :

الأول : أى الخلق - ليفعلوا هم

الثانى : أى العبادة ، فيكونون هم الفاعلين لها فيحصل بفعلهم سعادتهم وما يحبه ويرضاه لهم ، إذ أن كل ما خلقه وأمر به غايته محبوبة لله ولعباده ، وفيه حكمة له ، وفيه رحمة لعباده[٣] .

---

(٣) فتاوى ج٨ ص٥٥ - ٥٦ .

الدين مصدر الالزام الخلقى والأحكام الشرعية :

والتعليل للتحريم المطلق يرجع فى رأى ابن تيمية إلى أن الفواحش متعلقة بالشهوة ، والبغى بغير الحق يتصل بالغضب ، والشرك بالله فساد فى أصل العدل ، فالشرك ظلم عظيم ، وفساد العلم يرتبط بالقول على الله بغير علم ، وهكذا حرم سبحانه وتعالى (هذه الأربعة وهى فساد الشهوة والغضب وفساد العدل والعلم . ويظهر لنا مما تقدم أنه يهتم باستخراج القواعد الأخلاقية التى تنظم سلوك الإنسان ، وأنه يخضع هذا السلوك لنظام محدد استخلصه من القران الحكيم .

إذا اخترنا تعريف (سدجويك) للأخلاق بأنها مجموعة قوانين شرعها للناس إله(٤) ، فإننا نجد هذا المفهوم أكثر دقة وتفصيلا عند الشيخ السلفى ، إذ أوضح أن رسالة الرسل والأنبياء جميعا جاءت بأمر عبادة الله سبحانه وحده فى مثل قوله تعالى : ﴿ **ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت** ﴾ النحل/٣٦ وقوله :﴿ **وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون** ﴾ الأنبياء/٢٥ وقوله : (لما ذكر قصص الأنبيا) : ﴿ **إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون ، وتقطوا أمرهم بينهم كل إلينا راجعون** ﴾ الانبياء/٥٩ .

وقوله ﴿ **وما خلقت الجن والانس إلا ليعبدون** ﴾ الذريات/٦٥ نفهم من هذه الايات وغيرها أن الغاية التى تتم بها سعادة البشر ونجاتهم هى عبادة الله وحده حيث أرسل الرسل والكتب لهذه الغاية ، فلا تصلح النفوس وتزكوا إلا بها . ويفسر ابن تيمية قوله تعالى : ﴿ **ويل للمشركين الذين لا يؤتون**

---

(٤) سد جويك : المجمل فى تاريخ علم الأخلاق ص٧٨ .

الزكاة ﴾ فصلت/٧ بأنهم لا يؤتون ما تزكو به نفوسهم من التوحيد والايمان ، ومن ثم فإنهم يستحقون العذاب لقوله تعالى ﴿ **إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء** ﴾ النساء/٨٤ ، وفى هذا الأمر تتفق رسالة محمد ﷺ ، مع رسالتى موسى وعيسى عليهما السلام ، حيث وردت أول الوصايا العشر التى أنزلها الله على موسى حيث قال له : (أنا الله لا إله إلا أنا إلهك الذى أخرجتك من أرض مصر) ، وقد شهد المسيح عليه السلام أن هذه هى أعظم وصية فى الناموس ، وهكذا اتفقت كثير من الكتب ألالهية على عبادة الله وحده ، فلا نجاة للنفس الإنسانية ولا سعادة ولا كمال (إلا بأن يكون الله معبودها ومحبوبها الذى لا أحب إليها منه[٥] .

وقد أخبر الله تعالى فى غير موضع من القران عن الرسول أنه يتلو عليهم اياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة ، وتفسير هذه الايات أنه بتلاوتها يحصل العلم لأن الايات هى الدلالات والعلامات أى أنها تدلهم على المطلوب من تصديق الرسول فيما أخبر به (وأما التزكية فهى تحصل بطاعته فيما يأمرهم به من عبادة الله وحده وطاعته ، فالتزكية تكون بطاعة أمره)[٦] .

مفهوم الدين إذن له شقان أحدهما هو تزكية النفس بعبادة الله وحده ، والثانى الطاعة فيما أمر به الله سبحانه ، فجماع الدين أمر ونهى[٧] ، وقد وردت الايات التى تصف محمدا ﷺ ، بأنه ﴿ **يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث** ﴾ الأعراف/١٥٧ ومنها يظهر كمال رسالته (فإنه ﷺ هو الذى أمر الله على لسانه بكل معروف ونهى عنكل منكر وأحل كل طيب وحرم كل خبيث[٨] . وجاءت الحدود

(٥) ابن تيمية : الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح ج٤ ص١٠٦ .
(٦) ابن تيمية : النبوات ص١٧٢ .
(٧) الحسبة ص١٠ .
(٨) المصدر نفسه ص٦٣ .

والعقوبات داعية إلى فعل الواجبات وترك الحرمات ، ولم تفسد أمور كثيرة من الناس إلا بسبب تعطيل الحدود الشرعية[9] .

وساق ابن تيمية الحديثين الدالين على رسالة محمد ﷺ ، احداهما (إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق) ، والثانى (مثلى ومثل الأنبياء كمثل رجل بنى دارا فأتمها وأكملها إلا موضع لبنة فكان الناس يطوفون بها ويعجبون من حسنها ويقولون لولا موضع اللبنة فأنا تلك اللبنة) .

أما الرسل قبله ، فقد كان الله تعالى يحرم على أممهم بعض الطيبات كما قال (فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم) النساء ١٦٠ ، وكما قال : (كل الطعام كان حلا لبنى إسرائيل إلا ما حرم على نفسه من قبل أن تنزل التوراة) فربما لم يحرم عليهم جميع الخبائث ، وقد أكمل الله تعالى الدين للأمة الإسلامية بقوله (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا) المائدة / وجعل ميزة هذه الأمة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، فوصفها بما وصف بها نبيها إذ لم يتم الأمر بجميع المعروف والنهى عن كل منكر إلا بوساطة الرسول (الذى تمم الله به مكارم الأخلاق المتدرجة فى المعروف)[10] .

ويهتم ابن تيمية بتفاصيل العقوبات الشرعية إذ لا يتم الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر إلا بها ، فيوضح الحدود التى يقيمها ولاة الأمور لأن الله يزع بالسلطان مالا يزع القران[11].

إن تطبيق شرع الله تعالى إذن هو ضرورة أخلاقية وضرورة اجتماعية .

---

(٩) السياسة الشرعية ص٨٥ - ٨٦ .

(١٠) ابن تيمية : الحسبة ص٦٤ .

(١١) المصدر نفسه ص٥٠ .

ويتضح من كل ما تقدم أن مجموعة الأحكام الشرعية المتدرجة تحت مبدأ الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر لها صفة الالزام ، ولهذا فقد شرعت العقوبات داعية إلى فعل الواجبات ، وترك المحرمات(١٢) .

ولئن كان الثواب والعقاب من جنس العمل فى قدر الله ، فإن من عدله سبحانه الذى تقوم به السماء والأرض أن يكون ذلك فى شرعه أيضا (ولهذا شرع قطع يد المحارب ورجله وشرع القصاص فى الدماء والأموال(١٣) ، بل انه ينبغى حسم مادة الشر والمعصية وسد ذريعته ، مثال ذلك قول النبى ﷺ (لا يخلون الرجل بامرأة ، فإن الشيطان ثالثهما) ، ونهى عن الخلوة بأجنبية والسفر بها لأنه ذريعة إلى الشر ، وقد تقيد الخلفاء الراشدون بهذه القواعد وطبقوها(١٤) .

ونرى أن ابن تيمية يتخذ موقفا سليما فى رده الالزام فى القوانين الأخلاقية إلى ارادة الله وأحكامه المطلقة ، ودور العقوبات الشرعية فى إصلاح المجتمعات .

الإنسان بين رغباته الحسية وإرادته

يعرف ابن تيمية الإنسان بأنه (حى حساس متحرك بالارادة(١٥) فله إرادة دائما ، أما الغاية من هذه الارادة فهى ، إما المال وإما الجاه ، وإما محبة الرجل للمرأة ، وإما محبتها للرجل ، وإما غير ذلك من الأمور المطلوبة فى الدنيا ، أما كمال الإنسان فيتحقق فى أن يكون مراده هو الله سبحانه ، فيصبح منتهى حبه فتتحقق له العزة ، لأن من لم يكن عبدا لله ، فلابد من أن يصبح عبدا لغيره من أنواع المحبوبات التى تستعبده(١٦) .

(١٢) السياسة الشرعية ص١٦٢ .
(١٣) الحسبة ص٦٢ .
(١٤) السياسة الشرعية ص١٦٣ وما بعدها .
(١٥) ابن تيمية : العبودية فى الإسلام ص٣٢ .
(١٦) المصدر نفسه ص٣٢ .

وهذا كان المثل الأعلى الذى ينبغى أن يسير بمقتضاه سلوك الإنسان المؤمن أن يكون مراده هو الاله (الذى يستحق أن يكون محبوبا لذاته ، وهذا هو العلة الغائية الذى هو علة فاعلية للعلة الفاعلة)[١٧] إننا نراه هنا يرد أخلاقية الفعل إلى النتائج والآثار ، وإلى البواعث أيضا ، فالنفوس فى حاجة إلى الله من حيث هو معبودها ومحبوبها ومنتهى مرادها ، ومن حيث هو ربها وخالقها[١٨] ، فالباعث على السلوك هو محبة الله جل شأنه ، أما الهدف فهو أن يراد بالأعمال وجه الله وقد جاء الحديث يؤيد هذا المعنى فى قول الرسول ﷺ « **إن أول ثلاثة تسجر بهم جهنم رجل طلب العلم وعلمه وقرأ القران وأقرأه ليقول الناس هو عالم وقارئ ، ورجل قاتل وجاهد ليقول الناس هو شجاع وجرئ ، ورجل تصدق وأعطى ليقول الناس هو جواد سخى** » ان هؤلاء الثلاثة الذين يبتغون الرياء والسمعة يقفون على طرف النقيض من أولئك الذين جعلوا أعمالهم ابتغاء مرضاة الله وحده ، فكانوا على القمة من حيث الأفعال الأخلاقية كما يريدها الإسلام ، حيث أوردهم الله سبحانه بعد النبيين فى المرتبة وهم الصديقون والشهداء والصالحون (فإن من تعلم العلم الذى بعث الله به رسله وعلمه لوجه الله كان صديقا ، ومن قاتل لتكون كلمة الله هى العليا وقتل كان شهيدا ، ومن تصدق يبتغى بذلك وجه الله كان صالحا)[١٩] .

فالإنسان إذن له إرادة وعمل بهذه الارادة ، وإذا كان يستهدف بإرادته طلب اللذة فى المأكولات والمشروبات وما تشتهيه الأنفس بما أحل الله ، فهذه كلها من قبيل نعم الله على عباده ، فقد تعرف الله سبحانه إلى عبده بالنعم ليشكره منذ ولادته طفلا ، فالحياة نعمة ، وإدراك اللذات نعمة (وأما الايمان فهو أعظم النعم ، وبه تتم النعم)[٢٠] .

(١٧) الجواب الصحيح ج٤ ص١٠٩ .

(١٨) المصدر نفسه ص١٠٧ - ١٠٨ .

(١٩) الحسبة ص١١٠ .

وإذا كان لفظ العبودية يتضمن كما الذل والحب ، فإن حب العبد لربه يحرك ارادة القلب ، وبقدر هذه المحبة يقدم الإنسان على فعل ما يرضى الله (فإذا كانت المحبة تامة استلزمت ارادة جازمة فى حصول المحبوبات[٢١] . ويضرب ابن تيمية على ذلك مثلا بالجهاد الذى هو بذل ما فى وسع المؤمن وقدرته فى تنفيذ ما يحبه الله ودفع ما يكرهه ، والمحب لله ولرسوله يحتمل أكثر من غيره ممن يطلبون أغراضا أخرى ، كطلب الرياسة أو المال أو أمور أخرى قد تجلب لهم ضررا ويسلكون طرقا متعددة للحصول على مطلوباتهم ، ومن ثم يخضعون لهذه الرغبات والأهواء بينما المؤمن أشد حبا لله كما وصفه الله تعالى بقوله ﴿ **ومن الناس من يتخذ من دون الله أندادا يحبونهم كحب الله ، والذين امنوا أشد حبا لله** ﴾ ، البقرة/١٦٥ وهنا يقول ابن تيمية (إذا تبين هذا فكلما إزداد القلب حبا لله إزداد له عبودية وحرية عما سواه ، وكلما إزداد له عبودية إزداد له حبا وحرية عما سواه)[٢٢] .

ولكنه يضع شرطا لهذه المحبة حتى يصبح سلوك الفرد بما يرضى الله ، لأنه إذا ضعف العقل وقل العلم بالدين وفى النفس محبة انبسطت النفس بحقها فتقع فى الرذائل[٢٣] ، ولهذا فإنه يقرن نجاة من عقاب ، مستشهدا بقول من قال من السلف (من عبد الله بالحب وحده فهو زنديق ، ومن عبده بالرجاء وحده فهو مرجئ ، ومن عبده بالخوف وحده فهو حرورى – أى كالخوارج – ومن عبده بالحب والخوف والرجاء فهو مؤمن[٢٤] .

ومع هذا تبقى المحبة أصلا لكل عمل دينى حيث يرجع إليها الخوف والرجاء والدليل على ذلك الآيات القرآنية التى تتناول الرجاء والخوف : ﴿ **أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون**

(٢٠) ابن تيمية : جامع الرسائل ص١١٠ .
(٢١) العبودية فى الإسلام ص٣٠ .
(٢٢) ن . م . ص ١ذ .
(٢٣) ن . م . ص٣٩ .
(٢٤) جامع الرسائل ص١١٢ .

عذابه ﴾ الاسراء/٥٧ فإن (الراجى الطامع إنما يطمع فيما يحبه لا فيما يبغضه ، والخائف يفر من الخوف لينال المحبوب)[٢٥] .

النفس سعادتها وشقاؤها :

للنفس قوتان القوة العلمية ، والقوة العملية(٦٢) كما أن لها نوعين من الحياة احداهما طبيعية كحياة البهائم ، وهى ليست الحياة الكاملة النافعة التى خلق لأجلها الإنسان ، والثانية الحياة الكاملة النافعة ، أى ما ينتفع به الحى لأنه لابد له من لذة يريدها أو ألم يتجنبه .

والنفس بطبيعتها متحولة ، فهى حية ، والارادة والحركة الارادية من لوازم الحياة ، والارادة والعمل من لوازم ذاتها (فإذا هداها الله علمها ما ينفعها وما يضرها ، فأرادت ما ينفعها وتركت ما يضرها)[٢٧] .

وقد تفضل الله سبحانه على بنى ادم بأمرين هما أصل السعادة : الفطرة والهداية العامة .

ففيما يتعلق بالفطرة ، يأتى ابن تيمية بتفسيره للاية **﴿ وإذ أخذ ربك من بنى ادم من ظهورهم ذريتهم . وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم ؟ قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين ﴾** الأعراف ١٧٢ ، وقوله تعالى **﴿ فأقم وجهك للدين حنيفا . فطرة الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله . ذلك الدين القيم ﴾** الروم ٣٠ .

وكذلك الحديثان : قوله ﷺ : **« كل مولود يولد على الفطرة ، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه »** وقوله **﴿ يقول الله تعالى – خلقت عبادى**

(٢٥) التحفة العراقية فى الأعمال القلبية ص٧١ .

(٢٦) ابن تيمية : الجواب الصحيح ج٤ ص١٠٩ .

(٢٧) ابن تيمية : الحسنة والسيئة ص٦٥ .

حنفاء فاجتالتهم الشياطين . وحرمت عليهم ما أحللت لهم . وأمرتهم أن يشركوا بى ما لم أنزل به سلطانا﴾[٢٨] .

ويستخلص ابن تيمية من ذلك أن النفس إذا تركت بفطرتها كانت مقرة لله بالالوهية محبة له تعبد إياه لا تشرك به شيئا ، ولكن سبب فسادها أن شياطين الانس والجن يفسدونها بما يوحى بعضهم إلى بعض من الباطل[٢٩] .

وأما الهداية فهى هداية الله سبحانه بما جعل فى بنى البشر بالفطرة من المعرفة وأسباب العلم ، وبما أنزل من الكتب وأرسل من الرسل ، إذ يتضح من قصص الأنبياء اشتراك نفوس الناس من جنس ما كان فى نفوس المكذبين للرسل ، ولم يكن بالبشر حاجة إلى الاعتبار بمن لا يشبههم ولكن الأمر كما قال تعالى : **﴿ كذلك قال الذين من قبلهم ، مثل قولهم ، تشابهت قلوبهم ﴾** البقرة/١١٨ وقوله عز وجل : **﴿ يضاهئون قول الذين كفروا من قبل ﴾** ، وتظهر الحجة لأنه لولا (أن فى نفوس الناس من جنس ما كان فى نفوس المكذبين للرسل – فرعون ومن قبله – لم يكن بنا حاجة إلى الاعتبار بمن لا نشبهه قط)[٣٠] .

ولذلك تتمثل الهداية العامة للناس فيما جعل الله فيهم بالفطرة من المعرفة وأساليب العلم ، قال تعالى :**﴿ اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الإنسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم ، الذى علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم ﴾** وقال تعالى **﴿ الرحمن علم القران ، خلق الإنسان ، علمه البيان ﴾** وقال تعالى : **﴿ سبح اسم ربك الأعلى ، الذى خلق فسوى ، والذى قدر فهدى ﴾** وقال عز وجل **﴿ وهديناه النجدين ﴾** البلد/١٠ .

---

(٢٨) الحديث الأول ورد فى الصحيحين ، والثانى ورد فى صحيح مسلم .
(٢٩) ابن تيمية : الحسنة والسيئة ص٦٦ .
(٣٠) ابن تيمية :الحسنة والسيئة ص٨٤ .

وأفضل النعم التى تتم بها السعادة هى نعمة الايمان :

وقد خلقت النفس الإنسانية متحركة بالطبع حركة لابد فيها من البشر لحكمة بالغة ورحمة سابغة وإذا لم تخلق بهذا الوجه لكانت لخلق اخر غير الإنسان ، وهذا هو الاستفسار الذى ورد على لسان الملائكة فى قوله تعالى : ﴿ **أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء** ﴾ البقرة/٣٠[٣١] .

والذنب من لوازم نفس الإنسان ، ولذا فهو يحتاج إلى الهدى فى كل لحظة ، بل انه إلى الهدى أحوج منه إلى المأكل والمشرب ، وطلب الهدى فى دعاء الفاتحة يعنى أن العبد فقير إلى ربه عز وجل ، وهو فى حاجة دائما إلى تعليم ربه (فالقرآن والسنة إنما تذكر فيهما الأمور العامة الكلية ... لايذكر ما يخص به كل عبد . ولهذا أمر الإنسان فى مثل هذا بسؤال الهدى إلى الصراط المستقيم يتناول هذا كله : يتناول التعريف بما جاء به الرسول مفصلا ويتناول التعريف بما يدخل فى أوامره الكليات ، ويتناول إلهام العمل بعلمه[٣٢] فالإنسان فى حاجة دائمة إلى هداية ربه فى العلم والعمل .

ولئن كان الذنب شرا بالاضافة إلى العبد ، فإن الحكمة منه تتضح فى الحالتين :

الأولى : ان الذنب يوجب ذل العبد لربه سبحانه وتعالى فيحصل للمؤمن بسبب ذنبه من الحسنات ما لم يكن يحصل له بدونها ، كذلك فإنه إما أن يتوب فيصبح من التوابين الذين يحبهم الله ، وإما أن يكفر الله عنه بالمصائب ، يصبر عليها فترتفع درجاته[٣٣] .

(٣١) المصدر نفسه ص٧٩ - ٨٠ .

(٣٢) ابن تيمية : أمراض القلوب وشفاؤها .

(٣٣) ابن تيمية : الحسنة والسيئة ص٨٣ .

والثانية : ان الإنسان يظل حذرا من نفسه ولا يركن إليها لأنها مصدر الشر ، فيستعيذ بالله من شرورها ومن سيئات أعماله سائلا الله عز وجل إعانته على الطاعة (فبذلك يحصل له كل خير ويندفع عنه كل شر[٣٤] .

علة السيئات : اجتماع الجهل مع الهوى :

ولكن ، كيف يحذرنا الشيخ من الوقوع فى الذنوب والسيئات ، ويحثنا على فعل الحسنات ، إنه يرى أن من خصائص العقل أن يسعى الإنسان لجلب ما يفيده ودفع ما يضره ، فإذا اجتمع العقل والعلم ، ردع العبد نفسه عن السيئات ، لأن العالم هو الذى يخشى الله ، كما قال السلف وذلك تفسيرا لقوله تعالى : ﴿ **إنما يخشى الله من عباده العلماء** ﴾ فاطر/٢٨ وذلك (يقتضى أن كل من خشى الله فهو عالم[٣٥] ، والعلم بما أنذرت به الرسل يوجب الخشية الدافعة إلى فعل الحسنات وترك السيئات ، وعلى العكس فإن كل عاص (هو جاهل ، ليس بتام العلم[٣٦] .

وفعل السيئات يرجع إلى اجتماع الجهل مع الهوى ، فإن الغاية إما أن يعرفها الإنسان معرفة مؤكدة فيتجنب إتيانها ، وإما أن يجزم بضرر مرجوح ، فلا يفعل السيئة ، لأن مرتكب الذنوب لن يقدم على فعلها إذا علم أنه سيعاقب ، فإن عدم الجزم أو العجز عن الترجيح فربما بسبب الغفلة (والغفلة من أضداد العلم[٣٧] .

أما أعظم السيئات فهى حجود الخالق جل شأنه والشرك به ، كما فعل إبليس وفرعون ، فالأول يريد أن يعبد ويطاع من دون الله وأن يصرف الإنسان عن عبادة الله وطاعته ، والثانى ادعى الألوهية بقوله ﴿ **أنا ربكم الأعلى** ﴾

---

(٣٤) المصدر نفسه ص٨٣ .

(٣٥) ابن تيمية : الحسنة والسيئة ص٦٣ .

(٣٦) المصدر نفسه ص٦٥ .

(٣٧) المصدر نفسه ص٦٠ .

النازعات/٢٤ وقوله لموسى عليه السلام ﴿ **لئن اتخذت إلها غيرى لأجعلنك من المسجونين** ﴾ الشعراء/٢٩ ويرى ابن تيمية أن فى سائر النفوس شعبة من ظلم وجهل هذين الجاحدين فإن لم (يعن الله العبد ويهديه وقع فى بعض ما وقع فيه إبليس وفرعون بحسب الامكان)[٣٨] لأنه فى تخيله للنفس البشرية يلاحظ أنها مشحونة بحب العلو والرياسة[٣٩] .

يضاف إلى ذلك أن النفس لا تحمل داعى الظلم لغيرها بالعلو عليه والحسد له والتعدى عليه فى حقه فحسب بل إن فيها أيضا داعى الظلم لنفسها بتناول الشهوات القبيحة كالزنا وأكل الخبائث . ولذا يقسم الناس ثلاثة أقسام **الأول من يرضى إذا أعطى مما يشتهيه من الشهوات والحلال والحرام ويزول غضبه ، فهو ينظر إلى المعروف والمنكر من زاوية رغباته فإن أعطى رضى وإن لم يعط سخط ، فهو أحيانا ينكر المعروف ويحبذ المنكر طبقا لما حصل عليه . وهذا هو الإنسان الظلوم الجهول .**

الثانى قوم لهم ديانة صحيحة يخلصون لله وهم الذين امنوا وعملوا الصالحات يخلصون لله وحده ويصبرون على ما يلاقون من أذى ، فهم من خير أمة أخرجت للناس يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويؤمنون بالله .

والقسم الثالث قوم يجتمع فيهم ما لبعض القسمين الأول والثانى وهم أغلب المؤمنين[٤٠] ، أما تقسيمهم من حيث نفوسهم فالأولون هم أصحاب النفوس الأمارة بالسوء والأوسطون هم أهل النفوس المطمئنة التى قيل فيها (يا أيتها النفس المطمئنة إرجعى إلى ربك راضية مرضية فادخلى فى عبادى وادخلى جنتى) الفجر ، وأهل هذا القسم (الثالث) هم أصحاب النفوس اللوامة التى تفعل الذنب ثم تلوم صاحبها عليه وتخلط عملا صالحا وآخر سيئا[٤١] .

(٣٨) ابن تيمية : الحسنة والسيئة ص٨٦ .
(٣٩) المصدر نفسه ص٨٦ .
(٤٠) ابن تيمية : الحسبة ص٨٨ .
(٤١) المصدر نفسه ص٨٨ .

ولكن ، ما الباعث الذى يدفع الإنسان إلى ارتكاب السيئات دون الحسنات ؟ يجيب ابن تيمية عن ذلك بأن سبب ما يوقع الناس فى السيئات هو الجهل أى عدم العلم بكونها تضرهم ضررا راجحا أو الظن بأنها تنفعهم نفعا راجحا . (ولهذا يسمى حال فعل السيئات : الجاهلية ، فإنه يصاحبها حال من حال الجاهلية[٤٢] .

ولم يترك ابن تيمية المسألة معلقة ، بل قدم الحلول التى تأخذ بيد الإنسان إلى فعل الحسنات[٤٣] ، وهى خشية الله ، والقضاء على الهوى بالاخلاص ثم التوبة عملا بقوله تعالى (وإذا جاءك الذين يؤمنون باياتنا فقل سلام عليكم كتب ربكم على نفسه الرحمة أنه من عمل منكم سوءا بجهالة ثم تاب من بعده وأصلح فانه غفور رحيم) الأنعام ٤٥ ، فلا يزال المؤمن يخرج من الظلمات إلى النور ويتجدد له العلم والايمان فيتوب مما تركه وفعله ، ويزداد هدى (والتوبة تصقل القلب وتجليه مما عرض له من رين الذنب المشار إليه فى الاية (كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون) المطففين ٤١ ، وكما قال النبى ﷺ (ان العبد إذا أذنب نكتت فى قلبه نكتة سوداء ، فان تاب واستغفر صقل قلبه ، وان زاد زيد فيها حتى تعلو قلبه[٤٤] .

إن دافع السلوك ينبغى إذن أن يكون العبودية لله سبحانه واتباع أوامره واجتناب نواهيه وباختصار هو تزكية النفس التى يتضمن زوال جميع الشرور من الفواحش والظلم والشرك والكذب وغير ذلك عن طريق إتيان العمل الصالح وفعل الحسنات ، فالعمل الصالح (هو فعل الحسنات ، والحسنات هى ما أحبه الله ورسوله ، وهو ما أمر به من إيجاب واستحباب)[٤٥] .

---

(٤٢) ابن تيمية : الحسنة والسيئة ص٦٢ .

(٤٣) العبودية فى الإسلام ص٣٧ .

(٤٤) جامع الرسائل ص٢٣٧ .

(٤٥) ابن تيمية : العبودية فى الإسلام ص١٨ .

ضرورة الصدق وإخلاص النية فى أعمال الدين والدنيا :

فى بحث ابن تيمية عن أهمية الأمور الباطنة من العلوم والأعمال عرض لعدة مسائل ترتبط بضرورة الصدق والاخلاص وعقد النية ، وكلها تتصل بالحديث : (**القلب ملك والأعضاء جنوده ، فإذا طاب الملك طابت جنوده ، وإذا خبث خبثت جنوده**) ومن هذا الحديث يتطرق إلى علاقة البواعث بالسلوك ، فإذا بحثنا فى النتائج التى وصل إليها شيخ الإسلام ، فإننا نراه يقرر أن أصل الدين فى الحقيقة هو الأمور الباطنة من العلوم والأعمال (وان الأعمال الظاهرة لا تنفع بدونها)[٤٦] ومفهوم الدين عنده يتسع فيشمل العقائد والعبادات وقواعد السلوك حيث وقع اختياره على الاية الجامعة التى تتناول كل هذا فى قوله تعالى ﴿ **ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من امن بالله واليوم الاخر والملائكة والنبيين واتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب وأقام الصلاة واتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون** ﴾ البقرة/١٧٧ .

وبنظرة شاملة جامعة بين العمل والفردى والتكافل الاجتماعى بالتعاون على البر والتقوى ، يقول شيخ الإسلام ، (والسعى سعيان : سعى فيما نصب للرزق : كالصناعة والزراعة والتجارة . وسعى بالدعاء والتوكل والاحسان إلى الخلق ونحو ذلك ، فإن الله فى عون العبد ما كان العبد فى عون أخيه)[٤٧] .

---

(٤٦) التحفة العراقية فى الأعمال القلبية ص٤٣ .

(٤٧) الفتاوى ج٨ ص٥٤١ ط الرياض سنة ١٣٩٨هـ .

ويذكر ابن تيمية أن الاية الانفة الذكر فى وصف الصادقين فى دعوى البر (الذى هو جماع الدين)[48] وعلى العكس وردت آيات تصف المنافقين فى مثل قوله تعالى : ﴿ فى قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون ﴾ البقرة/١٠ فوصفهم بالكذب فى هذه الاية وغيرها ، فالصادق هو الذى يصدق فى قصده ونيته وطلبه وارادته وعمله وخبره وكلامه ، والمنافق على الضد يكذب ، ويصبح مرائيا فى عمله ، لا يصدر عنه نية صادقة ، قال الله تعالى : ﴿ ان المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى يراءون الناس ﴾ الناس/١٤٣ .

والاخلاص فى العقيدة والعمل هو حقيقة الإسلام (إذ الإسلام هو الاستسلام لله لا لغيره)[49] ويندرج تحته الأعمال الباطنة كمحبة الله ، والاخلاص له ، والتوكل عليه ، والرضا عنه ، ونحو ذلك ، وهى كلها (خير محض ، وهى حسنة محبوبة فى حق كل النبيين والصديقين والشهداء والصالحين)[50] ثم يقرر ابن تيمية بعد هذا أن النية للعمل كالروح للجسد[51] .

ويقع اختيار ابن تيمية على حديث قدسى يستشهد به فى مجال العمل وبواعثه فى صلة العبد بربه عز وجل ، وصلته بالناس أيضا فقد روى الطبرانى فى كتاب الدعاء عن النبى ﷺ أنه قال (يقول الله : يا ابن ادم انما هى أربع واحدة لى وواحدة لك وواحدة بينى وبينك ، وواحدة بينك وبين خلقى ، فأما التى لى فتعبدنى لا تشرك بى شيئا ، وأما التى هى لك فعملك أجازيك به أحوج ما تكون إليه ، وأما التى بينى وبينك فمنك الدعاء وعلى الاجابة ، وأما التى بينك وبين خلقى فأت للناس ما تحب أن يأتوا إليك) ، ويشرح ابن تيمية

(٤٨) المصدر نفسه ص٤٢ .

(٤٩) المصدر نفسه ص٤٣ .

(٥٠) المصدر نفسه ص٤٤ .

(٥١) السياسة الشرعية ص٧١ وانظر أيضا ص١١٦ .

هذا الحديث فيوضح أن العبد يحب ويريد ابتداء ما يراه ملائما له ، والله تعالى يحب ويرضى الغاية المقصودة فى رضاه ، والوسيلة المتبعة فى ذلك(٥٢) . ونحن نفهم من الحديث أيضا القاعدة التى تحدد علاقة الناس بعضهم ببعض فى الأعمال .

وإذا كان لا بد من النية فى القلب ، فان القلب يحتاج إلى أن يربى وينمو عن طريق تزكيته ، ووسيلته القران الذى يزيل الأمراض الموجبة للارادات الفاسدة ، (حتى يصلح القلب فتصلح ارادته ويعود إلى فطرته التى فطر عليها ، كما يعود البدن إلى الحال الطبيعى ، ويتغذى القلب من الايمان والقران بما يزكيه ويؤيده ، كما يتغذى البدن بما ينميه ويقومه ، فإن زكاة القلب مثل نماء البدن(٥٣) .

والأعمال تابعة للاعتقادات ، فإن صلحت صلحت ، وإن فسدت فسدت أيضا ، ولذا فإن الله يحاسب العبد على النية حتى لو لم يقدم على العمل ، فإن من كان عازما على الفعل عزما جازما ، وفعل ما يقدر عليه منه ، كان بمنزلة الفاعل (كما جاء فى السنن فيمن تطهر فى بيته ثم ذهب إلى المسجد ليدرك الجماعة فوجدها قد فاتت ، انه يكتب له أجر صلاة الجماعة(٥٤) ، وكذلك من هم بسيئة و لم يفعلها كتب له حسنة كاملة ، وهذا هو تفسيره لقوله تعالى : ﴿ **ولقد همت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه** ﴾ يوسف/٢٤ . والبرهان المذكور فى الاية هو برهان الايمان الذى حصل فى قلبه فصرف الله به ما كان هم به ، وكتب له حسنة كاملة ، و لم يكتب عليه خطيئة إذ فعل خيرا و لم يفعل سيئة(٥٥) .

---

(٥٢) التحفة العراقية ص٤٦ .
(٥٣) أمراض القلوب وشفاؤها ص٦ .
(٥٤) فتاوى ابن تيمية ج١ ص١٠١ .
(٥٥) أمراض القلوب وشفاؤها ص٩ .

مما تقدم يتضح أن ابن تيمية يقرر أنه لابد للعمل من ركنين : النية والحركة مستندا إلى حديث الرسول ﷺ ، (أصدق الأسماء حارث وهمام) ، ويقول : (فكل أحد حارث وهمام له عمل ونية . لكن النية المحمودة التى يتقبلها الله ويثيب عليها أن يراد وجه الله بذلك العمل ، والعمل المحمود هوالصالح وهو المأمور به[٥٦] .

أنــواع الأعمــال وكيـف نختــارها ؟

ينطلق ابن تيمية من قاعدة ان الايمان يزيد وينقص ، يزيد بالطاعات وينقص بالمعاصى ، بل يذهب إلى أكثر من هذا فيجعل من التفكير العقلى والتأمل فى ايات الله تعالى أسبابا لترسيخ الايمان فى القلب وتعميقه . وصلة العقل بالايمان هنا تذكرنا بكلمة جارودى الجامعة (إن الايمان عقل بغير حدود) !!

إن عوامل تقوية الايمان كثيرة (مثل استماع القران ، ورؤية أهل الايمان والنظر فى أحوالهم ، ومعرفة أحوال النبى ﷺ ومعجزاته ، والنظر فى آيات الله تعالى ، والتفكر فى أحوال الإنسان نفسه ، والضروريات التى يحدثها الله للعبد تضطره إلى الذل إلى الله والاستسلام له ، واللجوء إليه[٥٧] .

ومع هذه الطرق الدائرة فى فلك النظر والتفكر والتأمل والدراسة العلمية . يأتى البحث عن الطرق العلمية التى يقوى بها الايمان ، فهل نبدأ بالزهد أم بالعلم أم بالعبادة ؟ أم نجمع بين ذلك كله بحسب الطاقة ؟

---

(٥٦) الحسبة ص٧٦ .

(٥٧) الفتاوى ج٧ ص٦٥٠ .

أجاب شيخ الإسلام بقوله :

(لابد من الايمان الواجب ، والعبادة الواجبة ، والزهد الواجب ، ثم الناس يتفاضلون فى الايمان ، كتفاضلهم فى شعبه ، وكل انسان يطلب ما يمكنه طلبه ، ويقدم ما يقدر على تقديمه من الفضائل ، والناس يتفاضلون فى هذا الباب : فمنهم من يكون العلم أيسر عليه من الزهد ، ومنهم من يكون الزهد أيسر عليه ، ومنهم من تكون العبادة أيسر عليه منهما . فالمشروع لكل انسان يفعل ما يقدر عليه من الخير ، كما قال تعالى ﴿ **فاتقوا الله ما استطعتم** ﴾ .

وإذا ازدحمت شعب الايمان قدم ما كان ارضى لله وهو عليه أقدر ، فقد يكون على المفضول أقدر منه على الفاضل ، ويحصل له أفضل مما يحصل من الفاضل ، فالأفضل لهذا ان يطلب ما هو انفع له ، وهو فى حقه أفضل ، ولا يطلب ما هو أفضل مطلقا ، إذا كان متعذرا فى حقه أو متعسرا يفوته ما هو أفضل له وأنفع كمن يقرأ القران بالليل فيتدبره وينتفع بتلاوته والصلاة تثقل عليه ولا ينتفع منها بعمل ، أو ينتفع بالذكر أعظم مما ينتفع بالقراءة ، فأى عمل كان له أنفع ولله أطوع أفضل فى حقه من تكلف عمل ما لا يأتى به فى وجهه) .

ويقسم الزهد إلى قسمين : احداهما الزهد ضد الرغبة كالبغض المخالف للمحبة والكراهية المخالفة للارادة ، والثانى الشئ المزهود فيه .

وبالمعنى الأول فإن حقيقة المشروع منه أن يكون كراهية العبد وبغضه وحبه تابعا لحب الله وبغضه ورضاه وسخطه ، فيحب ما أحبه الله ويبغض ما أبغضه الله ويرضى ما يرضاه ويسخط ما يسخط الله بحيث لا يكون تابعا هواه بل لأمر مولاه .

وبالمعنى الثانى فمن الملاحظ أن كثيرا من الزهاد فى الحياة الدنيا اعرضوا عن فضولها ولم يقبلوا على ما أحبه الله ورسوله ﷺ وليس مثل هذا الزهد يأمر الله به ورسوله ﷺ ، ولهذا كان فى المشركين زهاد وفى أهل الكتاب زهاد وفى أهل البدع زهاد .

والآن ، بعد أن عرفنا أن سلوكنا ينبغى أن يكون تابعا لما يحبه الله تعالى ويرضاه ووفقا لما يأمرنا به وينهانا فما الطريق للوصول إلى ذلك ؟يجيب الشيخ على ذلك مستدلا بالحديث الصحيح :

(المؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف ...)

وما دام الأمر كذلك فينبغى علينا الاجتهاد فى فعل المأمور وترك المحظور والاستعانة به – عز وجل – على ذلك ، ففى صحيح مسلم عن النبى ﷺ أنه قال (**المؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفى كل خير ، احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز ، وان أصابك شئ فلا تقل لو أنى فعلت كذا لكان كذا وكذا ، ولكن قل قدر الله وما شاء فعل ، فإن لو تفتح عمل الشيطان**) .

وفى السنن أن النبى ﷺ قضى على رجل فقال المقضى عليه (حسبى الله ونعم الوكيل) فقال النبى ﷺ (إن الله يلوم على العجز ، ولكن عليك بالكيس ، فإذا غلبك أمر فقل : حسبى الله ونعم الوكيل) .

ويشرح ابن تيمية الحديث ببيان أن النبى ﷺ قد أمر العبد بأن يحرص على ما ينفعه ، ويستعين بالله على ذلك .

ولكن المنفعة فى الحديث مشروطة بالاجتهاد فى الخير ، وهو العبادة (فإن كل ما ينفع العبد فهو مأمور بطلبه ، وإنما ينهى عن طلب ما يضره – وإن

اعتقد أنه ينفعه – كما يطلب المحرمات وهى تضره ، ويطلب المفضول الذى لا ينفعه ، والله تعالى أباح للمؤمنين الطيبات وهى ما تنفعهم ، وحرم عليهم الخبائث وهى ما تضرهم[٥٨] .

ولكن ، ربما يرد بخاطر القارئ ما يجول فى الاذهان عن ارتباط الأوامر الدينية بالنفع والضرر . أى هل الأوامر تتعلق فقط بتحقيق النفع وتجنب الضرر ، أم هناك حكم أخرى فى بعض الأوامر الدينية نجهل الحكمة منها ؟

إزاء هذه الخواطر يجيبنا ابن تيمية :

ينظر شيخ الإسلام إلى الحكمة من الأوامر الدينية الشرعية مقسما إياها إلى ثلاثة أقسام :

احداها : أن تكون فى نفس الفعل – وإن لم يأمر به – كما فى الصدق والعدل ونحوها من المصالح الحاصلة لمن فعل ذلك ، وان لم يؤمر به . والله تعالى يأمر بالصلاح وينهى عن الفساد ، فإنه سبحانه يأمر بالعدل وينهى عن الظلم ، ولهذا لاحظ ابن تيمية ان الله تعالى ينصر الدولة العادلة وان كانت كافرة ولا ينصر الدولة الظالمة ولو كانت مؤمنة .

والنوع الثانى: ان ما أمر به ونهى عنه صار متصفا بحسن اكتسبه من الأمر وقبح اكتسبه من النهى كالخمر التى كانت لم تحرم ثم حرمت فصارت خبيثة والصلاة إلى الصخرة ببيت المقدس التى كانت حسنة فلما نهى عنها صارت قبيحة . فإن ما أمر به يحبه ويرضاه وما نهى عنه يبغضه ويسخطه . وهو إذا أحب عبدا ووالاه اعطاه من الصفات الحسنة ما يمتاز بها على من ابغضه وعاداه . وكذلك المكان والزمان الذى يحبه ويعظمه كالكعبة وشهر رمضان – يخصه بصفات يميزه بها على ما سواه بحيث يحصل فى ذلك الزمان والمكان من رحمته واحسانه ونعمته مالا يحصل فى غيره .

(٥٨) فتاوى ج٧ ص٦٥٢، ٦٥٤ .

فإن قبل الخمر قبل التحريم وبعده سواء فتخصيصها بالخبث بعد التحريم ترجيح بلا مرجح .

قيل ليس كذلك بل إنما حرمها فى الوقت الذى كانت الحكمة تقتضى تحريمها . وليس معنى كون الشئ حسنا وسيئا مثل كونه أسود وأبيض بل هو من جنس كونه نافعا وضارا وملائما ومنافرا وصديقا وعدوا ونحو هذا من الصفات القائمة بالموصوف التى تتغير بتغير الأحوال . فقد يكون الشئ نافعا فى وقت ضارا فى وقت ، والشئ الضار قد يترك تحريمه إذا كانت مفسدة التحريم أرجح كما لو حرمت الخمر فى أول الإسلام ، فإن النفوس كانت قد اعتادتها عادة شديدة ولم يكن حصل عندهم من قوة الايمان ما يقبلون ذلك التحريم ، ولا كان إيمانهم ودينهم تاما حتى لم يبق فيه نقص إلا ما يحصل بشرب الخمر من صدها عن ذكر الله وعن الصلاة فهذا وقع التدريج فى تحريمها . فأنزل الله أولا فيه **﴿ يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس وإثمهما أكبر نفعهما ﴾** البقرة/٢١٩ . ثم أنزل فيها لما شربها طائفة وصلوا فغلط الإمام أثناء القراءة ، آية النهى عن الصلاة سكارى (النساء٤٣) ثم أنزل الله اية التحريم (المائدة ٩٠) .

والنوع الثالث – ان تكون الحكمة ناشئة من نفس الأمر وليس فى الفعل البتة مصلحة ، لكن المقصود ابتلاء العبد هل يطيع أو يعصى ، فإذا اعتقد الوجوب وعزم على الفعل حصل المقصود بالأمر فينسخ حينئذ ، كما جرى للخليل فى قصة الذبح : فإنه لم يكن الذبح مصلحة ولا كان هو مطلب الرب فى نفس الأمر ، بل كان مراد الرب ابتلاء ابراهيم ليقدم طاعة ربه ومحبته على محبة الولد ، ولا يبقى الله أن يهبه إياه وهو خليل الله – فأراد تعالى تكميل خلته لله بأن لا يبقى فى قلبه ما يزاحم به محبة ربه .

﴿ فلما أسلما وتله للجبين وناديناه أن يا ابراهيم قد صدقت الرؤيا إنا كذلك نجزى المحسنين . إن هذا لهو البلاء المبين ﴾ (الصافات ١٠٣ ، ١٠٦) ومثل هذا الحديث الذى فى (صحيح البخارى) حديث أبرص وأقرع وأعمى كان المقصود ابتلاءهم لا نفس الفعل(٥٩) .

وفيما يلى نص الحديث المشار إليه :

عن أبى هريرة رضى الله عنه أنه سمع النبى ﷺ يقول : إن ثلاثة من بنى إسرائيل ، أبرص وأقرع وأعمى ، أراد الله أن يبتليهم ، فبعث إليهم ملكا فأتى الأبرص فقال : أى شئ أحب إليك ؟ قال : لون حسن وجلد حسن ويذهب عنى الذى قذرنى الناس ، فمسحه ، فذهب قذرة ، وأعطى لونا حسنا ، قال : فأى المال أحب إليك ؟ قال : الابل أو قال البقر - شك الراوى - فأعطى ناقة عشراء فقال : بارك الله لك فيها . فأتى الأقرع ، فقال : أى شئ أحب إليك ؟ قال : شعر حسن ويذهب عنى هذا الذى قذرنى الناس ، فمسحه فذهب عنه وأعطى شعرا حسنا ، قال : فأى المال أحب إليك ؟ قال : البقر ، فأعطى بقرة حاملا قال : بارك الله لك فيها .

فأتى الأعمى فقال : أى شئ أحب إليك ؟ قال أن يرد الله إلى بصرى فأبصر الناس فمسحه فرد الله إليه بصره ، قال : فأى المال أحب إليك ؟ قال الغنم فأعطى شاة والدا فأنتج هذا وولدا هذا ، فكان لهذا واد من الابل ، ولهذا واد من البقر ، ولهذا واد من الغنم . ثم أنه أتى الأبرص فى صورته وهيئته فقال : رجل مسكين قد انقطعت بى الحبال فى سفرى فلا بلاغ لى اليوم إلا بالله ثم بك أسألك بالذى أعطاك اللون الحسن والجلد الحسن ، والمال بعيرا أتبلغ به فى سفرى ، فقال الحقوق كثيرة فقال : كأنى أعرفك ألم تكن أبرص يقذرك الناس ؟ فقيرا فأعطاك الله ؟ فقال : إنما ورثت هذا المال كابرا عن كابر ، فقال : إن كمت كاذبا فصيرك الله إلى ما كنت . أتى الأقرع فى صورته

(٥٩) ابن تيمية : جواب أهل العلم والإيمان ص١٩٩ - ٢٠١ ط دار الكتب العلمية بيروت - ١٣٩٤هـ - ١٩٧٤م .

وهيئته ، فقال له مثل ما قال لهذا ، ورد عليه مثل ما رد هذا فقال : إن كنت كاذبا فصيرك الله إلى كنت .

وأتى الأعمى فى صورته وهيئته ، فقال : رجل مسكين وابن سبيل انقطعت بى الحبال فى سفرى فلا بلاغ لى اليوم إلا بالله ثم بك ، أسألك بالذى رد عليك بصرك شاة أتبلغ بها فى سفرى فقال : قد كنت أعمى فرد الله إلى بصرى ، فخذ ما شئت ودع ما شئت فو الله لا أجهدك اليوم بشئ أخذته لله عز وجل ، فقال : أمسك مالك ، فإنما ابتليتم فقد رضى الله عنك وسخط على صاحبيك . (قال النووى متفق عليه - رياض الصالحين باب المراقبة) .

وفى ضوء هذا الشرح يأتى إلى تفسير قوله تعالى (وما خلقت الجن والانس إلا ليعبدون) فهى متعلقة بالارادة الدينية الشرعية ، وقد يقع مرادها وقد لا يقع ، والمعنى : إن الغاية التى نحب لهم ونرضى لهم والتى أمروا بفعلها هى العبادة فهو العمل الذى خلق العباد له ، أى هو الذى يحصل كما لهم وصلاحهم الذى به يكونون مرضيين محبوبين فمن لم تحصل منه هذه الغاية كان عادما لما يحب ويرضى ، ويراد له الارادة الدينية التى فيها سعادته ونجاته وعادما لكماله وصلاحه العدم المستلزم فساده وعذابه(٦٠) ....

---

(٦٠) مجموعة الرسائل الكبرى ج٢ ص٧٨ .

محـاسن الأخـــلاق :

وهنا يتخذ شيخ الإسلام من العبادات الدعامة الأساسية لمحاسن الأخلاق ومكارمها : ففى دائرة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . يجعل ابن تيمية فى باب المعروف أعمال العبادات كلها . والايمان بالله تعالى وبملائكته وكتبه ورسله واليوم الاخر . والاحسان وهو أن يعبد الإنسان ربه كأنه يراه فإن لم يكن يراه فإن الله يراه . وسائر ما أمر الله به ورسوله من الأمور الباطنة والظاهرة أى اخلاص الدين لله والتوكل عليه . والرجاء لرحمته والخشية من عذابه والصبر لحكمه والتسليم لأمره . وكلها من الأمور التى تلمح فيها مدى قوة البواعث من على الأعمال . ثم يقرن ابن تيمية بين العبادات وغيرها من أنواع السلوك التى تعد أقرب إلى محيط الأخلاق . ولكن الاقتران يدلنا على أنه لا يفرق بينها وبين أعمال العبادات لأن قواعد الأخلاق فى الإسلام لا يمكن فصلها عن أصوله . انه بعد سرد تفاصيل أعمال العبادات على سبيل الحصر . يأتى بغيرها من الأعمال بقوله : (ومثل صدق الحديث . والوفاء بالعهود وأداة الامانات إلى أهلها . وبر الوالدين . وصلة الأرحام . والتعاون على البر والتقوى . والاحسان إلى الجار واليتيم والمسكين وابن السبيل والصاحب والزوجة والسلوك . والعدل فى المقال والفعال)

وهكذا يضم ابن تيمية هذا كله تحت اسم (المعروف) المأمور به . ويبدو أنه يعد ما ورد فى اخر عبارته من قبيل أخلاق الكافة التى ينبغى عليهم التقيد بها . ثم يذكر بعد ذلك ما يرتقى بالإنسان إلى مكارم الأخلاق المندوب إليها . مثل (ان تصل من قطعك . وتعطى من حرمك وتعفو عمن ظلمك) قال الله تعالى : **﴿ وجزاء سيئة سيئة مثلها فمن عفا وأصلح فأجره على الله إنه لا يحب الظالمين(٤٠) ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل**

(٤١) إنما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبغون فى الأرض بغير الحق أولئك لهم عذاب أليم(٤٢) ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور(٤٣) ﴾ الشورى[٦١].

يفهم من الآية أن محاسن الأخلاق تقتضى (أن تصل من قطعك بالسلام والاكرام والدعاء له والاستغفار والثناء عليه والزيادة له وتعطى من حرمك من التعليم والمنفعة والمال . وتعفو عمن ظلمك فى دم أو مال أو عرض) . ويعتبر أن بعض هذا واجب . وبعضه مستحب[٦٢].

أما الخلق العظيم – الذى وصف به الله محمدا ﷺ – فإنه يعنى (الدين الجامع لجميع ما أمر الله به مطلقا) . وهو أيضا ماعبرت عنه السيدة عائشة رضى الله عنها بقولها: « كان خلقه القرآن » . حقيقة ذلك (امتثال مايحبه الله تعالى بطيب نفس وانشراح صدر)[٦٣] .

ويتضح لنا بدليل اخر فهم ابن تيمية لشمول دائرة الإسلام جوانب العقائد والعبادات والأخلاق أيضا لأن بيان ما تقدم كله يدخل تحت الأمر بتقوى الله . فإن تقوى الله تجمع (فكل ما أمر الله به ايجابا واستحبابا وما نهى عنه تحريما وتنزيها . وهذا يجمع حقوق الله وحقوق العباد)[٦٤] . ومضى شارحا ما وصى به النبى ﷺ معاذا لما بعثه إلى اليمن : (اتق الله حيثما كنت . وأتبع السيئة الحسنة تمحها وخالق الناس بخلق حسن) . فقد تضمن هذا الحديث حق الله من عمل الصالح وإصلاح الفاسد . وحق الناس

---

(٦١) المصدر نفسه ص٢٣٤ .

(٦٢) ابن تيمية : مجموعة الرسائل الكبرى ج١ ص٣١٦ – ٣١٧ .

(٦٣) ابن تيمية : مجموعة الرسائل الكبرى ج١ ص٢٣٤ .

(٦٤) المصدر نفسه ص٢٣٤ - ٢٣٥

وهو ان يخالقهم بخلق حسن)[٦٥] وتقوى الله تشمل هذا كله لأن التقوى هى (فعل ما أمر الله به وترك ما نهى الله عنه[٦٦] . والتقوى أيضا هى الدين كله (لكن ينبوع الخير وأصله اخلاص العبد لربه عبادة واستعانة كما فى قوله : (إياك نعبد وإياك نستعين[٦٧].

إن إخلاص العبد لربه عبادة وعملا هو ينبوع الخير . فما هى أعمال الخير ؟

يورد ابن تيمية حديثا ورد على لسان موسى عليه السلام : (قال موسى يارب أى عبادك أحب إليك ؟ قال : الذى يذكرنى ولا ينسانى . قال : أى عبادك أعلم ؟ قال : الذى يطلب علم الناس إلى علمه ليجد كلمة تدل على هدى أو ترده عن ردى . قال : أى عبادك أحلم ؟ قال : الذى يحكم على نفسه كما يحكم على غيره ويحكم لغيره كما يحكم لنفسه (فذكر فى الحديث الحب . والعلم والعدل . وذلك جماع الخير)[٦٨].

أما تفصيل ذلك فيأتى على الترتيب الآتى :

إنه يعنى بالمحبة أن يكون القلب محبا لله وحده مخلصا له الدين . ويضرب مثلا على ذلك بيوسف عليه السلام الذى كان محبا لله مخلصا له فوصفه تعالى بقوله ﴿ لنصرف عنه السوء والفحشاء . إنه من عبادنا المخلصين ﴾ يوسف/٢٤ . بعكس امرأة العزيز التى كانت مشركة فابتليت بالعشق . ولا يبتلى به احد إلا لنقص توحيده وإيمانه . ولكن القلب المنيب إلى الله الخائف منه يصرف عنه محبته إلى غيره . ويدفعه فعل الطاعة محبة لله وخوفا منه –

---

(٦٥) المصدر نفسه ص٢٣٤ .
(٦٦) المصدر نفسه ص٣١٠ .
(٦٧) المصدر نفسه ص٢٣٥ .
(٦٨) التحفة العراقية فى الأعمال القلبية ص٨٥ .

ولما كان الايمان يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية – فإن المؤمن كلما فعل الطاعة وترك المعاصى . قوى حبه لله وخوفه منه (فيزيل ما فى القلب من محبة غيره ومخافة غيره)[٦٩] وقد بين الله ان محبته توجب اتباع الرسول بقوله تعالى : ﴿ **قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله** ﴾ ال عمران/٣١ . فالاتباع والتقيد بقواعد الشرع . بعكس الذين زعموا محبة الله ولم يتقيدوا بشريعته . إذ قالت اليهود والنصارى ﴿ **نحن أبناء الله وأحباؤه** ﴾ المائدة/١٨ . وهذا إدعاء للمحبة دون دليل مع ما فيه من مخالفة الشريعة ما لا يوجد فى أهل الخشية . ولهذا قرن الله الخشية بها فى قوله تعالى : ﴿ **هذا ما توعدون لكل أواب حفيظ . من خشى الرحمن بالغيب وجاء بقلب منيب . إدخلوها بسلام ذلك يوم الخلود** ﴾ .

والعلم أيضا أحد البواعث على فعل الخير . والعلم النافع هو أصل الهدى الذى يؤدى إلى الحق وهو الرشاد . ومصدر الضلال العمل بغير علم كما أن سبب اتباع الهوى هو الغى قال تعالى . ﴿ **والنجم إذا هوى ما ضل صاحبكم وما غوى** ﴾ النجم . وكان معاذ بن جبل يرشد إلى طلب العلم والحث عليه . قال : (عليكم بالعلم . فإن طلبه لله عباده . ومعرفته خشية . والبحث عنه جهاد وتعلمه لمن لا يعلمه صدقة . ومذاكرته تسبيح به يعرف الله ويعبد . به يمجد ويحد . يرفع الله بالعلم أقواما يجعلهم للناس قادة وأئمة يهتدون بهم . وينتهون إلى رأيهم) . ولذا قال ابن تيمية يذهب إلى ان الدين كله هو علم بالحق وعمل به[٧٠].

أما عن العدل كأساس لكل خير . فان من رأى الشيخ السلفى ان صلاح حال الإنسان فى العدل وان فساده فى الظلم[٧١] . وتتضح ضرورة اقامة

(٦٩) أمراض القلوب وشفاؤها ص٣٠ .

(٧٠) المصدر نفسه ص٥٨ .

(٧١) أمراض القلوب وشفاؤها ص٣١ .

العدل والحكم به من قوله تعالى ﴿ لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط . وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس . وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب . ان الله قوى عزيز ﴾ الحديد/٢٥ (فذكر الله انه أنزل الكتاب والميزان وانه أنزل الحديد لأجل القيام بالقسط . ولهذا كان قوام الدين بكتاب يهدى وسيف ينصر)[٧٢] .

كما حرم الله البغى بغير الحق . فالعدل أساس استقامة أمور الناس وان اشتركوا فى أنواع من الاثم . ولا تستقيم أمورهم مع الظلم فى الحقوق . وإن لم يشتركوا فى الإثم ، ولهذا قيل : (**إن الله يقيم الدولة العادلة وإن كانت كافرة ، ولا يقيم الدولة الظالمة وإن كانت مسلمة**[٧٣] ، وقد جاء الحديث أيضا محرماً للظلم . إذ قال النبى ﷺ (ليس ذنب أسرع عقوبة من البغى وقطيعة الرحم) فبين الحديث ان الباغى والظالم يصرعان فى الدنيا بالرغم من احتمال أن يصبحا مرحومين فى الآخرة .

والنفس الإنسانية فيها داعى الظلم لغيرها بواسطة العلو عليه . والحسد له والتعدى عليه فى حقوقه . كما أنها نفسها (بتناول الشهوات القبيحة كالزنا وأكل الخبائث)[٧٤] .

ولهذا شرع الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر لتضييق الخناق على الأعمال الناجمة عن ظلم الناس بعضهم لبعض . وظلمهم لأنفسهم بفعل المنكرات . ويؤمر بما فيه من داعى الخير الذى يدعوه إلى العلم والصدق وأداء الأمانة .

---

(٧٢) التحفة العراقية ص٤٢ .
(٧٣) الحسبة ص٨٦ .
(٧٤) نفس المصدر والصفحة .

أن يقابل السيئات بضدها من الحسنات (كما يقابل الطبيب المرض بضده فيؤمر بأن يصلح نفسه . وذلك بشيئين . فعل الحسنات وترك السيئات)[٧٥] .

انتــهى بحمــــد الله تعـــالى

---

(٧٥) نفس المصدر ص٩٢ .

الفهرس

الموضوع	الصفحة